مانيل سوري

موت فيشنو

رواية



ترجمة: فرج الترهوني

مانيل سوري

مــــوت فــيشـنـو

((رواية))

ترجمة: فرج الترهوني

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة مشروع "كلمة"
فيشنو (الإله الهندوسي)-قصص
Suri. Manil
PS3569.U725 T27 2013
الطبعة الأولى 1435 هـ 2014 م
حُقُوق الطبع مَحْفُوظَة. هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة (مشروع "كلمة")
Berliner Kindheit um 1900
Suhrkamp Taschenbuchverlag 2006 ©
موت فيشنو : رواية / مانيل سوري ؛ ترجمة فرج الترهوني ؛
مراجعة أحمد خريس.-أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للسياحة و الثقافـة، كلمة، 2013.
ص. 296 ؛ 13.5x20.3 سم.
ترجمة كتاب : The death of Vishnu
تدمك : ISBN978-9948-01-451-5
أ- ترهوني، فرج. ب- خريس، أحمد.

www.kalima.ae KALIMA
ص.ب : 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف : 300 6215 2 971+
فاكس : 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة "كلمة" غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

إهــــداء الكاتب

الى أمي وأبي

تقديم الترجمة

«ربما لجأت إلى كتابة الرواية هرباً من رعب الرياضيات»؛ هذا ما يقر به مانيل سوري في مقابلة معه، بُعيد ذيوع صيته عقب نشر روايته الأولى «موت فيشنو». وُلد سوري عام 1959 في مدينة بومباي (مومباي الآن) بالهند، وشبّ في خضم ذلك الخليط المبهر من الأديان والطوائف والأعراق والطبقات الاجتماعية المتباينة، ثمّ تحصل من جامعة بومباي على شهادته الجامعية في الرياضيات، ليهاجر بعدها إلى أميركا ويحصل على شهادة الدكتوراه، ويترقى حتى تقلد مرتبة أستاذ كرسي في جامعة ماريلاند. الرياضيات والمنطق الرياضي، إذاً، هما شغله الشاغل، وحولهما نشر ما يقارب الخمسين بحثاً. وشاع عنه أيضاً شكواه لأصحابه أحياناً مما يشعر به من رهبة في التعاطي مع الأدب، معلناً أنّ الرياضيات هي ملجؤه الوحيد في نهاية المطاف.

كتب مانيل سوري قصته القصيرة الأولى عام 1985، وأمضى السنوات العشر التي تلتها محاولاً تقييم موهبته ومدى قدرته على الالتزام بمتطلبات الكتابة، كذلك كتب عدة قصص ورواية واحدة تخلى عنها قبل أن تكتمل. وبعث ذات عام ببعض إنتاجه إلى زهاء الأربعين مجلة وفصلية أدبية، فتلقى الرفض منها جميعاً.

ولقد بدأ كتابة موت فيشنو في العام 1995، على أساس أنها قصة قصيرة أوحاها له شخص حقيقي كان يعيش فوق درج بنايتهم في بومباي، وبعد عامين تمكن من إنجاز الثلاثة فصول الأولى منها، وكان في تلك الفترة منخرطاً فيما يسمى ورشة عمل الفنون الجميلة، ويتلقى إرشاداً من كتاب مشهورين في فنون الكتابة الإبداعية.

تأثر سوري بالكاتب الهندي في إس نايبول، إذ انبهر بطريقة حديث شخصيات رواياته بإنجليزية؛ يمكن للمرء أن يكتشف -في الوقت نفسه- أنها أقرب إلى لغة هندية، وعلى الرغم من كونه أميركي الجنسية، فإنه يعد نفسه كاتباً هندياً، ذلك أنه يكتب عن الهند ورؤيته لها كما فعلت أروندهاتي روي في رائعتها «إله الأشياء الصغيرة»، التي أطلقت الكتابة الهندية المعاصرة في أنحاء العالم.

ورواية سوري البارعة الأولى، هي الوحيدة التي ترصد -حتى الآن- بصورة دقيقة ما يمكن أن تتضمنه الأخلاق الاجتماعية ممزوجة بروح الدعابة، مع أن أحداثها تتمحور حول مأساة قاسية تجري روايتها بشفافية وتجرد ساخرين أسهما إلى حد بعيد في إلقاء الضوء على ما تتمتع به الشخصيات من سمات إنسانية. كذلك لا يفوته التطرق إلى الصراع الأبدي بين العقائد المختلفة، فالهند موقع لهذه الأديان والطوائف والمعتقدات، وقد يكون لدى بعضهم الكثير مما يعلقون به على طرح هذا الموضوع البالغ الحساسية. وبالإضافة إلى أسلوب سوري السهل، فقد رآه بعض النقاد امتداداً للروائي الكبير تشيخوف، الذي يجعل القارئ يبكي ويضحك -في الوقت نفسه- على ما تتضمنه الحياة من حزن وغرابة شديدين. وتدمج هذه الرواية، في نسيج فني غاية في الإتقان، بين الواقع والأسطورة، وعلى كل حال فأحداثها تدور في بلد جلُّ تراثه وحاضره مبني على الأسطورة. وما فكرة زحف بطله فيشنو صعوداً من طابق إلى آخر في البناية إلا تجسيداً لمحطات الارتقاء المتدرج في الديانة الهندوسية. يعترف الكاتب أنه حتى سن الثالثة عشرة كان يقتفي أثر خطى والده الهندوسي المتدين، ثم مرّ بعد ذلك بفترة التمرد المصاحبة لسن المراهقة، وفيما بعد استمرت الأسئلة المتعلقة بالمعتقد الديني تؤرقه، وحتى هذا الوقت يعتبر نفسه جدلياً أكثر منه هندوسياً، كما يعترف بعدم اطلاعه على البهاغفاد غيتا (كتاب البراهمة المقدس) إلا في مرحلة متأخرة ، وبعد أن شرع في كتابة موت فيشنو. وكان انبهاره عظيماً بما حوى الكتاب من تعليمات وحكمة وأسطورة استعان بها كثيراً، ويظهر ذلك بوضوح في بعض جوانب الرواية. وفي معرض تفسيره لكيفية تمتع فيشنو بالقوة العظيمة، وأن يكون في الوقت ذاته محروماً منها، ويضرب مثلاً برؤيا السيد جلال حين كان لفيشنو العديد من الأفواه التي يسحق البشر داخلها، في الوقت الذي لا يقدر فيه حتى على سحق نملة في أثناء ارتقائه الدرج، ويقول سوري إن الديانة الهندوسية مليئة بالرؤى المتعددة، إذ تقول إحداها بأن المرء (لا يحوي الإله داخله فحسب، لكنه جزء من الإله). في هذه الرواية يُعد فيشنو انعكاساً للطبيعتين الإلهية والإنسانية، ففي الوقت الذي يظهر فيه بالغ القوة في رؤيا السيد جلال، يكون أيضاً الشخص المحتضر على سلالم البناية التي تصعد روحه عبر طوابقها وخارج نطاق سيطرته، وقد يكون من المفيد هنا تسليط بعض الضوء على فيشنو والهندوسية.

الفيشنوية والديانة الهندوسية

(كيف يمكن للإنسان أن يحيط به وهو اللامحدود في كل الاتجاهات، وكيف يمكن تبجيله وهو واحد أحد ؟!)

والواحد الأحد عند الهندوس هو براهما، أو الحقيقة المتسامية كما ورد في الفيدا (أسفار الهندوس المقدسة)، وبراهما ينبت في الكون ويبقى خارجه في آن واحد. واستناداً إلى حكماء الهندوس وفلاسفتهم فهو المبتدأ الأول ومنه تنطلق الأشياء، وعليه ترتكز، وفيه تتلاشى في النهاية. أما المعنى الحرفي لكلمة براهما فهو: الكينونة التي لا يمكن لأحد تقدير عظمتها وقوّتها واتساعها، كما أنه يُخاطَب بضمير حيادي خارج ثنائية التذكير والتأنيث.

أما فيشنو فهو أحد الآلهة الرئيسة في الديانة الهندوسية، وينظر إليه كحامٍ للكون وحافظ له، وكذلك هو الذي سيعيد إحياء الدهارما (القيم الأخلاقية). ومثل الإله شيفا (إله رئيس آخر لدى الهندوس)، يعدّ فيشنو شخصية توفيقية بين العقائد المتعارضة، إذ يتجسد في شخصيات لطوائف مختلفة وأبطالٍ محليين، ويُعرف بشكل رئيس من خلال تجسداته، وبخاصة في شخصيتي راما، وكريشنا (يعد التجسد جزءاً أساسياً من الأسطورة لدى الهندوس في إيمانهم بأن الآلهة تهبط وتتجسد في هيئة بشرية أو حيوانية، لمقارعة شرّ ما يحدث في العالم ومنعه).

ورد اسم فيشنو في تعاليم الفيدا الأولى، وملحمة المهابهاراتا، وهي إلياذة الهند، حيث تربطه بعض التراتيل بالشمس، وتشير إلى خطواته الثلاث العظيمة، التي خطا بها عبر الكون، وكوّنت فيما بعد أساساً لأسطورة تجسده في هيئة القزم فامانا.

إن تماثيل فيشنو وصوره في المعابد الهندوسية تبينه دائماً بصحبة رفيقيه الدائمين؛ لاكشمي، وبهوميدميني (الأرض) حيث يقف حاملاً عدة أنواع من الأسلحة، أو منحنياً إلى الوراء على ثنيات الثعبان ميسا، أو نائماً على المحيط الكوني خلال الزمن في الفترة بين تدمير الكون وبعثه للحياة من جديد. وغالباً ما يصورُ في شكل جسد إنسان له أربع

أذرع، مرتدياً ملابس فخمة ويحمل في أيديه الأربع محارة، وقرصاً، وهراوة، وزهرة لوتس، وعلى صدره خصلة شعر كتعبير عن خلوده، وهو دائماً ما يمتطي النسر العظيم غارودا.

وتجسدات فيشنو العشرة المعروفة التي يظهر بها على الأرض لمحق الظلم وإنقاذ البشرية كما وردت في كتب الهندوس المقدسة (البورانا) هي:

ماتسيا (الحوت)، كورما (السلحفاة)، فاراها (الخنزير البري)، ناراسمها (نصف إنسان ونصف أسد)، فامانا (القزم)، باراسوراما (راما مع الفأس)، راما (بطل ملحمة رامايانا)، كريشنا (راعي البقر المقدس)، بوذا وكالكي (وهي تجسدات لم تتحقق بعد)، وهناك نصوص تفيد بأن التجسد الأخير لفيشنو، الذي لم يتحقق بعد، يظهر فيه ممتطياً صهوة جواد أبيض، ويقوم بتدمير الكون. أما التجسدات فيزداد عددها ونوع الشخصيات التي تتحقق فيها وفقاً لكل واقع محلي مختلف. وهكذا فكريشنا يُرفع أحياناً إلى مصاف الآلهة، وفي التراتيل الدينية المسماة بهاغفاد غيتا، يقول الإله كريشنا لأرجونا وهو يقود عربته: «عندما يتدهور مستوى العدل ويزداد الظلم أرسلُ نفسي ذاتها لحماية قوى الخير، وتدمير الشر، وإحقاق الحق، وأتجسد لأجل ذلك من عصر إلى عصر».

يختار غالبية الهندوس إلهاً خاصاً، أو تجسداً بشرياً للبراهماتية يستطيعون من خلاله (أو عن طريقه) الإحساس بصلة شخصية ما مع القوى المسيطرة، والإخلاص لهذا الإله قد يتخذ أشكالاً عدة تشمل الصلوات، والعبادة الاحتفالية، وذكر اسم الإله، وتقديم القرابين، والحج إلى الأماكن المقدسة المرتبطة به.

ولقد وضعتُ في نهاية الكتاب معجماً مختصراً للكلمات والألفاظ الواردة في الرواية مورداً –أحياناً– المعنى العربي مباشرة.

* سوامي نخيلانادا، الهندوسية: تحضيرها لانعتاق الروح. ترجمة نبيل محسن، دار ورد. دمشق. ومن عرض لتوفيق شومان في مجلة معابر.

** الموسوعة البريطانية.

ملاحظة المؤلف

على الرغم من أنّ الأشخاص والأحداث في هذه الرواية هم من نسج الخيال، فإن الشخصية الرئيسة فيها قد أوحى بها إليّ رجل يدعى فيشنو، كان يعيش على بسطة الدّرج في البيت الذي ترعرعت فيه. وقد توفي هذا الرجل في أغسطس 1994، فوق هذه البسطة نفسها، التي شغلها لسنين عديدة.

« أنا فيشنو أذرعُ المكان بين آلهة الشمس

تلك المشعة في خضم الأضواء...

وأقف شامخاً ممسكاً الكون كله

بجزء من كياني».

من حديث كريشنا إلى أرجون، الفصل العاشر،

البهاغفاد غيتا.

الأول

ممسكةً بسخّان الشاي في يدها، هبطت السيدة آسراني في حذرٍ على أطراف أصابع قدميها إلى الدرجة الثالثة، فوق البسطة التي يسكنها فيشنو، فربما لم يمت الرجل بعد. كان فيشنو مرتمياً على أرضية البسطة الحجرية، وقد أخذ جسده شكل التواء درجة السلم نفسه، في حين التف حول أصابع إحدى يديه خيطان لزوج من الأحذية، أما اليد الأخرى فممدودة وكأنه يحاول رفع نفسه فوق الدرجة التالية. لاحظت المرأة بانزعاج شديد أن فيشنو لم يتقيأ فحسب، وإنما لوّث نفسه ببوله أيضاً. كم حذرت جارتها السيدة باتاك من تقديم الطعام له عندما يشتد عليه المرض، لكن هل تنصت تلك المرأة مطلقاً إلى ما يقال لها؟ حاولت ألا تنظر إلى البقعة الملوثة التي تنتشر خلال سرواله المصنوع من قماش الكاكي البالي، الذي أعطاه إياه زوجها في عيد الديفالي الأخير. يا لهذه القذارة! من الضروري أن تأتي الجامدارني لتنظيفها، ولن يكون ذلك من دون مقابل كذلك، فلا بد أن أحدهم سيدفع لها أجرتها مقابل هذا العمل. كان جسدها الضخم يقاوم الساري الملفوف عليه كالقماط، وهي تلقي عليه نظرة فاحصة محتمية بالدرجة الثالثة، ومعاهدة نفسها ألا تكون هي من سيدفع أجرة الشغّالة.

لكن ثمة مشكلة ملحة لا بد أن تعالجها أولاً ـ فماذا ستفعل بكأس الشاي الذي اعتادت أن تأتي به إليه كل صباح؟ من ناحية، لا يبدو أنه يحتاجه في هذه اللحظة، وحتى أمس فإنه لم يكد يتحرك عندما ملأت له كوبه البلاستيكي، لكنها أحسّت في الوقت نفسه بنوع من الامتعاض لعدم تلقيها تحية السلام المعتادة منه. ومن ناحية أخرى، فتقديم الشاي لرجل يحتضر هو فعل يدل على سماحة النفس، وبما أنها أخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة اليومية سيكون من الحماقة التوقف الآن، فلن تكون هناك حاجة إلا لتقديم بضع كؤوس إضافية فقط. بالإضافة إلى ذلك، فمن يدري ما سيحل بها من آثار سيئة إن هي تقاعست عن القيام بهذا الطقس اليومي؟

هبطت إلى البسطة ممسكة بطرف السارى تغطي به أنفها لتمنع عنه الرائحة المنبعثة، وباستخدامها لقصاصة وَرق بنّية أحضرتها معها لهذا الغرض، التقطت الكوب

من بين متعلقاته المكوّمة بجانب رأسه، حريصة في أثناء ذلك على إبقاء الورقة بين أصابعها والكوب كي لا تلوث نفسها بما قد يحمله من مرض، ثم وضعته فوق الدرجة التي تعلو البسطة مباشرة، وصبّت فيه الشاي من السخان. ترددت قليلاً عندما امتلأ نصفه فهي تمقت فكرة تبذير الشاي الممتاز، لكن ذلك لم يدم إلا لحظات، وملأته إلى المستوى المعتاد استجابة لما قطعته على نفسها من عهد سابق، ثم صعدت بضع درجات بعد ذلك وألقت نظرة على ما فعلته يداها. كان الكأس يقبع في مكانه مطلقاً البخار، لكن فيشنو بدا وكأنه يمد جسده عبر البسطة للوصول إليه مثل رجل ميت في الصحراء يحاول الوصول إلى شراب قد ينقذ حياته. فكرت في تقريب الكأس منه لتصحيح هذه الوضعية، لكنها عدلت عن ذلك لأن قصاصة الورق التي استخدمتها مرمية الآن على أرضية البسطة ولم تعرف الجانب الذي كان ملاصقا للكأس. لم يكن هناك المزيد لتفعله فغيرت وجهتها وصعدت الدرجات الباقية. عند وصولها إلى باب شقتها خطر لها أنها لم تعرف بعد إن كان فيشنو حيّاً أم ميتاً، لكن ذلك لا يهم في الحقيقة، فهي قد أدت واجبها في جميع الأحوال، وبهذا الشعور بالرضا دلفت إلى شقتها وأغلقت الباب وراءها.

بتكاسل ينطلق البخار من سطح كأس الشاي، مشبعاً برائحة الحليب المغلي وشذا الهيل والقرنفل. كان البخار ينبعث ملتفاً في وضعية صعود وهبوط كأنه يتعقب أثر أبجدية في طريقها إلى التلاشي.

فجأة تهب نفحة هواء تبعث بالبخار إلى الرجل الراقد من دون حراك، وتصل إلى وجهه الذي لا يكاد يظهر، وتتلاعب تحت أنفه. من المؤكد أن ما يحمله البخار من روائح يوقظ فيه ذكريات كامنة: ذكرى أمه في كوخ الصفيح تعد الشاي في السخان المعدني العتيق حين كانت تعصر الأوراق ضاغطة عليها مرات متتالية، ولا ترمي بها إلا بعد التأكد من استحالة استخلاص المزيد من النكهة. كذلك ذكرى بادميني؛ مايزال البخار خالياً من نكهة الهيل والقرنفل، لكنه يعبق الآن برائحة زهور الكاميليا ملتفة مثل أساور من اللؤلؤ حول معصميها. بعد ممارسة الحب، وإذا لم يكن هناك شخص آخر في انتظارها، يأتي أحد الصبية العاملين في الماخور إليهما بالشاي فيجلسان فوق السرير يرشفانه من أكواب معدنية. ثم يأتيه البخار بذكريات عن كافيتا، وهنا يصبح البخار مضمخاً بالعطر

والحليب، في حين تحدد ضفائرها السوداء الطويلة شكل وجهها الباسم، وهي تنحني لتملأ كوبه بالشاي. طوال الشهر الذي كانت فيه السيدة آسراني طريحة الفراش تقريباً، تعهدت ابنتها القيام بهذا الطقس اليومي، وكان فيشنو يحرص كل صباح على تسريح شعره الملبد بمشطه المكسور، مستعداً لإطلاق ابتسامة يكشف فيها عن أسنانه البارزة، مقرونة بـ «سلام يا ممصاحب! »، وهو يغمزها بعينه السليمة.

هكذا عمل بخار الشاي على إثارة كل هذه الذكريات، بل أكثر منها لدى الرجل. أمه التي ترمي بأوراق الشاي المستعملة في الأعياد، وكذا وهي تغرف عدة ملاعق من السكر لتحلية الشاي، بادميني تلصق شفتيها على الحافة المعدنية، تضحك وهي تقدم له الكوب المصبوغ بحمرة غير طبيعية، كافيتا التي تحاول منع وشاحها من السقوط في أثناء انحنائها، ممررةً السخان من يد إلى أخرى كي لا تلتهب يداها.

في هذا الوقت تنطلق زفرة من خياشيم الرجل، محولة سحابة البخار إلى جدائل تبقى عالقة في الجو للحظات ثم تتلاشى بعيداً.

دأبت السيدة آسراني طوال إحدى عشرة سنة على تزويد فيشنو بشايه الصباحي؛ فقبل ذلك كانت تقدمه غاناغ الطويلة، وهي العجوز التي احتلت لفترة طويلة بسطة الدرج بين الطابقين الأرضي والأول. لكن ذات يوم أبلغت غاناغ الطويلة كلاً من السيدة آسراني والسيدة باتاك أنها لن تُحضر لهما بعد الآن زجاجات الحليب في الصباح، أو تغسل لهما الصحون بعد الظهيرة، لأنها تمكنت أخيراً من توفير بعض المال لتزويج آخر بناتها، وأنها ترغب في العودة إلى قريتها لتمضي بقية أيامها مع أكبر أبنائها، وسيقوم فيشنو بهذه المهمات بدلاً عنها بعد أسبوع، كما سينام فوق البسطة أيضاً، ولهذا يجب - بعد مغادرتها للمكان - أن يدفعوا له الأجرة، ويحضروا له الشاي وبقايا خبز الشاباتي.

استقبلت السيدتان هذه الأخبار بامتعاض، فالمشكلة أن فيشنو كان سكيراً يتسكع كل عشية فوق بسطة الطابق الأول الصغيرة، التي ترتفع عدة درجات عن مستوى الشارع، وتوسّلتا للغاناغ أن تجد لهما بديلاً يُعوّل عليه كي يضعن زجاجات الحليب وصحونهن في أيد أمينة، وذكّرتها السيدة باتاك مؤنبة: «عشتِ معنا طوال هذه السنين، وبالتأكيد

تدينين لنا بهذا القدر». فأثارت الجملة الأخيرة غاناغ الطويلة التي أجابت، «وهل تظنين أنني كنت أقيم هنا بسبب كرمك؟ لقد جئت إلى هذا المكان قبلك بمدة طويلة يا ممصاحب باتاك؛ وكل عائلة تقطن في هذه البناية تناولت طعامها في صحون غسلتها يداي؛ قد لا أكون غنية مثلك لكن لدي الحق أن أوجد في هذا المكان أكثر من أي شخص في البناية!» وأجبرت دموعها كلاً من السيدتين على التزام الصمت. ثم فردتْ الشغالة تحدُّبَ ظهرها الذي اكتسبته بفعل السنين بحيث صار الساري الذي يغطي رأسها يلامس السقف، معلنةً وهي تنظر إليهما من فوق: «أعطيتُ كلمتي لفيشنو ليصبح بديلاً عني، وكلي أمل بصفتي المرأة التي جلبت لكم الحليب الذي ساعد على نموّ أطفالكم أن تحافظوا على كرامتي». حينذاك لم تقم السيدتان بأكثر من هز رأسيهما؛ ولم يعرفا إلا لاحقاً من السفائر وله الموجود أسفل البناية بعد أن احتل فيشنو المكان أنّ غاناغ الطويلة تحصلت من الرجل على ألفي روبية (خلوّ رِجل) مقابل تعيينه بديلاً رسمياً عنها.

لم يمر أسبوعٌ حتى تبيّن أن فيشنو غير ملائم لأداء المهام التي كانت تقوم بها غاناغ الطويلة. فزجاجات الحليب لا تصل إلا في أواخر العشيّة، إن أتت أصلاً، وعند ذاك تكون أغطيتها الألومونيومية الزرقاء قد انتفخت بفعل ضغط الحليب المتخثر. أما غسل أواني الطعام فيصل إلى حد الكارثة، إذ تكون الصحون مثنية، والأكواب مكسورة، كما توضع الأواني في دواليب المطبخ، والزيوت ماتزال عليها. وذات مرة صرخت السيدة آسراني عندما عثرت على صرصار ضخم أخضر اللون بأحشائه البيضاء مهروساً بين طبقين في الخزانة - وكانوا قد تناولوا البامية لعشاء البارحة- واتضح أن فيشنو ترك حبة منها بأكملها ملتصقة بالصحن. وفي كل مرة تقريباً «يستعير» كوباً يتناول فيه مشروبه المسائي، ويضطر السيد باتاك أو آسراني للنزول من أجل استرداده. «الزجاج يؤثر على الكحول يا صاحب، ويعطيه قوة أكثر». هكذا كان يبررُ فعلته.

حاولوا من دون أمل يلوح في الأفق طرده من البسطة، لكن أصحاب المحلات في الطابق الأرضي، من الكهربائي إلى الخياط ومن البان وله إلى السفائر وله، كانوا على علم بالعقد الذي أبرمه مع غاناغ الطويلة. ولأن أحداً في الحقيقة لا يملك أي حقوق في ملكية البسطة، فمن الواضح أن حقوق استغلال المكان انتقلت إلى فيشنو، وسيكون من الحماقة

اغتصابها منه؛ فلديه كل الحق في تخزين أمتعته الضئيلة هناك، وأن يأكل ويشرب وينام في المكان، بل حتى أن يبصق قشور البان على الجدران المتداعية إن أراد ذلك (وهو ما يفعله على كل حال). وفي كل مساء، كان متوقعاً من السكان أن يتحسسوا طريقهم بحذر قرب حواشي بطانيته في الظلام كما يفعلون بالنسبة إلى من يقطنون بسطات الدرج الأخرى في الأدوار العليا، رغم أنّ السيدة آسراني لم تتمكن من تجنب التعثر في هيئته المضطجعة مرات عديدة، وهو سبب ما تشعر به من إحباط تجاه هذا الوضع.

بالطبع منعوا فيشنو من القيام بواجباته، وكذلك منعوا عنه الشاي والشاباتي، واستأجروا عوضاً عنه غاناغ القصيرة، التي وإن لم تكن قصيرة بالفعل، لكنهم استخدموا هذه الصفة لتمييزها عن سابقتها؛ ولم تكن بحاجة إلى مكان تنام فيه أو إلى خبز الشاباتي القديم؛ وبدلاً من هذه الامتيازات اشترطت الحصول على مرتب أعلى؛ الأمر الذي سبب معاناة لكل من السيدتين آسراني وباتاك.

كانت السيدة باتاك هي التي أعادت إدخال فيشنو من جديد للقيام بأعمال البناية، وتبين لها أن فضلة الشاباتي (التي بدأت تعطيها للمتسولة التي تقف بجانب دكان البان وله) لم تصل بها إلى أي نتيجة عدا ما رأت أنه إحساس بالاطمئنان النفسي، فطرقت الموضوع ذات يوم مع زوجها، الذي قال: «أظن أن من المستحيل تجويعه فكل ما يفعله هو تعاطي الشراب، وهو لا يهتم بالأكل، فلم لا تخبريه بأننا سنزوده بالطعام من جديد؟ - بل سندفع له أحياناً - وبالمقابل يمكنه مساعدتنا للقيام بأمور مثل الوقوف في طابور الجمعية أو حمل القمح إلى المطحنة، وإن كان بقاؤه هنا محتوماً فيمكننا الاستفادة منه على الأقل». لم يكن السيد باتاك على علم بمحاولات طرده أو قطع إمداداته من الخبز، فتحدث معه لاحقاً في عشية ذلك اليوم. وعندها بدأ فيشنو القيام ببعض الأعمال لعائلة باتاك، ثم للآسرانيين، ثم لعائلة المسلم جلال في الطابق الثالث من البناية. وفي خلال شهر، تمكن من سداد الدفعة الأولى من مبلغ الألفي روبية التي استدانها من السغائر وله.

هكذا قدّر لفيشنو أن ينجو من التجويع، والأهم من ذلك تفادي ما قد يتعرض له من قسوة تقنين الطعام.

*

عبر نافذة البسطة يظهر شعاع من الضوء يتلاعب فوق وجه فيشنو، ثم يخترق جفنيه المغلقين هامساً له بلون أحمر.

يعمّ الأحمر المكان مغطياً الأرضية، وملوناً تيار الهواء كما في أعياد (هولي). فعمرُه الآن تسع سنوات، ويختبئ خلف جذع شجرة في حين تمتلئ قبضتاه بالبودرة الحمراء. كان في انتظار هذا الاحتفال لأسابيع طويلة، وظل طوال الصباح يعمل على تلوين نفسه ـ شعره بنفسجي، وثيابه زرقاء، في حين رسم على وجهه خطوطاً براقة حمراء وصفراء، وبمقدوره تذوق الألوان على شفتيه ـ فهي ترابية بطعم الطين ولها نكهة المعدن.

كان والده جالساً مع أصحابه على الجانب الثاني من الشجرة، يشربون (البهانغ) منذ الصباح في أوانٍ فخارية، ويكاد الشراب ذو اللون الحليبي أن ينتهي. هم الآن جميعاً في حالة سكر تام، يضحك بعضهم في حين يبكي بعضهم الآخر، ويرفع أبوه الوعاء إلى فمه ليكرع منه مدة طويلة، ثم يتركه يسقط ليتهشم عند قدميه.

كان فيشنو يدّخر بعض البودرة ليستخدمها على أبيه، فيبرز من خلف الشجرة راكضاً نحو الرجال المقرفصين، يفتح إحدى قبضتيه مطلقاً محتوياتها عليهم، ويتجه بعدها نحو أبيه ليفرك ما تضمه قبضته الأخرى فوق وجهه. يحاولُ الفرار لكن أحدهم يمسك بكاحله فيقع أرضاً وتنفلق شفته، ثم يشعر بنفسه وهو يُجرّ من ساقه. يتجمع الرجال من حوله وفوقه مثبتينه إلى الأرض، يبكون ويضحكون ويرى من خلال ذلك وجه أبيه مستديراً وثملاً يمسك بوعاء في يده. «افتحوا فمه!» صاح أبوه، وحينذاك يفتح أحدهم فكيه عنوة، وتضغط أصابع على شفته المفتوحة فينساب الدم داخل فمه. يُميل أبوه الوعاء نحو فمه فيندلق فيه سيل من شراب البهانغ مرتطماً بحلقه، ثم ينحدرُ مثل نار إلى جوفه. وتعمل الأيدي على فتح فمه عنوة بحيث يشعر كما لو أن عظام فكيه ستتمزق بفعل ذلك. وفي هذا الوقت يندفع السائل من معدته إلى أنفه فيخرج منه منساباً على الألوان التي تغطي وجهه.

وأخيراً يتوقف اندفاع السائل إلى فمه ويرى أباه ينظر إليه من فوقه، ثم يطلق ضحكة ينطلق معها الوعاء مرتطماً بجبهته.

عندما فتحت السيدة باتاك باب بيتها، كان أول ما لاحظته هو الرائحة. «أعتقد أن مرحاضهم قد سُدّ من جديد». أعلنت لزوجها الجالس في غرفة المعيشة، «وأراهن أنها ستحاول سرقة بعض الماء من المطبخ، انتظر قليلاً فقط وسترى ذلك بنفسك»!

يخوض آل آسراني وآل باتاك معركة مستمرة حول المطبخ الذي يتقاسمون استخدامه في الطابق الأول. في الغالب الزوجات هن من يخضن معظم الصراع إلا عند احتدام المعركة، وعندما تدعو الحاجة إلى استخدام الاحتياطي من الأزواج. يبدو أن المشكلة الأساسية هي خزان المياه الصدئ الموجود في المطبخ، ويفترض استغلال مياهه لأغراض الطهي فقط، لكنه يتعرض للغزو كلما جفت مياه الصهريج الموجود في شرفة كل شقة، ويضاف إلى ذلك المعارك المتواصلة حول حقوق استخدام طاولة المطبخ وخزاناته. ورغم اقتراح العديد من صيغ الاتفاقات عبر السنين فإن نار إحدى الزوجات على الأقل ـ وأحياناً كليهما ـ تشتعل دائما ببطء بسبب شكوكها في أن الأخرى تغتصب منها ما تعتبره نصيبها القانوني، وغالباً ما يساعد على هذا التوتر وجود أربعة رؤوس من نار موقد يعمل بالكيروسين في ذلك الحيز الضيق. وعند وصول الأوضاع إلى مرحلة الغليان، تنشب المعركة ـ وتنطلق الاتهامات بالعبث بالموقد، وتَرك الطعام يحترق، واتهامات مقابلة بسرقة المعدات وعدم وضع المقادير المناسبة من البهارات، وأخرى بوضع السحر في الطعام، وأحياناً بتسميمه.

«ستأخذ بعض الماء مرة أخرى. انتظر فقط وسترى ذلك»! قالت السيدة باتاك من جديد، وهي ترفع أساورها الذهبية أعلى ساعديها وتلعق شفتيها. كانت هيأتها الصغيرة ترتجف، فجوّ التوتر مرتفع في المطبخ أخيراً، وقد انقضت ثلاثة أسابيع تقريباً منذ نشوب آخر معركة.

« إن كانت تريد الماء فدعيها تأخذه». قدم الزوج اقتراحه وكله أمل في قبوله إذ يعرفُ ما هو آت، وسيكون أمراً جللاً، فربما ستكون هناك حاجة له وللسيد آسراني لتقديم

خدماتهما. وقفت السيدة باتاك عند الباب وقد غضّنت أنفها، «يبدو وكأن مصدر الضجة من تحت...»، كان من الواضح ملاحظة خيبة الأمل في صوتها، «أتساءل عمّ...».

سمع زوجها الحركة في أثناء محاولتها ارتداء خفيها وهبوط الدرج، واندثر الصوت للحظات، ثم سمع شهقتها وعودتها للصعود مسرعة. رفع نظره عن صحيفته في الوقت نفسه الذي اقتحمت فيه زوجته باب الشقة صائحة بوجه مُحتقن: «هل سمعت ما حدث؟ إنه فيشنو. لقد استخدم المرحاض فوق كامل منطقة الدرج»! وكانت عيناها تومضان بشراسة، «قلت لك ألا تمكنه من العودة إلى هنا»!

عندما سقط فيشنو صريع المرض منذ عدة شهور جاء إلى السيد باتاك طالباً منه بعض المال ليتمكن من العودة إلى ناغبور، «أخبرني أخي أنه سيعتني بي يا صاحب، وكل ما أحتاجه الآن هو ثمن تذكرة القطار، وقال أخي إن بإمكانه إدخالي إلى المستشفى من دون مقابل». بعد أن نال ما طلب وغادره، أخبره السيد آسراني إنه أيضاً أعطى فيشنو ثمن (تذكرة القطار). لم يُشاهد أي أثر له طوال أسابيع وكان كل من السغائر وله والبان وله يثبّتان أعينهما على البسطة الخالية، ثم ظهر فيشنو ذات يوم على باب السيد باتاك: «سلام يا صاحب»! قال مؤدياً التحية ومبيناً له أسنانه البارزة، «لقد أعلنوا في نهاية المطاف إنني لست بحاجة إلى دخول المستشفى».

لم تكن السيدتان آسراني وباتاك سعيدتين بعودته، ذلك أنهما انتهتا للتو من إجراء مباحثات مع غاناغ القصيرة، ووعداها بتمكينها من البسطة إن وافقت على تخفيض أجرتها (كانت غاناغ القصيرة بدورها قد قامت بتحييد أي مطالبات محتملة للحصول على المكان عندما دفعت نقوداً للسغائروله وللبان وله. واستأجرت البسطة «المتاحة لإيجار» بسعر مجزٍ). على كل لم ترغب السيدتان في إعلام فيشنو بعدم إمكانية عودته، وناكفتا زوجيهما للقيام بذلك، لكن الخطة لم تنجح وعاد لشغل المكان رغماً عنهما.

بمجرد عودته سقط فيشنو صريع المرض الشديد، وأخبر السيد آسراني زوجته ذات يوم: «كان يسعل بشكل سيئ هذا الصباح»؛

«إنه مرض الالتهاب الرئوي». همست السيدة آسراني للسيدة باتاك في عشية ذلك اليوم. «كان يسعل الدم عندما حملت له الشاي هذا الصباح».

في المساء ذاته صاحت السيدة باتاك في وجه زوجها: «سنصاب جميعاً بالعدوى، فالدم غطى الساري الذي أرتديه عندما ذهبت لإطعامه»!

لكن الطبيب الذي استدعاه السيد باتاك بناءً على إلحاح هستيري من زوجته أفاد بعدم وجود علامات مرض السل، وأنّ الأمر يتطلب إجراء فحوص إضافية لتشخيص المرض - هذه الفحوص تتطلب نقوداً؛ الأمر الذي رفضته السيدة باتاك بشكل مطلق، فالطبيب طلب أتعابه كاملة وهو أمر سيئ بما يكفي. أليس لهؤلاء الأطباء قلوب رحيمة مطلقاً، حتى بالنسبة إلى أشخاص يقطنون بسطات الدرج؟ أما الآن وبعد أن لوّث فيشنو نفسه أمام باب شقتهم في اليوم نفسه الذي تقيم فيه حفل لعبة البوكر، فما الذي سيفعله زوجها حيال الأمر، ألم تحذره مسبقاً؟

فكر السيد باتاك في الاستمرار في قراءة صحيفته لكنه عدل عن ذلك فهذا لن يفاقم إلا في تأجيج غضب زوجته، لبس نظارته ليخمّن مدى غضبها بشكل أفضل وقال: «بإمكاني طلب عربة إسعاف...».

عند هذا الحد ازدادت سورة غضبها فصاحت: «عربة إسعاف! عربة إسعاف! ليس لدينا نقود لإرسال راجان لمدرسة داخلية، وأنت تطلب عربة إسعاف لفيشنو»! لبعض الوقت تساءل في نفسه إن كان قد أثارها إلى الحد الذي تنزع فيه أحياناً أساورها الذهبية قائلة إن من الأفضل في نهاية الأمر أن يبيع ما حصلتْ عليه كمهر لها. لكن لحسن الحظ أن المخالفة هذه المرة لم تكن بهذه الخطورة وبدأ غضبها يتلاشى بسرعة، «لقد دفعنا لتوّنا أتعاب الطبيب - وإن كان هناك أحد يجب أن يدفع أجرة الإسعاف، فيجب أن يكون هم»! وأطلقت الكلمة الأخيرة نحو الجدار الذي يفصلهم عن عائلة آسراني.

« اذهبي وتحدثي معهم، قولي لهم إنها مسؤوليتهم الآن.» ثمّ طوى صحيفته شاعراً بالإنهاك؛ فأيام الصيف هي الأسوأ، ولن يحل موسم المانسون إلا بعد شهرين.

الأحمر مختلف هذه المرة، فهو يعرف هذا اللون جيداً، إنه لون غرفتها حيث الجدران والسقف مطلية بالأحمر القاني. من تحتهما ترقص الفتيات ويتناهى إليه عبر الأرضية صوت أغنية من أحد الأفلام. ترقص بادميني معطية ظهرها للمرآة المنتصبة في وسط الغرفة، يداها تتمايلان فوق رأسها وتربت أصابعها على طوق الزهور حول معصمها، تفك الخيط الذي يربطها، وترنو ببصرها فوق إلى الزهور التي أخذت تتناثر فوق وجهها. ثم تنزل يدها أسفل ذراعها في توافق مع اللحن، وتتحرك أصابعها نحو نهدها، تفك رباط القميص فينفتح من الأمام، وتبرز منه كتل مدورة تغطي البودرة البيضاء المساحة بينهما، في حين تصل إليه في الوقت نفسه أصوات الخلاخيل في أقدام الراقصات في الطابق السفلي. تدور حول نفسها بسرعة فيسقط القميص على الأرض ثم تمسك جوانب المرآة بكلتا يديها وتلصق بها جسدها الذي أخذ يتمايل أمام فيشنو، بحيث لا يمكنه رؤية نهديها.

ببطء تفتك جسدها من المرآة فيشرق نهداها من السطح مثل أقمار تبزغ من بحيرة. يتدلى شعرها بحرية وتقوس ظهرها إلى الخلف فتظهر عليه حلمتاها ترتفعان في الهواء على قمتيهما. يحملق فيهما فيشنو بانبهار: قطرتا دم على خلفية من بياض جسدها تتوهجان بالأحمر القاني.

«اضغطهما» تقول له فتطبق أصابعه عليهما وينتقل اللون الأحمر إلى رؤوس أصابعه. يتعقب لسانه بودرة التلك حتى يصل إلى القمة، فيشعر بلزوجة الأحمر فوق اللسان وتضحك عندما يستخدم أسنانه برفق.

يحملها إلى الفراش ويضعها عليه برفق ثم تهمس له بشيء وهي تفك إزارها.

«عاهرة»! يهمسُ نحوها.

وعندما تدعوه مرة أخرى يكرر همسه ويبدأ في النهوض، لكنها تشده إلى الأحمر.

* * *

كانت السيدة آسراني تجلس على الأرض أمام مرآة الزينة، وبينما تهمّ بوضع صبغة «ترو تون» على شعرها، رنّ جرس شقتها فصاحت بزوجها، «هلا أجبت الطارق، وإن

كان اللحوم وله فاشتر منه كيلوغراماً فقط ـ لكن لا تجعله يعطيك العظام كما فعل في المرة السابقة».

تحت السيدة آسراني ومن حولها، كانت الأرضية مغطاة بصحيفة تايمز أوف إنديا. فعندما بدأت تصبغ شعرها منذ ست سنين تعلّم الزوج والأولاد أن الاقتراب من المنطقة المحددة بأوراق الصحيفة مخاطرة ذات عواقب وخيمة. وبينما أخذ غيظها يتزايد حيال تقدّمها في السن، ازدادت المنطقة المغطاة بأوراق الصحيفة اتساعاً، وفي هذه المرة افترشت عدد السبت برمته.

ليس هذا يومها، فالصبغة لا تبدو لزجة كما يجب، وربما لم تخلط المكونات بالمقادير المناسبة. غمست فرشاة الأسنان القديمة الملفوفة بخرقة في الوعاء المحتوي على السائل الأسود عند قدميها، ثم مررتها على شعرها فانسابت قطرات سوداء على المنشفة القديمة التي تلفها على كتفيها. صار الشيب يغزو شعرها أكثر من ذي قبل؛ وبإمكانها المقارنة بالوقت الذي كانت فيه قنينة «ترو تون» تكفيها لمدة عام، لكنها الآن تضطر لإرسال زوجها إلى الصيدلي كل شهرين لشراء قنينة جديدة.

انطلقت منها تنهيدة، فكم قنينة «ترو تون» يجب استهلاكها قبل أن تقرر التسليم بالأمر في النهاية؟ لقد كرهت العملية برمتها ـ الرائحة الكيماوية للصبغة، والطريقة التي تلوث بها أصابعها، والوقت الطويل الذي يلزمها للجلوس في أثناء تسرب الصبغة إلى بشرتها. مهما حاولت التنظيف بقوة بعد ذلك فالعلامات تترك أثراً على جبينها لأيام عديدة، كتأكيد فجّ أن أحدهم قد رسم حدوداً على منابت الشعر حول رأسها ليشكل إطاراً مزخرفاً لوجهها. لم تكن حتى متأكدة من سبب قيامها بالمزيد من هذا العمل، فمن تراها تخدع يا ترى؟ ومن الذي تحاول التأثير فيه وأن تترك لديه انطباعاً ما؟ ـ ليس مانهور بكل تأكيد ـ فكل ما يشغله هو آلهته وشرابه. كم مضى عليه من الوقت لم يُبد فيه أي ملاحظة حول مظهرها؟ في الواقع متى كانت المرة الأخيرة التي أحضر لها فيها طوقاً من الياسمين والأزهار المتفتحة التي تعودت توقعها منه في السنوات المبكرة من علاقتهما، حين كان يشبكها حول شعرها بيديه؟ عندما تأخذ تلك التويجات بلونها

الأصفر الشاحب بالتوهج بين جدائلها السوداء كما الكحل في تلك الأيام، ثم عندما يقوم بهرس تويجات الزهور بين أصابعه لتطلق شذاها وعطرها في شعرها.

لكن ذلك كان قبل تحول لون شعرها وقبل تغيّر ملامحها وقبل أن يترهل جسمها وينساب من حولها في كل مرة تجلس فيها. لم حدث ذلك لها؟ فمانهور لا يبدو ممتلئاً أكثر من أول يوم حضر فيه ليلقي نظرة عليها ـ صحيحٌ أن أغلب شعر رأسه قد اختفى، لكن صلعته لم تعمل إلا على تعزيز مظهره الطفولي. وهذه الجارة التي تلاصقها، أنجبت مرتين خلال السنوات نفسها التي أنجبت فيها طفليها، ومع ذلك تحافظ على رشاقتها ويبدو شعرها مسودّاً كما الفحم؟ ليس هذا بعدل على الإطلاق.

بإمكانها الإحساس بالغضب يجتاحها مرة أخرى، وبستارة تنسدل مطبقة على كل ما في ثناياها؛ وتساءلت إن كان للأمر علاقة بالمادة الكيماوية الموجودة في الصبغة، وأنها سبب ما تشعر به من أحاسيس شهراً بعد الآخر. ربما يجب عليها التوقف عن استخدامها وقد حاولت ذلك مرة في السنة الماضية عندما تركت شهرين يمران من دون وضع «ترو تون»، فنتجت خطوط مثل خربشات باللون الأبيض على كامل شعرها بدت وكأنها حشرات زاحفة، مع ذلك لم تمتد يدها إلى زجاجة الصبغة، وتحولت تلك الخربشات إلى بقع مثل الفجوات، ربطت على أثرها شعرها على شكل خصلة كي تخفيها. لكن السيدة باتاك اعتادت أن تطلق شعرها لتغيظها كلما حضرت معها في المطبخ، فجعلها ذلك تتراجع عن موقفها في النهاية. حاولت استعمال الحناء ذات مرة لخلوّها من المواد الكيماوية، لكن الحناء حوّلت شعرها إلى لون برتقالي براق، ما جعلها تبدو أشبه بالعجائز المسلمات اللاتي يأتين لزيارة السيدة جلال في أيام السبت.

أخرجتها أصوات عند الباب من تأملاتها، «... وبما أنه في هذه الحالة السيئة، فقد رأينا أن...» المتحدث هو السيد باتاك وليس اللحوم وله ـ ترى ما الأمر؟ وضعت فرشاة أسنانها جانباً، وأمسكت أنفاسها للتأكيد أن كلمة لن تفوتها.

«... حقاً يجب القيام بشيء قبل أن يتحول فيشنو...» بالطبع فالأمر يتعلق بفيشنو ودرج البناية. كان يجب أن تخبر زوجها بأن سبب ذلك هو خطأ السيدة باتاك ـ فمن

سمع من قبل أن خبز الشاباتي اليابس بهذا الشكل يقدم لشخص في مثل هذه الحالة - إنّ خبز الشاباتي الذي تصنعه هذه المرأة سيصيب أي شخص سليم بالمرض! وأحست بأنها تريد أن تصرخ لزوجها، قل لهم أن يدفعوا ثمن تنظيف المكان - يا له من تلويث هذا الذي حصل - في هذه اللحظة كان نصف رأسها فقط قد غطته الصبغة.

«... وبما أننا دفعنا أتعاب الطبيب نرى أنّ من العدل أن تدفعوا أجرة الإسعاف». يا له من اقتراح سخيف! بالطبع سيصحح زوجها هذه الحماقة بكل أدب وثبات في الوقت نفسه، فهذه المرأة لا بد وأن تكون مجنونة لترسل زوجها يتفوه بهذه الترّهات. مسكين هو السيد باتاك، وأحست تجاهه بشيء من الشفقة.

« بكل تأكيد». شعرت بالصدمة عند سماعها هاتين الكلمتين لكن موقفها كان غاية في السوء، وهكذا اضطرت إلى التراجع بسرعة. حاولت أن تقول شيئاً لكن الإهانة جعلت الكلمات تلتصق بحلقها. «لا»! وخرجت الكلمة تتأرجح خلال الممر وتنتشر حتى تصل إلى السيد آسراني.

«لا «! قال السيد آسراني، بمجرد أن وصلته الرسالة.

«أخبرْهم أنّ السبب الوحيد الذي جعل فيشنو يتقيأ هو الشاباتي الذي قدموه له».

«الشاباتي» فسّر زوجها، «كما تعلمون فقد أكل منه، وذلك ما سبّب المشكلة. ربما لم يكن من الضروري إطعامه منه».

بدأ السيد باتاك يشرح رؤيته للأمر: «إذا كان ثمة شخص مريض بهذا القدر، فمن الطبيعي توقع ... إن كان الشخص مريضاً بهذا القدر، فلا يجب على المرء أن يقدم له طعاماً لا يليق إلا بالكلاب». قالت مقاطعة وهي ماتزال تتحدث إلى زوجها فقط، «وإن كان المرء مصراً على تقديم مثل هذا الطعام فعليه أن يتحمل النتائج». حاولت الاحتفاظ بصوتها خافتاً لكن ما تشعر به من حنق بسبب عجزها المؤقت جعل الأمر صعباً.

«دعيني أتحدث مع السيد باتاك، يا آرونا». قال الزوج محاولاً إبداء الحزم، ولكن من دون جدوى.

«في الحقيقة هم من يجب أن يدفعوا أجرة الشغّالة أيضاً».

«من المؤكد أنكم لا تقترحون علينا أن ندفع كل شيء، فقد دفعنا أتعاب الطبيب كما تعرفون» قال السيد باتاك.

«ولم كان ذلك، اسألهم عن السبب؟ ماذا قال الطبيب عن سبب مرضه؟ كان بإمكاني أن أخبر السيد باتاك بذلك».

«آرونا»! صاح زوجها.

«لا، ولكن قل لباتاك صاحب بأنهم مسؤولون عما حصل. هي مسؤولة عن ذلك. قل له أن يذهب إلى زوجته ويخبرها بأن ...» وصُفق الباب قبل أن تتم جملتها.

ما إن دخل الغرفة حتى كانت زوجته تضع «ترو تون» على شعرها بكل هدوء، فبادرها قائلاً: «أكان يجب أن تكوني بهذه الفجاجة»؟ وأضفى الغضب على وجهه توهج البراءة، «على الأقل كان يجب عليك أن ... على الأقل كان يجب عليّ؟ لا تقل لي إنه كان يجب عليّ على الأقل، فأنت من يجب عليه على الأقل. ألا تعلم بكميات القشدة التي تسرقها مني؟ ففي كل يوم يقل مستواها أكثر فأكثر وليس بمقدوري قول شيء، لأنني لم أتمكن من ضبطها متلبسة، ثم ها أنت تقف في صفها». بدأ صوتها يرتعش وكأنها على وشك البكاء.

«آرونا، لستُ في صفها يا آرونا، فلا تكوني سخيفة».

«قلت لي كان يجب عليّ على الأقل ...» ومرة أخرى بانت الارتعاشة في صوتها مهددة بالتحول إلى نوبة بكاء.

«كل ما قلته إن فيشنو - إن الرجل يحتضر وعلى عتبات بيتنا - وإن علينا القيام بشيء ما».

«دع ذلك لهم» أجابته وقد تصلب صوتها فجأة، «وما فائدة ذلك على كل حال؟ فهذا المسكين مريض للغاية ـ وبإمكان أي ساذج رؤية ذلك. ثم ما الذي يجعل منك قديسا هكذا؟ فقد عُدت ثملاً في الواحدة ليلة البارحة ووجهك شديد الاحمرار مثل إشارة مرور». كانت في أثناء ذلك تضغط على شعرها بالفرشاة بشكل منتظم ثم تابعت: «والآن هل يمكنني إتمام ما أنا بصدده»؟

انطلق مغادراً الغرفة في حالة غضب، وأمسك بالباب خلفه، وكأنما ليصفقه بقوة، لكنه عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة وأغلقه خلفه بكل هدوء.

وبينما كانت السيدة باتاك تجفف العرق عن جبينها تساءلت عن السبب الذي جعلها تصر على إعداد طبق السلطة الروسية. بالطبع فكل ذلك بسبب تلك السيدة جيسوال ـ فهي التي قدّمت لهم كل تلك الأطعمة المكسيكية الغريبة في حفلة البوكر النسائية الأخيرة ـ وأطلقت عليها اسم «تاكوس»، وهي لم تكن في الحقيقة أكثر من رقائق الشاباتي المحمّرة ملفوفة حول أوراق السلطة مع طبيخ الكاري، لكن المرأة كانت من الجرأة أن تضيف للخليط قطع المانغو المخللة والفلفل، وقد جُنّت السيدات بذلك الطبق (بما فيهن السيدة باتاك رغماً عنها)، «أخبرني روهت أنّ (التاكوس) لها شعبية واسعة الآن بين الناس في أوماها». قالت السيدة جيسوال بتبجح خوفاً من أن تنسى إحداهن أن ابنها يدرس الآن في جامعة نيبراسكا في الولايات المتحدة. لقد كانت تلك وقاحة منها وبخاصة أنّ فيرو؛ ابن السيدة باتاك الأكبر لم ينجح في امتحانات السنة الأولى في جامعة بومباي لهذا العام.

أذابت كمية من القشدة في المقلاة ثم غرفتها بسرعة، وأضافت إليها قدر ملعقتين من الوعاء البلاستيكي الموجود في الجانب الخاص بالسيدة آسراني من المطبخ، واعتبرت هذا الإجراء تعويضاً مشروعاً عن الماء الذي تختلسه جارتها من خزانة مياه المطبخ في كل يوم ـ سلسلة لا تنتهي من قدور المياه التي تغلي على الموقد لساعات طوال من دون نهاية ـ فلا يبدو أن هذه العائلة تقوم بشيء سوى الاستحمام طوال الفترة الصباحية. كانت السيدة آسراني تضع علامات بخطوط ورموز مختلفة لتحدّد مستوى القشدة في

الحافظة، مستخدمةً قلم تخطيط الحواجب، لكن ذلك لم يؤد إلا إلى استثارة جارتها التي أصبحت مدمنة على هذه الاختلاسات اليومية.

وبينما كانت تنتظر تسخين القشدة خطر لها أن زوجها لم يعد بعد من لقائه بمائلة آسراني؛ فربما نزل إلى الشارع لتناول كوب من الشاي في المقهى الإيراني، ولم تفهم تماماً لمَ لا يتناول الشاي في البيت بدلاً من اضطراره إلى دفع ثمنه في ذلك المكان العتيق المتآكل، لكنه على الأقل لا يتناول الخمر في الحانة كما يفعل السيد آسراني مرتين في الأسبوع، ولهذا السبب لم تعترض على تصرفه ذاك. لقد أملت أن قضية عربة الإسعاف قد حُلّت - فيجب إخراج فيشنو قبل وصول ضيوف حفلتها في هذه العشية، وبإمكانها تخيل ما سيقال خلف ظهرها من ملاحظات لو أن السيدة جيسوال شاهدت مثل هذا المنظر.

مسكين فيشنو، فقد أحست بالأسى لإشرافه على الموت، ستفتقد تحية «سلام ممصاحب»، التي يبادرها بها كلما نزلت الدرج. وعلى الرغم من أن عودته من ناغبور كانت بمثابة كارثة فإن السنين الأولى سارت على ما يرام لكل العائلات في البناية - بل أفضل مما توقعت. كان السيد باتاك ممتناً لعدم اضطراره إلى الوقوف في طابور الجمعية، أو حمل القمح إلى المطحنة. أما هي والسيدة آسراني فأحستا بفائدة وجود شخص يلقي نظرة من حين إلى آخر على السيد تانيفا المحبوس وحيداً في شقته في الطابق الأخير. حتى الدرجات والبسطات اكتسبت شكلاً أنظف الآن بعد إقناع فيشنو بالتخلي عن عادته في بصق تفل البان على الجدران. وتوصلت مع نفسها إلى أنها ستقدم نذراً لفيشنو في المعبد غداً، هذا إن توفي حينذاك. بالطبع سيتوجب عليهم أن يقرروا مصير البسطة - فربما لاتزال غاناغ القصيرة ترغب في العرض الذي قدمته لها منذ عدة شهور.

صارت القشدة ساخنة الآن، فرفعت أساورها إلى أعلى ذراعيها وبدأت في وضع المجموعة الأولى من مكعبات العجين الملفوفة بعناية في المقلاة، على الفور أحدث مخيض البيض والحليب المخلوط بالمكعبات أزيزاً أعجبها، وأصدرت أساورها رنيناً وهي تربت على معجنات السامبوسا بمغرفتها. كانت سعيدة لأنها لم تقتر في استخدام محسنات

الطعام كما هي عادتها ـ تطلبت الوصفة زجاجة مايونيز بأكملها من نوع دكتور رايتر، وحاولت وهي تضيف محتوياتها إلى الخليط تجاهل السعر المسجل عليها، فالأمر يستحق ذلك ـ لأنّ التعبير الذي سيظهر على وجه السيدة جيسوال عندما ستأتيها بالطبق الشهي المضاف إليه السامبوسا المستوردة كافٍ بحد ذاته. في الواقع، قد تجلبُ زجاجة مايونيز أخرى لتقدمها كإضافة مع الطعام، وربما عليها الإسراع إن كانت ستنزل إلى السوق لابتياعها ـ فهي لم تختر بعد المجوهرات التي سترتديها أو الساري.

حانت منها التفاتة إلى المقلاة فخرجت منها شهقة، إذ تفتتت قمة السامبوسا لتبرز منها قطع البازلاء والجزر والبطاطس بالإضافة إلى المايونيز الغالي وانتشرت في الدهن الفائر في المقلاة. قبل أن تتمكن من القيام بشيء أخذت بقية المكعبات في التفتت أيضا وكأنها نغمات سلم موسيقي متتال حتى أصبحت المقلاة عبارة عن كتلة تمورُ من خليط الخضار والزبد والمايونيز سريع التبخر.

وقفت بجوار الفرن، أساورها تتجمع في صمت عند معصميها وحملقت بهدوء في محتويات المقلاة. فقد تحللت سامبوسا السلطة الروسية ولن تحقق ظهورها الأول على المائدة في حفلتها لهذا اليوم. ليس لديها ما تقوم به الآن سوى أن تدع الخليط يتحمّر ـ ربما سيكون طعمه لذيذاً إذا أضيف إليه الليمون والمخللات ـ وستقدمه كوجبة إضافية في أثناء الغداء، وإن لم يعجب به أحد فربما ستعطيه لفيشنو إن تماثل للشفاء.

* *

الأحمر أكثر قتامة الآن وأكثر لزوجة. إنه ينساب إلى ظلال الكوخ ويتوقف قليلاً عند الجرح على جبهته ويظلل حواشي مقلته لتبدو عينه وكأن الرّضّ قد أغلقها. ومن مكان ما خلال الأحمر يسمع نخرة واحدة، تصدر عن أبيه النائم في زاوية الكوخ.

تدخل أخته عبر الباب تحمل في يدها قطعة ثلج أحضرتها من السوق وتعطيها لأمها التي تلفها بوشاحها.

« أعرف أنها تؤلمك،» قالت وهي تضع قطعة الثلج على عينه المتورمة. «لكن يجب أن

تتحلى بالشجاعة، وتذكّر أنك فيشنو». أحس ببرودة الثلج فوق جفنه لكنه لم يجدِ نفعاً إزاء الحرارة التي تحته.

« فيشنو إله التجسّدات العشرة». تقول ضاغطة قطعة الثلج على جبهته، «إنّ راما وكريشنا جزء منك».

يفكر في راما وكريشنا، محاولاً تذكر التجسّدات الثمانية الأخرى التي علمتها له أمه: الحوت ماتسيا، السلحفاة كورما، الخنزير بوار ... وفجأة يطلق أبوه شخيراً عالياً ثم يتيبس في مكانه.

تستمر الأم: «فيشنو الجسور، فيشنو الرحيم، نهرُ الغانغ ينبع من تحت قدمي صغيري فيشنو، ويوماً ما ستهبط لاكشمي عليه لتمنحه الحظ السعيد، وسيظهر النسر غارودا ليطير بهم إلى فايكونثا».

يتخيل فيشنو نفسه مع أمه يمتطيان النسر الضخم الذي يطير بهما فوق السحب، وعلى البعد تلوح له جنة فايكونثا الخاصة، حيث تشع قممها الذهبية عاكسة أشعة الشمس.

« أنت فيشنو» تقول الأم، «حارس هذا الكون، وحارس الشمس. فما العام من دونك»؟

« أنا فيشنو» يرد عليها، «حارس هذا الكون، وحارس الشمس، ومن دوني ليس هناك إلا الظلام».

الثاني

نقد السيد باتاك الهوتيل وله ثمن علبة بسكويت غلوكو، وعاد إلى طاولته حيث ينتظره كوب الشاي. هناك صحيفة تستلقي فوق الطاولة أيضاً لكنها باللغة الكوجراتية التي لا يجيدها، وقد فكر في إحضار صحيفة التايمز لكنه ليس مستعداً بعد للعودة وإخبار زوجته عن فشل مهمته مع آل آسراني.

مزق الورق الشمعي الذي يلف العلبة وأخرج منها قطعة بسكويت واحدة غمس نصفها في الشاي ثم قضم الجزء الرطب منها، فذاب البسكويت الدافئ فوق لسانه مطلقاً حلاوة الغلوكو المكثفة مقرونة بنكهة الشاي. هذا أكثر ما يعجبه في المقاهي الإيرانية - الجلوس على أحد كراسي الخيزران الأسود إلى طاولة مغطاة برخام أبيض، وإمعان النظر في آيات منتقاة من الكتب المقدسة التي رسمت على جدران تغطيها المرايا، مستمعاً في الوقت نفسه إلى مناداة فتية الحافلات على زبائنهم، في حين تذوب قطعُ البسكويت المبتلة بالشاي في فمه واحدة تلو الأخرى. من المؤسف أن الكثير من هذه المقاهي أخذ يغلق أبوابه؛ ففي هذا الشهر فقط حُوّل المحل الواقع على امتداد الشارع إلى متجر للملابس (وهو الخامس من نوعه في هذا الشارع)، كما يدور حديث حول بيع هذا المقهى وتحويله إلى متجر لأشرطة الفيديو. تطلع نحو السقف الأصفر من خلال فُرج المراوح العلوية الدائرة ببطء، وتساءل كم تبقى من المرات التي يسمح له فيها بالهروب إلى جنته الخاصة هذه.

مرقت تزمجر أمام ناظريه عبر باب المقهى حافلة ركاب حمراء مزدوجة الطوابق، فوصل إلى أنفه الغبار الساخن الذي أثارته خلفها. كان الضجيج يسود المكان، وبدا أن الأحداث تتحرك بسرعة كبيرة في هذه الأيام. كل ما أراده هو الإحساس بالطمأنينة، ويبدو أنه قد أمضى أغلب وقت فراغه في محاولة للبحث عنها، وحتى عندما ظن أنه عثر عليها كما في هذا الصباح فثمة دائماً ما يجعلها لا تستمر طويلاً.

ليست غلطته أن السيدة آسراني لم تكن حصيفة على الإطلاق، ولا هي غلطته كذلك أن فيشنو وقع صريع المرض، وبالتأكيد لم تكن غلطته أنّ أوشا رتبت لإقامة حفلتها هذا اليوم بالذات، فلا علاقة له بكل ذلك، لكنه يعرف أنه سيلامُ على كل شيء. وانتابته حالة من الشفقة الذاتية، فتحول البسكويت في فمه إلى طعم الطباشير.

بإمكانه تخيّل وجه زوجته يتقلص بفعل الغضب وشفتيها تطلقان سيلاً من الكلمات القاسية، أما العينان فمظلمتان بما يملؤهما من سخرية - لقد خذلها مرة أخرى. بعد تعرضه للتوبيخ، سيرتمي في كرسيه محدقاً في صحيفته، وستتلاشى الكلمات على الصفحات من دون معنى، في حين أنه يخطط لانتقامه - القيام بثورات صغيرة وأقل ما يمكن من ردّات الفعل، على أن ينفذ ذلك بتمويه مُحكم الإتقان ليساعد على توازن الأمور في ذهنه. ستتاح له فرصة مناسبة هذا اليوم حين تقيم أوشا حفلتها المرتقبة، فبدلاً من الجلوس في كرسيه المعتاد لقراءة الصحيفة، سيجلس إلى طاولة الطعام بكل برودة أعصاب، وهو على يقين من أن وجوده هناك في أثناء ما تقوم به من تحضير سيدفعها للهياج. أما هي فتنطلق بسرعة من حوله في دوائر متسارعة، محاولة إبعاده، بتسليط نظراتها النارية عليه، والتمتمة بجُمل غير واضحة، لكنه سيدّعي الغباء مستمتعاً في السر بكل ما يجري. بالطبع لا بد أنها ستنهار في النهاية، وعند هذا الحد سيتحرك من مكانه بتمهل راسماً على وجهه تعبير المعاناة والبؤس الشديد، الذي يعرف أنها تمقته كثيراً. ما إن تصل صديقاتها ويتجمعن حول الطاولة حتى يدلف إلى الغرفة بوجه غير حليق، وربما مرتدياً جلباباً ممزقاً، ويأخذ في السؤال عن أحوال أزواجهن أو يتسكع حولهن حتى يتيقن أن ارتباك زوجته صار مكتملاً وليس بإمكانه أن يحصل منها على المزيد.

مجرد التفكير في إدراك ثأره منها سبّب له نوعاً من الإشراق في مزاجه، لكنه أوهنه أيضاً، فالانتقام يثقل عليه، والتخطيط له يضنيه، وتنفيذه يستنزف قواه، فهو يفضل عوضاً عنه أن تأتي عربة الإسعاف لنقل فيشنو كي لا يضطر إلى التعاطي مع هذا الأمر. ربما يجب عليه أن يطلب الإسعاف ويدفع الأجرة بنفسه، فليس من الضروري أن تعرف أوشا بذلك.

أو ربما يطلب الإسعاف ويعطيهم اسم السيد آسراني، وهنا أصلح من وضعية نظارته كأنه رأى لتوه كتابة مثيرة على الجدار. ألن يكون ذلك مفاجأة! وتكوّرت جنبات فمه بشكل هائل وهو يُدخل قطعة بسكويت الجلوكو بأكملها بين شفتيه، لكن الأفضل من ذلك هو تزويدهم باسم السيدة آسراني. سيكون ذلك نجاحاً مثيراً للحماس! رصّ القطعتين المتبقيتين في فمه أيضاً وشرع في مضغهما بنشاط، وقد التوت شفتاه في ابتسامة عندما تخيّل النظرة على وجه السيدة آسراني والسائق يقدم لها قائمة الحساب. ستبرز عيناها مثل من يتعرض للخنق، وفمها يُفتح ويغلق في صمت مثل سمكة ولا صوت يخرج منه على غير العادة. يا له من منظر مثير! أخذ يضحك وانطلقت من فمه نتيفات من بسكويت الجلوكو، فمسح الإمامُ الجالس في الطاولة المقابلة له على لحيته البيضاء ونظر بعيداً. ثم وجد بعض الفتات طريقه إلى قصبته الهوائية، فبرزت عيناه من خلف النظارة وانطلق في نوبة من السعال العنيف.

خفّت حدة السعال وذهبت معها خطته التمويهية، التي كانت بالغة الخطورة. كم تمنى أن صداقة أفضل ربطته بالسيد آسراني ليتدبرا حلاً لهذا الإشكال بطريقة ما في الخفاء من دون علم زوجتيهما. عندما انتقلا إلى البناية دعت أوشا السيدة آسراني إلى حضور بعض حفلات البوكر التي كانت تقيمها، وتذكر فجأة أن الشأن السياسي كان يغلب على حديثه مع جاره كلما التقيا. ذات مرة ذهب أربعتهم إلى السينما لمشاهدة فيلم - سأظل صامتاً، وعندما شرعت كافيتا التي كانت رضيعة يومذاك في البكاء في الصالة المظلمة رافقت زوجته أمها إلى بهو السينما، وظلت معها حتى توقفت الطفلة عن البكاء.

بالطبع فقد ولّى كل ذلك إلى الأبد، وتكفل المطبخ بذلك. فإظهار أي نوع من الود للسيد آسراني (أو أسوأ من ذلك للسيدة آسراني) سيُفسّرُ من جانب أوشا على أنه خيانة لها، وهي التي حرصت دائماً على منع فلتان الأمور. تعلم الرجلان ألا يظلا في المطبخ سوية، وألا يتبادلا إلا أقل حدود المجاملات عندما يلتقيان. وهكذا رأى أنه ربما قد حان الوقت لكسر هذا الصمت وإقامة حلف بينهما، فعلى الأقل يمكنهما حل إشكالية فيشنو.

تجرع الشاي المتبقي واستخدم إصبعه لغرف كسر البسكويت المتبقية في قاع الكوب. كان يعرف أنّ السيد آسراني يركب الحافلة 81 صباح كل يوم سبت - وغالباً ما تساءل في نفسه حول وجهة جاره الذي سرعان ما يمر أمامه متجهاً إلى موقف الحافلة. لهذا لعق آخر كسر الخبز من أصابعه واعتدل في كرسيه منتظراً إياه.

* * *

يوم السبت بالنسبة إلى السيد آسراني هو يوم التكفير، إذ سيقوم بـ «الجولة» كما يسميها؛ أي طلب الصفح عما اقترفه من خطايا خلال الأسبوع المنصرم. وبالدرجة الأولى يطلب الصفح -كما يرى- عن الوقت الذي يهدره في الحانة. فهو يستقل في البداية الحافلة 81 إلى ماهيم، ليقدم احتراماته في معبد رام مانديز الكبير هناك، ثم ينتقل بعدها إلى معبد البرابهاديفي ومعبد المهلاكشمي، ويذهب أحياناً في طريقه إلى مزار هانومان المقدس أيضاً. وبعد أن ينتهي من زيارة المعابد الهندوسية يستقل الحافلة إلى المسجد بالقرب من مترو، وهناك يمارس تعبده أيضاً بعد أن يغطي فروة رأسه بمنديله كما يفعل المصلون المسلمون. وفي طريق عودته، إن لم يره أحد ممن يعرفهم، سيعرج على الكنيسة الكاثوليكية في الشارع المقابل، فالسيد آسراني لا يؤمن بترك الأمور للصدفة عندما يتعلق الأمر باسترضاء القوى الخفية في الأعالي.

أما اليوم فقد شعر برغبة خاصة في الولوج إلى ما يمنحه له المعبد من طمأنينة. فهذه هي (أمافاس) الفترة المقيتة من الشهر، التي لا يظهر فيها القمر، وهو أمرٌ مزعجٌ في حد ذاته، والآن تتعقد الأمور أكثر بوجود فيشنو المرمي على عتبات بيتهم. هز رأسه لما يوحيه هذا الأمر من خشية معززة بنذر النحس.

كانت الرائحة الكريهة التي قابلته عند هبوطه الدرج فظيعة، وتوقف ليلقي نظرة على فيشنو متسائلاً إن كان يجب أن يلمسه.

« فيشنو؟ هل أنت حي؟» ثم تذكر مدى سخف السؤال، فتلفت حوله ولم ير أحداً غيره.

خرجت فقاعة لعاب من فم الرجل المستلقي وشاهدها تتمدد وتنكمش، فقرر أخيراً ألا يلمسه، من جانب بسبب الرائحة المنبعثة منه، لكن السبب الأول هو خوفٌ غير عقلاني من عودته إلى الحياة بمجرد لمسه، فما كان منه إلا أن تجنبه قدر الإمكان في أثناء نزوله، مغطياً أنفه بمنديله.

توقف برهة عند الباب الذي يقود إلى الشارع، فهو يكره الخروج في أيام أمافاس هذه. كان يأمل لو اخترع أحدهم مظلة تحمي من إشعاعات سوء الطالع التي يشعر بها تسقط عليه كالمطر في مثل هذه الأيام، وأحس بأن صلعته جعلته أكثر عرضة للتعرض للنحس - فليس بإمكانه حتى الاعتماد على طبقة من الشعر لحمايته. لو لم يكن اليوم هو السبت لحاول الاختباء داخل ما يوفره بيته من حماية، لكن البقاء هذا اليوم والتخلف عن القيام بجولته الأسبوعية قد يكون أكثر خطورة. في النهاية تخطى الباب رافعاً ياقته حول رقبته وكأنه يتهيأ لدرء ريح باردة، ومعرضاً جسمه إلى الأخطار الصحية التي قد تأتيه من هذا اليوم في الخارج.

«آسراني صاحب!» عندما سمع الصوت كان متجهاً نحو محطة الحافلات مركزاً نظره على السيارات المسرعة ومنتبهاً إلى عدم ركوبها فوق الرصيف لدهسه. كان النداء صادراً من المقهى الإيراني عن رجل نحيل مرتد نظارات طبية، ويشير إليه بالاقتراب منه، «لم لا تأتي وتشاركني تناول كوب من الشاي؟»

«هذا أنت، يا باتاك صاحب». بانت الدهشة على وجهه، «كم وددتُ ذلك، لكن عليّ ركوب الحافلة». ما الذي قد يريده منه السيد باتاك؟ وبالذات في يوم أمافاس!

«نعم، نعم، أعرف أنك تريد الحافلة 81، طيّب، ربما ترغب في الاستراحة قليلاً، فقد مرت اثنتان منهما الآن، وكانتا خاليتين تماماً، وسيمر بعض الوقت قبل أن تأتي غيرها». ثم أشار إلى النادل، «كوبين إضافيين من الشاي من فضلك، مع علبة من البسكويت المخصوص المحشو بالكريمة».

كانت إشارات الخطر قد أخذت تومض داخل رأسه لحظة دخوله المقهى، ثم عندما وُضع كوب الشاي أمامه. وازدادت الإشارات قوة بعد أن دفع السيد باتاك علبة البسكويت أمامه، لكنها خبت بعض الشيء عندما أعقب قضمة البسكويت إحساسٌ بانتشار نكهة التوت فوق لسانه. وعلى الرغم من أن زوجته ترسله دائماً إلى الشارع لشراء البسكويت المحشو بالكريم، فإنه دائماً من أجل الأولاد فقط، ومن النادر أن يخاطر بإثارة اعتراضها ومدِّ يده إلى إحدى القطع. لقد مضى زمن طويل منذ أن تذوق ما يحتوي منها على نكهة التوت ـ على الرغم من أن النوع المفضل لديه كان دائماً المصنوع بالبرتقال. كم مشرقة تلك الذكريات التي تعاوده الآن عن نكهات البسكويت المختلفة التي خصّته بها أمه كل مساء بعد عودته من المدرسة.

بادره السيد باتاك بالحديث، «فيما يتعلق بما حدث هذا الصباح...» رفع نظره في حذر عن قطعة البسكويت التي شطرها إلى نصفين ليلعق الكريما التي بينهما. كيف تسنى له أن ينسى بالكامل ذلك المشهد بينه وبين زوجته؟ وبسرعة حاول أن يلصق النصفين معاً من جديد، لكن الأوان قد فات. فطعم الكريما مايزال فوق لسانه، والآثار التي تدينه واضحة فوق شفتيه، أما رقبته فاحمرّت بلون التوت لما أحسّ به من ذنب.

« يا باتاك صاحب، لستُ أدري ماذا أقول»، بدأ في الحديث لكن جاره قاطعه: «لا، لا، فهذه الأمور تحدث، والمهم كما أظن ألا نجعلها تنكدُ علينا، أو الأهم من ذلك ألا نجعلها تنكدُ على زوجتينا». بدت عينا السيد باتاك تشعان تفهّماً من خلف نظارته. «حقاً،لمَ نزعجهما بمثل هذه الأمور التي يجب في الحقيقة أن نتولاها بأنفسنا؟ فالأمر لا يحتاج إلى موافقة منهما أو ما شابه ذلك». وجفل قليلاً لما وضعه الرجل من توكيد على الكلمة، ولم تلتق عيناهما.

«يجب أن نكون حليفين»، جعله الحديث يتساءل عن السبب الذي دفعه إلى الوقوف ضد أفضل غرائزه، والخروج في مثل هذا اليوم المنحوس؛ وأضاف جاره ممعناً النظر من خلال نظارته: «أي أن نكون أصدقاء بالفعل.» وهنا بدأ البسكويت والكريما يتشكلان على هيئة عقدة في معدته، ويستعدان للخروج من جديد في هيئة مضغة التوت، «أصدقاء

بإمكانهم حل الخلافات بينهم بشكل ودي»، خرخر باتاك في وجهه فما كان من جاره إلا أن نظر من دون أمل إلى علبة البسكويت فوق الطاولة. وبينما وجد نفسه يهز رأسه مؤمّناً على كل ما يقترحه، ألفى نفسه يوافق أيضاً على اقتسامهما أجرة عربة الإسعاف، ووجد نفسه أيضاً يقف إلى جانبه في حين كان باتاك يتهجى اسميهما لموظف الإسعاف عن طريق الهاتف، جال بخاطره أن قطعة البسكويت هذه تعد الأغلى ثمناً مما تناوله في حياته على الإطلاق، وكم كان غاية في السعادة لأنه تناول واحدة منها فقط.

« ثمانية» يسمع نفسه يقول «تسعة»، ومن خلال الوشاح يراها قادمة نحوه.

« عشرة» يقول ثانية، «أحد عشر»، ويبدأ الوشاح الذي ربطته حول رأسه في السقوط عنه. «اثنا عشر، ثلاثة عشر» تحاول الآن التسلل من حوله على أطراف أصابع أقدامها. «أربعة عشر، تعرفين أنه لا يمكنك الاختباء تحت، فغير مسموح لك النزول إلى قاع الدرج.»

« لقد نظرت إليّ!» قالت كافيتا.

« لم أنظر! ليس بعيني السليمة!»

«نظرت! حتى بعد أن ربطت الوشاح! ما الفائدة منه إذاً؟ سأنزعه عنك»!

يبدأ الشاش في الانزلاق عن جفنيه وتزداد سرعة احتكاكه فيشعر بالحرقان فوق جلد وجهه. تنفتحُ عيناه عندما يترك القماش وجهه وينطلق في الهواء، رباط طويل متغضن يرتفع عالياً نحو النافذة المفتوحة، ويعمل الضوء المتدفق على اشتعاله باللون؛ فها هو معلق في الهواء يطلق الشرر والفرقعات مثل قناة للبرق، أو أنبوب للشمس يمسك بالضوء والطاقة من الكون، ثم يركّزه لينتهي في يدها. ببطء تدور حول نفسها مرات ومرات، ويتساقط من حولها شلال ذهب، في حين يتطاير وشاحها بشكل لولبي من فوقها.

« كافيتا». وبينما ترنّ الكلمة فوق شفتيه تهبط هيأتها من وراء النافذة مرة أخرى. إنه عيد الديفالي الآن وهي تمسك بأنبوبة من قاذفات الشرر في كل يد. «انظر إلى لعبتي المضيئة»، ثم تلوح بالألعاب النارية في الهواء، فيسقط منها الشرر الذي ينط ويندلق على الأرضية الصخرية.

بإمكان فيشنو أن يشم رائحة الكبريت يحترق وعلى الجدران تتراقص الظلال وقد منحها ضوء المشاعل قبلة الحياة. إلى الأعلى وإلى الأسفل، ثم أماماً وخلفاً، ترتفع الظلال وتندفع ثم تسقط وتلتوي. هذه هي فرصتهم، فهم يعرفون أن هذه هي ليلة الديفالي، يهمسون باسم الليلة عندما تهبط الإلهة لاكشمي لتمر من خلالها إلى الأرض. يرونها قادمة إليهم محاطة باللهب من كل جانب ويرتفع عالياً مع كل خطوة تخطوها. «هل ستجد لها فيشنو خاصاً بها؟» يبدؤون الغناء «هل ستتحدُ بمن هو مقدرٌ لها؟» ثم تبدأ الألعاب النارية في الخارج بالتلوي على إيقاع غنائهم مثل طبول بعيدة.

«لديك واحدة لي؟» يسألها فيشنو.

ترد كافيتا، «يكاد اشتعال هذه أن ينتهي، وبإمكانك الاحتفاظ بها». ثم ينطفئ الشرر بمجرد انتقال السلك من يدها إلى يده.

«خذ هذه إذاً قبل أن تنطفئ هي الأخرى». فيأخذ منها الأنبوب لكنه ينطفئ هو الآخر. تشعّ الأسلاك باللون البرتقالي في يديه فيرفعها ليتمكن من التحديق في الظلام، ثم تتوقف الحركة على الجدران، وتركن الظلال إلى الراحة.

«المكان مظلم هنا».

يظهر وميض من خلال النافذة حين تبدأ الصواريخ بالانفجار في ظلمة الليل، فتلون وجهها بالأخضر والأزرق ثم تدور حول نفسها لتمعن النظر في السماء، فتنبعث الحياة قليلاً في الظلال.

وبينما ينظر فيشنو إليها تتفتحُ حديقة الأضواء من فوقهما، فيقول: «ليس ثمة ظلمة على الإطلاق حيثما توجد لاكشمي».

تمر السنين وتنير الفتاة البسطة بوجودها في كل عيد للديفالي. تقدمُ لفيشنو المشاعل، أنابيب مكتملة أحياناً يستخدمها ليشعل خيوطاً تفرقع ألواناً حمراء وخضراء، وهي الأنواع التي تفضل مشاهدتها لكنها تخاف من إشعالها بنفسها، تتفجر الألعاب على شكل مدارات طويلة على البسطة فيتطلعُ إلى البريق في عينيها، ويرى دائماً الخوف مختلطاً بالانبهار. يمسك أحياناً بطرف الخيط العلوي، وتتسلق الكتلة المتفجرة الدرجات، ثم تتقدم نحو يده، وعند ذلك يرمي الخيط في الهواء فتتحول الطرقعات إلى كرات نارية فوق رأسيهما؛ فتغطي كافيتا عينيها بيديها، وتجبر الظلال على السقوط فوق الأرض.

« كافيتا». هاهو الديفالي يحل عليهم، وتهبط كافيتا من دون أنبوب الشرر. يلاحظ أنها ترتدي ملابس مختلفة، وأن جسمها مختلف أيضاً، فهو أكثر امتلاءً وله فتنة لم يعهدها من قبل كما يلاحظ عليها أشياء كثيرة هذا العام. «كافيتا». يفكر فيها، في حين تحاول التغلب على الدرجات بحذائها عالي الكعب، تسير في أثر مجموعة من الصديقات الضاحكات اللاتي يخلفن وراءهن على البسطة عطراً فوّاحاً. «كافيتا». يرغب في مناداتها بصوت عال وهي تمر بجانبه بينما عيونها مشغولة بحلم وشفتاها تطلقان ابتسامة بعيدة. «كافيتا». يرغب في النطق باسمها، وفي مد يده ليلمسها أثناء انسلالها بجانبه فوق مسطح غير مرئي وطرف ساريها يرفرف وراءها مثل موجة.

ذات يوم ينطق اسمها بالفعل. «كافيتا». ولم يفطن إلى أن الصوت الذي أطلقه كان عالياً، إذ تسمرت في مكانها وكأنها قد أوقفت بفعل قوة منه. تحدق فيه بشك، ثم تظهر ابتسامة لعوب فوق شفتيها، فيرى القسوة تتسلل إلى عينيها.

« اسمي كافيتا ممصاحب!» تقول محملقة فيه بتحد لترى إن كان سيخالفها الرأي. كانت تضع يديها على أردافها وبإمكانه رؤية جلدها العاري في منطقة الوسط بين قميصها وتنورتها.

يتطلع إلى وجهها خلف نظرة التحدي التي تطلقها، ويصعق لما تبدو عليه من ضعف وعرضة للأذى، لم تكن حاجته للمسها قط أكثر مما هي عليه في هذه اللحظة. «كافيتا ممصاحب»، يقول لها ضاماً ذراعيه سوية إلى جسمه في امتثال تام.

تقفز البهجة إلى عينيها وتستدير لتخفي ابتسامة.

« سلام، يا ممصاحب!» يحييها فيشنو، في حين ترفع رأسها مطيّرة في أثناء ذلك شعرها إلى الوراء، وتبدأ في صعود الدرج منتشية بالنصر.

*

تتلاشى انفجارات الألعاب النارية في ظلمة الليل، فتترك مكانها لمئات من المصابيح المنيرة الملفوفة في مربعات من ورق السولوفان الملون، منيرةً السماء بزخات من الأحمر والأزرق والبنفسجي.

يقف مع بادميني في مدخل مكان الاحتفال، فقد مرّ شهران منذ أن رآها أول مرة، ولا يصدّق بعد أنها وافقت على مرافقته، لكن كيف تمكن من إقناعها بمغادرة غرفتها؟

«أحبُّ تناول الطعام!» تخبره وهما يدخلان مدينة الكراسي المصنوعة من خشب البامبو والحبال والقماش. تشتعل الأنوار وتنطفئ من حولهما وتصدح مكبرات الصوت بأغنية قديمة لشمشاد بيغوم، وأمامهما تدور عجلة ضخمة ترفع على متنها رواد المعرض الضاحكين إلى عنان السماء.

« انظر! إنه جَزرًا « تقول وهي تجره نحو نضد عليه حقيبة من الخيش حيث يجلس رجل خلف كومة من فتات الخضار، ويقوم بإدخال قطع الجزر في نهاية أنبوب لماع فتخرج من الجهة الأخرى على هيئة شريحة ملتوية متصلة. «والبطاطا كذلك! انظر! انظر!» هنا يتم ضغط حبات البطاطا في آلة تقطيع، وتنتشر أمام الرجل أكداس من قطع البطاطا الدائرية الشكل بتساوٍ.

«اقتربي يا ممصاحب، وانظري ماذا يمكن أن تقدم لك عجائب العلم. يتوجب على كل زوج أن يشتري واحدة من هذه لزوجته، نعم، وأنت أيضاً يا سيدي». يشير إلى فيشنو بالآلة في يده، «أسعدْ بها زوجتك»!

تستند بمرفقيها إلى المسطح الخشبي الذي يؤدي عليه الرجل عرضه السحري بخضراواته. «هل يمكنها عمل المُولي أيضاً؟» تسأله وهي تنحني إلى الأمام، وتريح ذقنها على راحتيها.

«طبعاً، طبعاً!» ويدخل إلى الآلة قطعة لفت طويلة بيضاء، فتخرج على شكل ملتو.

تصفق له فيقول الرجل: «إليك بها، جربيها بنفسك، يا ممصاحب». يتوقف الناس لمراقبة المشهد، في حين تلتقط حبة جزر وتلقمها للآلة المعدنية ثم تحرك عتلة التدوير لكن شيئاً لم يحدث. يخيم الصمت على المشاهدين فيقول الرجل مسرعاً: «عليكِ دفعها إلى الداخل». يوضح ذلك لها لتخرج الجزرة ملتوية، فتطلق بادميني ضحكة وتصدر عن الجمع تنهيدة ارتياح.

تلتفت خلفها، «في منتهى السهولة!» ينبهر الناس بتزكيتها ويندفعون لشراء شرّاحة الجزر. ويبيع الرجل منها عدداً كبيراً، ثم يقدم لها آلة جديدة منها ماتزال مغلفة بالبلاستيك، ويعلمها أنها من دون مقابل.

تخبره في أثناء سيرهما خلال الممرات المحاطة بأكياس الخيش: «لطالما أحببت معدات المطبخ».

يراقبُ قدميها وصندلها الفضي في أثناء محاولتها تخطي الوحل برشاقة، وينظر إلى فستانها المرصع بالنثار المعدني اللماع، ممعناً النظر في طبقات الأحمر على شفتيها. أما الكحل فيرى أنه مرسوم بعناية، لمسة إثر الأخرى، بحيث بدت عيناها كما لو أنهما بياض يسبح بحرية مطلقة. مايزال منبهراً، ومردّ ذلك أنه يتمشى مع هذه المخلوقة المثيرة إلى جانبه، هذه المرأة التي ترتدي عقداً من الحديد غير القابل للصدأ، مشدوداً بعناية إلى صدرها المرصع بدوائر النثار اللماع. لكنه مايزال غير مصدق أنها وافقت على مرافقته هذا اليوم.

« غودّي كي بال!» تشير بادميني، ولم تكن حلوى غزل البنات التي أشارت إليها تشبه شعر دمية وردياً كما قالت. وتبرز الحلوى لهما فجأة مشكلة بدورانها المتواصل حول عصا داخل الآلة لفة وردية ضخمة منفوشة.

« تريدين شيئاً منها؟» يسألها، وتهز له رأسها بخجل، فيشتريها ويستمران في التجوال.

« انظر إلى هذه، يا لها من عربة!» كانا يمران بكشك مصور فوتوغرافي محاط بأنواع الخلفيات من الرسومات كافة. هناك حصان يشب على قائمتيه الخلفيتين بالقرب من حافة منحدر خطر؛ ثم طائرة رُسم لها جناحان وتبدو في حالة طيران كما تبينُ السحب من خلفها، ورسمٌ لهلال محاط بنجوم، ومركبة فضائية على وشك الهبوط على السطح. لكن بادميني كانت تشير إلى سيارة بلون أحمر لماع مرسومة على جزء خشبي منفصل، لها أضواء صفراء ولوحة أرقام بحروف إنجليزية يقوم الرجل بقراءتها: «حظ سعيد، صنع في الولايات المتحدة». ركضتْ إلى الكرسي المخفي خلف الرسم، ثم مالت من النافذة قائلة: «كيف أبدو؟» ضاغطة في الوقت نفسه على بوق السيارة المرسوم على الخشب.

« ثلاثُ روبيات فقط للصورة الواحدة». يدفع له فيشنو المبلغ ويبدأ في الجلوس على المقعد ملاصقاً لها، لكن هيأتها تتيبس قائلة: «لا. أنا فقط، أنا فقط أو أنت فقط، لا كلانا».

تبدأُ في النهوض من مكانها لكنه يوقفها وينهض هو، ثم يظهر وميضٌ في أثناء التقاط الصورة.

ستمر ساعة قبل اكتمال تحميض الصورة، فيصلان إلى خيمة يقف على مدخلها رجل يصيح، «هيا لمشاهدة الفيلم! رقص كباريه تقوم به الراقصة ريتشما! عرض ساخن للغاية! وسيبدأ بعد خمس دقائق»!

«لندخل !» يقول فيشنو، «أحب مشاهدة الأفلام هنا».

كانت بادميني حائرة لكنها سمحت بأن تقاد داخل رواق الخيمة حيث رُتبت مقاعد خشبية طويلة في مواجهة قطعة قماش بيضاء خيطت إلى الخيمة، وهناك مصباح كهربائي مشتعل في نهاية سلك كهربائي. كانت الحرارة تتزايد مع كل عرض، والجو مثقل برائحة العرق ومشمع الخيمة الساخن، فالتحقا بالمشاهدين الذين يترقبون بدء العرض في قلق وقد تبعثروا على المقاعد كأنهم ضحايا مذبحة ما.

«لم أعتد هذا الوضع، فعادة ما يأخذونني إلى دور سينما محترمة مثل تاج، وأحياناً نوفلتي». تتململ في مكانها مبينة عدم ارتياحها لجلوسها على المقعد الخشبي، «يا إلهي، الجو شديد السخونة هنا»! ثم تحاول استخدام شراحة الجزر كمروحة.

« سيبدأ الفيلم بعد ثوان»، أخبرها فيشنو، أما في الخارج فيقوم بائع التذاكر بمحاولة أخيرة لاجتذاب الزبائن، «تعالوا لمشاهدة جسد ريتشما وهو يطلق الشرر في إحدى أكثر الرقصات الشهوانية إثارة مما أدته طوال حياتها! شاهدوها وهي تكشف عن كل شيء، شبابها، وجمالها، وكل شيء»!

أخيراً ينطفئ النور، وتظهر ريتشما على الشاشة برأسها المستطيل بشكل غير طبيعي. كانت مقطبة الجبين، تثب متبخترة، مدعية أن جسدها بالغ الإثارة إلى الحد الذي يمكنها لو أرادت أن تجعل كاهن معبد يجثو راكعاً عند قدميها. وعلى الرغم من أن الكشف عن مفاتن شبابها لا يتحقق، فإن علامات الرضا تبدو على المشاهدين الذين أطلقوا الصفير والصيحات.

« هذه البقرة السمينة»! تنخر بادميني بعد خروجهما، «كل ما تفعله هو هز كرشها الضخم! لمَ أخذتني لمشاهدتها»؟

« لأنك ترقصين أفضل منها»، يردّ على الفور، «فأنت من يجب أن يكون على تلك الشاشة».

« تعتقد ذلك حقاً؟» تريد أن تسمع منه المزيد، «لكن صدرها أكبر من صدري».

« نعم، لكن بالنسبة إلى وجهك فلا توجد أي مقارنة»، فتسعدُ لقوله.

كان الوقت متأخراً عند عودتهما إلى الشارع الذي تقطنه. هناك أضواء وموسيقى في أرجاء المكان، وتقوم شابات ونساء بإرسال الإشارات من النوافذ والأبواب والشرفات.

«هل يمكنني الدخول»؟

«هذا يعتمد على...» وتقوم في الوقت نفسه بفرك إبهامها وسبابتها، «تعرف ما تحتاجه إن أردت الدخول».

عندما استيقظ كان الوقت أواخر العشية. جاء مدّ المياه وتراجع في أثناء نومه، وانتشرت الرمال على حد خط المياه عاكسة أشعة الشمس وكأنها رُسمت بالفضة.

يحاول تذكر الليلة السابقة وهو يقف على باب بادميني بعد المعرض، يخبرها كم تعني له، وكم يحبها، محاولاً إيجاد الكلمات التي تمكنه من الولوج إلى غرفتها وإلى قلبها.

تطلق نصف ابتسامة. «انتظر هنا حتى أستعد» تقول ممررة أصابعها على شفتيه، فيحاول الإمساك بأصابعها لتقبيلها، لكن لم يبق منها إلا أثر عطرها.

لا يتذكر كم أمضى من الوقت جالساً أمام بنايتها يستمع إلى الموسيقى ويشاهد طوابير الداخلين والخارجين، ثم نهض من مكانه عندما أصبح صوت رنين الخلاخيل في الداخل لا يطاق.

هل ستكون السماء مظلمة عندما يتجه إلى الشاطئ؟ وهل ستظل النجوم تشع فيها عندما يستلقي برأسه مستنداً على الرمال؟ يرتمي عند حافة الماء قائلاً في نفسه بأنه لم يجرب مثل هذه المشاعر مع أي من الفتيات الأخريات. هذه الرغبة في الفناء، متوحداً مع بادميني في لحظة ملتهبة، هذه الرغبة في أن يمضيا حياتهما سوية.

لكن الآن وقد ارتفعت الشمس إلى كبد السماء، يتطلب النهار مواقف أكثر عملية. أخذ يراقب نورساً يسير فوق الشاطئ بحثاً عن الطعام، ويقفز فوق الرمال، يتوقف هنيهة لينقر قطعة بلاستيك، ثم يستمر في قفزه. يتوقف كلما رأى شيئاً بلون أحمر أو برتقالي، يختبره بمنقاره؛ قصاصة من الورق، أو عقب سيغارة، أو قشرة مانغو جافة ـ ويقذف بكل ما لا يمكن هضمه.

يقترب الطائر منه ليكتشف فيشنو مدى قبح منظره، فالرأس أسود لمّاع، كأنما غُطس في الزيت، أما الريش فمخضب بالأسود يبدو زيتياً أيضاً، وتعلقت بمخالبه كتل ذات لون بني.

يخطو الطائر إلى حيث يجلسُ، ويندفع نحو قطعة خبز فوق الرمال، فيرقب فيشنو الخبز والمنقار يبتلعه، ثم يتخيله منزلقاً ككتلة واحدة أسفل بلعوم الطائر. فتتحرك معدته هو نفسه إعلاناً عن جوعها.

يحدق الطائر في إبهام رجله، فيتساءل إن كان يهم بنقره. يجلس في سكون تام في عملية إغراء للطائر، بينما يداه إلى جانبه في استعداد لكسر رقبته بلونيها الأبيض والأسود. يرفع الطائر رأسه، ويحدق في وجهه بطمع، ثم يدور على أعقابه ويقفز مبتعداً.

تستقر الشمس فوق صفحة الماء، في حين يشتد الجوع في أمعائه مثل مدّ غاضب، فيحاول تذكر آخر مرة تناول فيها طعاماً. هل قدمت له بادميني قضمة من حلوى القطن؟

يقترب منه صبي: «هل تريد بعض السرطانات البحرية؟» يسأله ممسكا بدلوٍ ذي لون أصفر فاقع به مسحاة ألعاب. ويلاحظ ارتداء الفتى لسروال سباحة مخطط بالنايلون الأحمر بدا له باهظ الثمن.

يشرح الصبي: «أمسكتُ الكثير منها، وأخبرتني أمي أنّ بإمكاننا حمل واحدة منها فقط معنا إلى البيت. هل تريد بقيتها؟» يحرك المسحاة داخل الدلو، فيسمع فيشنو صوت محتوياته تصطدم بالجدران.

«ما حجمها؟» يسأل ناظراً بريبة إلى الدلو.

«أوه، إنها من جميع الأحجام،» يرد الفتى وهو ينزل الدلو ليرى فيشنو محتوياته. «هل ترى هذه؟» ويشير بمسحاته نحو أكبرها حجماً، التي لم يكن عرضها سوى بضع بوصات، «هذه الوحيدة الكبيرة من بينها، وسأضيفها إلى صندوق مقتنياتي البحرية».

يهز فيشنو رأسه متمتماً بالرفض فيقف الصبي في مكانه وقد فوجئ، «من الأفضل أن تأخذها ـ ستكون مناسبة لتربيتها، بالإضافة إلى أنني أمضيت كل العشية في البحث عنها». كانت نبرته تحمل إحساساً بالإهانة.

« اغرب عن وجهي،» يهسّ في وجهه، «لا أريد سرطاناتك، فهي صغيرة جداً»!

يركض الصبي نحو رجل وامرأة يرتديان ملابس سباحة أيضاً، ويصيح: «أمي، يقول الرجل أن سرطاناتي صغيرة جداً»! فيلتفت فيشنو بعيداً.

عندما يلتفت مجدداً يرى الصبي يفرغ محتويات الدلو في حفرة في الرمال، ثم يراقبه وهو يفرد طوله ليركض خلف الزوجين، في حين يتأرجح الدلو إلى جانبه.

تشتد عقدة الجوع في معدته وتسبح مخيلته بعيداً. فجأة يرى بادميني تظهر عليه من وسط الماء، وتسير نحوه فوق الرمال الندية. كانت قطرات الماء تسقط من شعرها، وبين يديها طبق مليء بالأسماك. تصير الشمس ضبابية وتميل بغرابة إلى الجانب، فيتساءل إن كان عليه الذهاب إلى الحفرة ليرى إن كان الصبي قد رمى السرطان الكبير أيضاً.

يسمع صيحة علوية وتصطفق أجنحة فوق رأسه، فينظر ليرى شكلاً ضبابياً لريش بني زيتي. يدور النورس مرة ثم يحط على الأرض ويقفز نحو الحفرة جاثماً حولها وممسكاً بالحافة المبتلة بمخالبه.

يميل النورس للأمام باحثاً في عمق الحفرة ثم يعتدل من جديد، باستطاعته أن يراه يرفرف بجناحيه ومخالبه على جانبي منقاره. في النهاية يقفز خارج الحفرة ويستدير نحو فيشنو فيحدق فيه للحظة، ثم يفرد جناحيه. يرقبه أثناء إقلاع رجليه عن الأرض ثم يرى الجسم يصعد في الجو، في حين يستدير الرأس بكسل نحو البحر. يتتبع أثر الطائر بعد قيامه بنصف دورة، وفي أثناء طيرانه في السماء، إلى أن يبدأ في الاتجاه نحو الشمس التي يبتلعه وهجها.

الثالث

كانت السيدة جيسوال تمارس الغش مرة أخرى، وكالعادة ليس لدي السيدة باتاك ما يمكن أن تفعله حيال ذلك إلا إن كانت مستعدة لتحمّل إقصائها من عالم حفلات البوكر مثلما حدث للمسكينة السيدة باوا. فالمشهد لايزال حياً في ذاكرتها - كانت المرة الأخيرة التي يرون فيها السيدة باوا المنحوسة، وهي التي لم تتهم السيدة جيسوال مباشرة، ولم تقل أكثر من: «يبدو أنك تحصلين على الكثير الكثير الكثير من الأوراق الرابحة هذا اليوم».

ثلاثية «الكثير» هي ما قضت عليها بالكامل - فلم يكن باستطاعتها التفوه بجملة أشد وطأة حتى لو أخرجت ثلاث ورقات آس من صدر السيدة جيسوال، وألقت بها في وجهها.

« هل تلمّحين: إلى أنني لا أحصل على هذا الكثير الكثير الكثير من الأوراق الرابحة، لمجرد حسن حظي»؟

البرودة التي سادت المكان كانت من الوضوح بحيث ضمت النساء سواريهن فوق مناكبهن. وحتى السيدة ميرشانداني الموجودة في المطبخ أحست بها، فهرعت إلى الغرفة كي لا تفوتها كلمة.

ربما كان بإمكان السيدة باوا النفاذ بجلدها لو أنها من الذكاء لتتفطن إلى خطورة موقفها، أو أنها من المهارة لتعلن أنها كانت تمازحها فقط. لكنها فسّرت الصمت كتشجيع لها للاستمرار في موقفها، «لديك الكثير من الحظ الجيد - ففي الأسبوع الأخير كان لك ثلاث ثلاثيات من الملكات مقابل التسعة والعشرة والولد - لا بد أن شيئاً ما تتناولينه هو ما يتحفك بهذا الحظ البديع في كل مرة». ضحكت بعصبية ونظرت من حولها بحثاً عن مساندة، لكن أياً منهن لم تنظر في عينيها.

«لم أر قط مثل هذا الحظ الكثير الكثير لشخص بعينه». ضحكت مرة أخرى، لكن بعصبية هذه المرة.

« يبدو إذاً أنك لم تمارسي اللعب لمدة طويلة» قالت السيدة جيسوال، وفهم كل من في الغرفة، عدا السيدة باوا ما عنته هذه الكلمات من تحريم لممارستها للعب الورق في المستقبل، لأنها تسيطر فعلياً على حفلات البوكر المهمة كافة في المدينة، وليس بمقدور من ترغب منهن الاستمرار في اللعب أن تتحداها.

أسرّت السيدة باتاك في نفسها، كم مسكينة هي السيدة باوا، فقد بدت لها منزعجة للغاية عندما هاتفتها فيما بعد، «اليوم فقط، أرسلتْ لي المبلغ بالضبط الذي أسهمت به في صندوق اللعب! ولم تعد السيدة دووش ترغب بأن أستمر في مجموعتها، إذ تقول إن أختها انتقلت إلى المدينة وتريد إعطاءها مكاني».

حينذاك أصدرت السيدة باتاك صوتاً يشبه القرق تعاطفاً معها، لكنها عضت الآن على لسانها بينما تقوم السيدة جيسوال بالتقاط الأوراق النقدية من فئة روبيتين من فوق قطعة قماش على الأرضية، ونسبة لا بأس بها من هذه النقود كانت في حوزتها منذ دقائق قليلة. «كنتُ متأكدة أنني سأخسرُ أيضاً، فالسيدة باتاك تحصل على أوراق عالية القيمة، أما أنا فلا أتحصل إلا على تسلسلات صغيرة».

اختفت آخر الأوراق النقدية في الحقيبة السوداء التي تحتفظ بها دائماً إلى جانبها، والتي أيقنت السيدة باتاك أنها تحوي سرّ حظها الممتاز وغير الطبيعي. راقبتها عند دسّها الحقيبة بين ثنايا ساريها، وتخيلت نفسها وهي تنتزعها منها لتفرغ محتوياتها التي تدينها فوق قماش الطاولة.

اتخذت الحفلة مساراً كارثياً منذ البداية، فلم تظهر عربة الإسعاف التي طلبها السيدان باتاك وآسراني. وعند الواحدة والنصف حين لم تتبق إلا ساعة على وصول الضيوف، أرسلت مسرعة في طلب الجامدارني لتنظف القذارة المحيطة بفيشنو. لم تصدق نفسها عندما طلبت الشغالة ثلاثين روبية! ثلاثين! يا لوقاحة هذه المرأة حين

تستغلها وهي في هذه الظرف! وتطلّب الأمر منها استعمال كل مهارتها في المساومة لتخفيض المبلغ إلى عشرين بالإضافة إلى إعطائها طبق السلطة الروسية (حاولت إقناعها بأن المايونيز وحده يساوي خمس روبيات لكن لسوء الحظ لم تكن الشغالة تعرف المايونيز أصلاً).

بعد التنظيف لم يتوافر لها ما يكفي من الوقت لارتداء ملابس مناسبة لاستقبال السيدة جيسوال. فلم تعثر على أقراطها التي تتوافق مع اللؤلؤ الذي ترتديه، واضطرت إلى وضع أقراط خضراء غير ملائمة («يا لروعة الأقراط التي ترتديها السيدة باتاك». لاحظت السيدة جيسوال بصوت عال بين لعبتين. «لا بد أنها أقراط تجلب الحظ، وهو ما يجعلها ترتديها مع هذا العقد الأبيض»). وقبل وصول الضيوف بدقائق تذكرت فيشنو من جديد فأخرجت ملاءة كانت تعتزم تقديمها للشغالة في عيد الديفالي (لكن من المؤكد ليس الآن) وأرسلت بها زوجها إلى البسطة لتغطيته بأفضل ما يمكنه، صائحة خلفه في أثناء نزوله: «اجعل الأمر يبدو طبيعياً! أريد الناس أن يعتقدوا أنه نائم، وليس غير ذلك».

لكن ذلك لم يجد نفعاً. فأول ما تفوهت به السيدة جيسوال عند دخولها هو، «لو عرفت أنني سأعثر على رجل ميت على درجكم ما أتيت! وفي يوم السبت بالذات! يا له من نذير شؤم»!

«أوه، هذا فيشنو إنه سكران فقط. إنها عادته ـ ولا يمكننا في الواقع القيام بأي شيء».

«سكران؟ لديكم سكارى على درج بنايتكم؟ أي نوع من البنايات أحضرتنا إليه، هذا الذي يوجد فيه السكارى على الدرج»؟

« إنه غير مؤذٍ»، حاولت أن توضح لهن لكن السيدة ميرشانداني بدأت تشكو من أنّ فيشنو اندفع نحوها عندما كانت تجتازه، أما السيدة غانيش فأعلنت أنه أمسك قدمها، ولم يهدأ من جديد إلا عند رؤية صندوق النقود الذي أتت به السيدة باتاك على وجه السرعة يتأرجح أمامهن.

ما قامت به السيدة جيسوال يُعدّ دليلاً على امتعاضها الفعلي عندما لم توكل إلى المضيفة سحب اسم الرابح الأسبوعي كما جرت العادة، وكلفت السيدة ميرشانداني بدلاً منها، التي تقوم الآن بالتودد إليها واستجدائها لتخبرهم بقصة قدومها لبومباي خلال شهر عسلها، وقصة اكتشافها من جانب أحد منتجي الأفلام، واشتراكها في تمثيل ثلاثة منها، «أخبرينا مرة أخرى يا شيلا، ألم يحصد أحدها الجائزة الفضية»؟

«في الواقع، اثنان منها حصلا على الجائزة، واسألي من تريدين، فكان يمكن أن يحصل فيلم هاسينا الجميلة على الجائزة الذهبية، لو أن حركة التحرر لم تنطلق بتلك القوة».

بدأت السيدة جيسوال اللعب، وكانت خطوط الحناء ظاهرة على شعرها الذي صففته في محل التجميل، كما استمرت في تعديل وضعية مشبك الماس في أنفها. «قالوا لو أنني استمررت في التمثيل لأصبحت مينا كوماري الثانية». فقاومت السيدة باتاك رغبتها في التعليق بأن مينا كوماري ماتت منذ سنتين على الأقل.

فجأة بدأت السيدة باتاك تحس بحكة في راحة يدها اليمنى، وحاولت تجاهلها لأنها علامة سوء تنذر بخسارتها للمزيد من النقود. عندما كانت طفلة صغيرة طالما دعتها أمها «الفتاة المحظوظة»؛ أي المقدّر لها أن تتزوج من الأغنياء، وأن يكون لها بيت وسيارة. وبدلاً من ذلك، ها هي في الثالثة والأربعين من عمرها، لها ولدان (أحدهما أخفق في سنته الأولى في جامعة سوماني)، وتعيش في شقة من غرفتين فقط، لا تملك حتى مطبخها الخاص بها، وتحاول التأثير على هذه المرأة التي تغطي خطوط الحناء البرتقالية شعرها وماتزال تظن أنها نجمة سينمائية. تدلت الأقراط باخضرار من أذني السيدة باتاك وازدادت حدة الحكة في راحتها، لكن مع ذلك امتنعت عن هرشها.

منذ قدومهم إلى بومباي، تاقت نفسها لارتقاء المكانة التي وعدتها بها أمها. وتطلب الأمر منها جهداً كبيراً للوصول إلى هذا الحد - السعي لصداقات بعضهم ومداهنة بعضهم الآخر، وأن تضخم من مركز عائلتها ومن وظيفة زوجها، وأن تضيّع عدة مئات من الروبيات هي في أمسّ الحاجة إليها. الآن، وبعد أن تحصلت على الاعتراف في محيط

حفلات البوكر بصفتها إحدى من يمكنهن استضافة الحفلات، فما هي خطوتها التالية؟ هل ستقيم حفلتها الخاصة بها؟ أتحاول أخذ زمام السيطرة من هذه المرأة؟ نظرت إلى السيدة جيسوال التي كانت تستعرض الحاشية الحريرية الذهبية - الزرقاء لساريها، أمام المحيطات بها، فما كان منها إلا أن هرشت راحتها من دون وعي منها. لن تكون على الإطلاق في مثل غناها وسطوتها (أو حتى بنفس ما تتمتع به من تناسق في الأداء العام). ولن يمكنها أبداً أن تصبح هي، فما الفائدة إذاً؟

لكن ليس هذا وقت الشفقة على النفس. فهناك شيء تستطيع القيام به، نعم شيء واحد ستقوم به - وهو أن تجعل «تاكوس» السيدة جيسوال التي قدمتها الأسبوع الماضي تبدو مثل شيء تافه، وهكذا ذهبت إلى الغرفة المجاورة لترتيب سفرتها. بعد تحلل مكونات طبق السامبوسا توجهت مباشرة إلى الخزانة الحديدية في غرفة النوم حيث تحتفظ بكل مقتنياتها الثمينة، ونقبت تحت كومة من أردية الساري البانا راسية، فأمسكت أصابعها بحافظة معدنية. جذبتها إليها ممعنة النظر فيها - «كرافت» تقول الحروف المرسومة عليها بفخر، والملونة بالأحمر والأصفر على خلفية انحناء حافة العلبة باللون الأزرق البراق، فتكاد تعلن أنها «مستوردة» بل تصرخ بالفعل أنها «أمريكية» (في الواقع أليس الأزرق والأحمر هما لوني العلم الأميركي؟) واحتفظت بها منذ أن أحضرتها ابنة عمة لها من الخارج - وإن كان هناك وقت مناسب لاستخدامها فهو الآن.

فتحت العلبة ونظرت إلى الجبن بداخلها - بالتأكيد لونه برتقالي أكثر، وأفضل شكلاً من جبن أمول الأصفر الباهت الذي اعتادت شراءه. وعليه، فقد قررت تقطيعه إلى مكعبات صغيرة وتقديمه لهن من العلبة مباشرة - من الأفضل ألا تستهين بهؤلاء العجائز اللواتي قد لا يعرفن الفرق بين جبن الكرافت وجبن البانير المحلي. فوجئت بأن مذاقه كان مخيبا للآمال فلم تكن نكهته لاذعة، بل مثل مادة بلاستيكية، مثل شيء ملفوف في أوراق السولوفان، ومن دون نزع الغلاف أيضاً. لكن ليس هناك ما لا يمكن أن تعالجه خلطة بهارات التشتني، وربما يمكن إضافة بعض البازلاء المقلية أيضاً، ربما بعض الفلافل المقلية مع مسحوق الفلفل الحار - فهذا كفيل بتصحيح الأوضاع. وبينما كانت تقوم بطحن قرون الفلفل مع الكزبرة لإعداد خلطة الشتني، تساءلت عن الطريقة التي يفضل بها الأميركيون تناول جبن الكرافت.

رن جرس الباب في أثناء وضعها اللمسات الأخيرة لسفرتها. نظرت إلى الجبن المعدّ بدقة على هيئة مكعبات متناسقة، ثم إلى البازلاء والعدس اللذين يلمعان بما عليهما من بهارات، وكذلك إلى الصحن المملوء بخلطة الشتني الخضراء الداكنة. سمعت أصواتاً من الغرفة الأخرى، لكنها لم تستعجل ما هي بصدده، وأدارت العلبة بعناية إلى أن أصبحت العلامة التجارية عليها تواجه مقدمة السفرة. كانت ماتزال ترتب مكعبات الجبن عندما اقتحمت السيدة ميرشانداني الغرفة. «تعالي للباب بسرعة يا أوشا. فالإسعاف وله هنا، وجارتك تطالبك بدفع الأجرة».

« فيشنو، استيقظ!» تتناهى إليه الكلمات من بعيد فيفتح عينيه ليرى كافيتا تقف فوق رأسه في الظلام، «استيقظ يا فيشنو! ألم يأت سليم بعد؟» ببطء تذكّر ما حدث، إنها الليلة التي غلبه فيها النعاس انتظاراً لعودتها.

«ليس بعد يا ممصاحب».

«ليس بعد؟» تقطب جبينها، «أخبره إذاً إنني أنتظره فوق السطح، وهذه المرة سأكون بالقرب من الباب تماماً، ربما فوق بسطة السيد تانيغا ـ كاد أمرنا أن يكتشف في المرة الأخيرة فحذّرنا مرة أخرى إذا أتي أي شخص، هل يمكنك ذلك يا فيشنو؟» ثم تمد يدها وكأنما لتلامس خده، لكن أطراف أصابعها تتوقف قبل أن تلمسه مباشرة، وتلوح بيدها عوضاً عن ذلك.

بعد دقائق يهبط سليم من بيته، إنه الابن الوحيد لعائلة جلال، ويتساءل فيشنو عن سبب اختيار كافيتا لهذا الفتى المسلم، ولماذا تغامرُ بصبّ جام غضب والديها عليها من أجل رؤيته. يسقط ضوء القمر على شعر الفتى فيبدو بلون الفضة، ولوهلة يتخيل فيشنو نفسه مكانه. لكن في هذه اللحظة يقع الضوء على وجه الفتى ويكشف عما يتمتع به شبابه من تألق؛ فالعينان داكنتان يشع منهما الإخلاص، ويبدو أن كافيتا ترمي بنفسها آلاف المرات في بحرهما، والشفتان ممتلئتان تعبران عن براءة، لا بد وأنها تتوق بشدة إلى عصر حلاوتهما في فمها، أما البشرة فمتألقة شديدة البياض، وقد تكون لمستها هي الحياة نفسها، هنا تنتاب فيشنو حالة من الوضاعة تجاه ما يتمتع به الفتى من جمال.

« إنها فوق، تنتظرك عند مدخل السطح».

يفترّ ثغر سليم عن ابتسامة، فيعمّ النور جدران البسطة، ويتخيل كافيتا وهي تفكر في هذه الابتسامة طوال اليوم منتظرة هبوط الظلام لتتمكن من الاقتراب أكثر من إشراقتها. ثم ينتظرُ حتى تلاشى وقع خطوات الفتى، فيرمي عنه الغطاء مقتفياً أثره.

يصعد فيشنو الدرج أعلى بسطة السيد تانيغا، فلا يجد أحداً عند مدخل السطح، ويقوده مستطيل من الضوء الساقط على الأرضية للدخول عبر الباب المفتوح إلى ما بعده من ظلمة، ثم يقف داخل الباب وتتسارع دقات قلبه.

يبدو له السطح بلون أبيض وخالياً، يشاهد قميصاً ممزقاً يتلاعب به نسيم الليل على حبل الغسيل، كما يرى الهوائيات منتصبة على الحاجز الخارجي مثل مجموعة من الحراس تحمي المكان، وخلفها يظهر البحر بقمم أمواجه البيضاء تنزلق بصمت على سطحه، أما القمر فيبدو له قريباً بشكل غير طبيعي وكأنه وجهٌ ضُغط فبدا مستوياً على نافذة ضخمة.

للمرة الثانية يخطئ فيشنو رؤية قميص كافيتا الأحمر، لكن في الثالثة يشاهد إحدى الزوايا بين صفوف من صناديق المشروب الفارغة، فيحني جسمه ويتحرك بصمت فوق السطح المغطى بالضوء، منتقلاً إلى ظلمة الظلال في النهاية البعيدة. باستطاعته الآن رؤيتهما من هذا المكان، كانا يستلقيان بين الصناديق ويضمان بعضهما بقوة.

يقول سليم مشيراً إلى السماء: «هل ترين ذلك النجم الكبير التي يومض هناك؟ عندما أحملك بعيداً، سأقتفي أثر هذا النجم، ونترقب إلى أين سيأخذنا».

تقهقه كافيتا: «ليس هذا بنجم وإنما طائرة، ولا تظنن أنني سأفر مع شخص لا يمكنه التفريق بين نجم وطائرة».

يهمس وهو يسند رأسه إلى كتفها: «الأفضل لو كان طائرة، لأطير بك بعيداً فيها».

تشدّ رأسه إلى قميصها، ويرى فيشنو شفتيه يلامسان جسدها واحمرار لسانه يلامس بياض نهديها فتلمع ومضات من ضوء القمر على خلفية بياض الجسد الذي تعرى المزيد منه، فيتنقل

لسان الفتى متلهفاً، ويلمع أثر البلل خيوطا فضية فوق منطقة الصدر حتى عنقها، تئن الفتاة وتتلوى وتدق بقدمها فتصيب كدساً من الصناديق التي تسقط محدثة ضجيجاً. يحدق فيشنو في المشهد، غير قادرٍ على افتكاك نفسه من أسره، مستمراً في التلصص، وشاعراً أن القمر يتلصص عليهما مثله.

تنتابه حالة من الغيرة، فيتخيل نفسه وهو يجذب سليم عنها ملقياً به من فوق الحاجز، فيمسك الفتى بإحدى الهوائيات لكنها تتكسر وتهوي معه إلى الأسفل. تركض كافيتا صارخة وتحاول القفز من فوق الحاجز أيضاً، لكنه يمسك بها من تنورتها ويجذبها معه إلى الأرض. في هذه اللحظة تصرخ بحزن وهو ينزل بجسمه معها ويشعر باستدارة صدرها واكتنازه ضاغطاً نحوه مع كل صرخة. ثم يشعر بصلابة فخديها وهو يجذب عنها الرداء، وعند ذلك يدفن وجهه في ثنايا عنقها ويترك عبقها يطغى على أحاسيسه؛ تزحف أصابعه بطمع حول جسدها ويغطي فمها بشفتيه اللتين طال انتظارهما.

يرمقهما من جديد وهما مستلقيان في احتضان. العيون مغمضة، والوجوه مرقطة بضياء القمر. يبدوان في حال سلام مطلق وفي منتهى الراحة بحيث يمكنه الوقوف فوق رأسيهما دون أن يلاحظا ذلك. ثم ينتصب واقفاً في الظلال ويشعر بأن سرعة الرياح قد ازدادت وأن الأمواج التي كانت تمسح الخليج تقوم بالمهمة الآن بعزم أشد، واعتقد أن بإمكانه أن يشعر في الليل بصقيع الشتاء المقترب.

يستدير عائداً من خلال الباب، يهبط الدرجات ببطء واحدة إثر الأخرى. وتغطي غيمة وجه القمر فتتسرب الظلمة إلى أسفل الدرج الملتوي إلى أن تشعر قدماه بحجارة البسطة المعهودة لديه، فيتهاوى على الأرض. يجلس هناك محاطاً بالظلمة، تاركاً إياها تغطي عالمه وتطرد كل ما فيه من أفكار.

* *

بينما كانت السيدة باتاك تخاصم السيدة آسراني، والسيد باتاك يحاول تجنب نظرات السيد آسراني المشوبة بالإدانة، وقف الإسعاف وله مراقباً في صمت وقد تصلب جسمه من الغضب.

«كيف تجرؤين على مقاطعة حفلتي»! صاحت مشيرة بطرف ساريها في اتهام نحو السيدة آسراني، «فزوجك هو من استدعى الإسعاف»! وكانت أقراطها تتأرجح في الهواء مع هزها الغاضب لرأسها.

«كاذبة»! صاحت الجارة مطلقة الكلمة المثقلة بالغضب والقناعة التامة في نفسها. «إنه زوجك! ولا تظني أنني لا أعرف ما تفعلين بقشدتي»!

«أنت الكاذبة! وأنت اللصة! مع كل هذا الماء الذي تختلسين - استحمي ما شئت، ولكن لن تتمكني من التخلص من القذارة التي تغطي وجهك»!

«لصة، لصة! سألقنك درساً أيتها اللصة!» ثم التفتت إلى المشاركات في الحفل اللاتي ملأن صحونهن وأتين بها للوقوف على مجريات المعركة. «أنتن، أيتها النساء بهذا الطعام الملتصق بأصابعكن ووجوهكن. إنه مقلي بأكمله في قشدة مسروقة، والآن كيف ترين مذاقه»؟

«لا»! صاحت السيدة جيسوال التي كانت سريعة في الاستنجاد بمواهبها التمثيلية، وسمحت لأصابعها المصدومة بإطلاق الصحن المسمّم، ثم راقبته بعيون واسعة وهو يتكسر على الأرض في اصطدام أشعرها بالرضا، وأرسل حبات البقول في أنحاء المكان، ثم حاولت السيدة ميرشانداني القيام بالحركة نفسها، لكنها بدلاً من ذلك، ولقلة خبرتها أمالت الطبق إلى الداخل مرسلة قطع الجبن في ثنايا ساريها ولم تعثر على بعضها (وتأكله) إلا بعد عودتها إلى بيتها.

قذفت السيدة باتاك نفسها نحو السيدة آسراني، لكن الإسعاف وله الذي وضع نفسه بين المرأتين أوقف حركتها صائحاً: «لا أريد المزيد من هذا! كم ساعة يجب أن ينتظركما السائق في الطريق. فكما تعرفون لستم الوحيدين الذين لديهم مريض في بومباي. أريد مائتين وخمس وثلاثين روبية الآن! أو أستدعي الشرطة لكم جميعاً». ثم خبط راحتيه على ركبتيه ليؤكد أقواله.

«تنادي الشرطة لنا جميعاً»؟ قالت السيدة جيسوال في تعجب من خلف ظهره، «هذا منطق فاسد! فنحن حتى لا نقيم هنا! لقد سمعت ما يكفي من هذه الترهات ـ هيا نذهب يا سيدات». لكن الإسعاف وله فرد يديه مغلقاً مدخل الدرج. «أريد نقودي أولاً ولن يغادر أحد قبل الحصول على نقودي».

بشكل غريزي تقدمت السيدة جيسوال لتحديه، لكن السيدة ميرشانداني أوقفتها صائحة: «إنه يحتفظ بنا رهائن، يا شيلا!» ثم التفتت بوجه محتقن لتشرح الوضع بحزن للأخريات: «لم تدفع له السيدة باتاك، ولهذا يحتفظ بنا رهائن».

«ادفعي له على الفور يا أوشا»!

« أدفعُ له! أنت من يجب أن يدفع له أيتها المخادعة! تسرقين نقود الجميع أسبوعاً بعد الآخر، وترصينها في حقيبتك السوداء، تعتقدين أن أحداً لن يراك؟ دعينا نلقي نظرة بداخلها، نريد أن نعرف ماذا أسبغت عليك لاكشمي من حظ خاص، حتى الإسعاف وله يريد أن يعرف...» أمسكت سير الحقيبة محاولة افتكاكها من ذراع صاحبتها، لكن السير انقطع وبقي في يدها فحدقت بذهول في السير الذي في قبضتها، وبدا أن كل روح العراك قد فارقتها.

«كيف تجرؤين»! نطقت السيدة جيسوال بما يشبه الفحيح وهي تسترد السير من يدها المرتخية. «كيف تجرؤين!» كررت الفحيح فرمشت الأخرى عينيها وكأنها توقعت أن تضربها السيدة جيسوال بالسير، لكن كل ما فعلته هو فتح حقيبتها ولف السير المقطوع ووضعه فيها.

«لمعلوماتك، ليس لدي ما أخفيه في حقيبتي»، قالت وهي تفتحُ ذلك الجيب كي يراه الجميع، ومدت السيدة ميرشانداني يداً لسبر غور الجيب لكن نظرة رهيبة من صاحبة الحقيبة أوقفتها عن الاستمرار. أما السيدة غانيش فكان لديها فضول لمعرفة ما تحويه الجيوب الأخرى لكنها لم تجرؤ على قول شيء.

«والآن هل يمكننا المغادرة؟» قالت السيدة جيسوال، فهزت النساء رؤوسهن سوية. كان

الإسعاف وله على وشك القول إنه لن يتركهن يمررن، لكنه أنزل ذراعيه في استسلام عندما اقترب منه رتل النساء.

«لمَ لا يدفع لي أتعابي شخص ما»؟ صاح الرجل بأنين، بينما كانت النساء يمررن بجانبه لهبوط الدرج.

وقعت عينا السيدة باتاك على قطعة جبن هرسها حذاء السيدة جيسوال، فالتقطتها متمعنة فيها فوق راحتها وكأنما تنظر إلى طائر مصاب في حاجة للعناية به كي يتعافى. «ادفع له»، قالت لزوجها بصوت خالٍ من الانفعال، في حين كانت أصابعها تحاول تغيير قطعة الجبن إلى شكل مكعب.

وهنا تدخل الإسعاف وله: «استمع إلى زوجتك فقط، وادفع لي»

نظر الزوج من وراء نظارته بحدة صوب السيد آسراني الذي بدأ يتحرك متململاً في مكانه.

«في الواقع»، بدأ يتلعثم ووجهه يحتقن في أثناء تحديقه في قدمي زوجته. «في الواقع، فقد سألني السيد باتاك المساعدة في طلب الإسعاف». رفع بصره ليرى رد فعلها ثم خفضه مسرعاً من جديد. «كيف يمكن أن أرفض، فقد ناداني بينما كنت في طريقي للمعبد، واضطررت إلى إعطاء اسمي أيضاً لعربة الإسعاف». غصّ صوته كأنه اكتشف لتوّه أن بقية من ذلك البسكويت قد سكنت في بلعومه.

توجهت السيدة آسراني إلى داخل شقتها من دون قول شيء، ثم ظهرت بعد لحظات ملقية بعض الأوراق النقدية، وقطعة معدنية بقيمة خمسين بياسا في يد الإسعاف وله، قائلة له دون أن تنظر إلى آل باتاك أو إلى زوجها: «هذه حصتنا من المبلغ».

دفع السيد باتاك النصف المتبقي مع توجيه صارم: «والآن، انزل هناك واحمله بعيداً».

«سأحمله، لكن عليكم أولاً توقيع هذه الورقة»، وأخرج من جيبه نموذجاً مطبوعاً، فنظر إليه السيد باتاك بريبة.

«حسنٌ، إما أنت أو تلك السيدة، يجب على أحد ما أن يوقعه... يجب على أحدهم الموافقة على دفع أتعاب المستشفى عند إدخاله إليه».

* *

عاد الأحمر من جديد، وبإمكانه سماع أصوات خلف ذلك اللون، كانت تعلو وتهبط، واللون يبرز كلما حاولت الأصوات أن تشق طريقها. ينتشر الأحمر مثل منطاد ثم ينفجر، وبعدها تنساب الأصوات. ويسمع فيشنو السيدتين باتاك وآسراني، وكلتاهما غاضبتان.

وبينما يحوم هو فوق الجميع، يتعرف إلى صوت أمه، فيتخلص من الأصوات الأخرى كافة، ويركز على صوتها فقط.

«جميعنا نبدأ الحياة كحشرات»، تقول الأم، «كل واحد منا، لهذا توجد الحشرات بأعداد تفوق أعداد البشر». يتعرف إلى هذه الكلمات - إنها قصة اليوغي؛ الروح يوغي المسمى جييف، الذي يولد تسعمائة وتسعين ألف مرة، فهي قصة تمتد طوال الفترة من ماضي جييف وخلال كل تجسداته في المستقبل.

«بدأ جييف كحشرة صغيرة في منتهى الصغر، فكان أقل حجماً من بذرة شجرة موز، وبصفته في طور الحشرة فإنه بطبيعة الحال لم يصبح يوغي بعد. لكن حتى في ذلك الوقت، كان جانب منه يعرف أن هناك شيئاً يمكن التطلع إليه يفوق كونه مجرد حشرة».

تبدأ السيدة باتاك الصراخ في وجه السيدة آسراني، وهناك خطورة في ضياع قصة صعود اليوغي. كان يرغب في سماع أفضل تجسداته على الإطلاق - عندما يولد جييف على هيئة خنزير ويقوم بإنقاذ طفل؛ والتجسد الثاني عندما كان ثوراً يُعاملُ بقسوة إلى أن يشعل النار في صاحبه. «مرّ اليوغي بحيوات كثيرة قبل أن يصل إلى الطور البشري، وسقط مرات عديدة إلى حيث بدأ، لكنه أخيراً وصل إلى المرحلة التالية - وأصبح بشراً مثلي ومثلك».

ذلك هو الجزء الذي يفضله فيشنو؛ أي حياة الغنى والاستمتاع التي تنتظر جييف. إنه العيد الذي تكون فيه كل حبة أرز مغمورة في الفضة، وحيث تصبح بذور ثمار الخوخ من الزمرّد؛ يتبعها الزواج من أميرة سونابور، حين يضم موكب الاحتفال ألف فيل يمتطيها نافخو المزامير.

«شيئاً فشيئاً، وحياةً بعد أخرى، يُشبع جييف روحه بمتع لا تحصى. وحينذاك فقط؛ أي عندما يروي ظمأه ويسكن جوعه تسمح له روحه بالتطلع إلى الأعلى من جديد، إلى مكان يتعدى حاجاته الشخصية، ويتخطى ذاته، حيث سيكون في وسعه خدمة غيره». يردد فيشنو القصة مع أمه فخوراً بمعرفته التامة لها.

هناك صوت اصطدام، وعويل أكثر حدة. كانت الضوضاء تظهر بشكل منتظم وتندفع أسفل الدرج كشلال يغمر البسطة، ترتطم أمواج صوتية بعنقه وتبدأ القصة في التفكك، حين تأخذ سنوات خدمة جييف في الاضمحلال، وسنوات الزهد والتطهر تذوي بعيداً. فيحاول جاهداً استعادة الخيط الذي يربطه بصوت أمه لكنه ينقطع وينطلق في يده خفيف الوزن وغير محمل بالكلام.

كل تلك الأصوات التي تأثر بها في حياته، كل نداء، وكل إهانة، وكل شتيمة تلقاها تنهال عليه جميعاً الآن. وقعُ الخطى على الدرج، وصدح الأغاني من الراديو، وضجيج أبواق السيارات في الشارع - ترتفع كل هذه الأصوات هنا وتزداد علواً في كل ثانية. وحتى رنين الخلاخيل تحول إلى أصوات ارتطام - وتعجّب كيف تتحول أصوات هذه الأجراس الصغيرة إلى مثل هذه الضوضاء.

يكتشف أن عليه الهروب من هذا الضجيج الذي عذبه فترة طويلة، والذي تولّد لحظة خروجه للحياة ذاتها، ثم تنامى بشكل غادر عبر السنين. هذا الضجيج الذي يعد ثمن كل تنفس قام به، وكلّ فعل، وكل حدث في حياته. هذا الضجيج الذي يغمره بالكامل متسلطاً على ذهنه، وملغياً أحاسيسه. وإذا ما تبقى لديه أي جهد مطلقاً، فعليه الهروب من هذا الضجيج.

بكل ما أوتي من إرادة يضغط فيشنو على الأرضية فيشعر بجذعه يرتفع، ثم بالأرضية تنبسط تحت قدميه، لكن جزءاً منه يظل على الأرض مستلقياً تحت الغطاء، وأمامه يظهر الدرج ويتلوى إلى الأعلى نحو الضوء.

مايزال الضجيج يأتيه من أعلى الدرج، فيرى أن الطريقة الوحيدة للهروب قد تكون الهبوط إلى تحت، ويدور حول نفسه فلا يرى الدرج الذي طالما كان يصله بالشارع تحت. فجأة تصبح البسطة متعاظمة الحجم، ممتدة في جميع الاتجاهات، وسط ظلمة أنيسة لديه.

يهبط رجل من أعلى الدرج، يلتف رباط أبيض بصليب أحمر فوق ذراعه الأيمن. لا يلحظ الرجل وجود فيشنو، لكنه يتجه إلى الهيئة القابعة تحت الغطاء، فيراه ينحني، ويجس نبض رسغه، ثم ينتصب ويهز رأسه. يحاول السير في أثر الرجل، لكنه يفقد أثره في مكان ما فوق البسطة.

يقف فيشنو أمام الدرج مقدراً اللحظة التي يتعين عليه فيها أن يصعد فوقه. يرفع إحدى قدميه متردداً ليضعها على الدرجة الأولى، فيبدو له الحجر بارداً وأملس عند ملامسة روحه له. لم يشعر بشيء لبعض الوقت ـ فقد كان الشعور مفاجئاً له، ومحبباً أيضا. يضغط بأصابع القدمين، ثم القوس، ثم الكعب ليشعر بملمس السطح بكل جزء من قدمه. يتساءل عما سيفعله بعد ذلك، فيضغط بقدمه الأخرى لكن شيئاً لا يحدث. ويحاول تذكر الآلية المعتادة لصعود الدرج ـ هل يتوجب عليه أن يثني ركبته أولاً؟ ويتذكر أن عليه النزول بثقل جسمه إلى الأمام، ثم فرد ركبته.

يندفع بجسمه إلى الأمام، ثم إلى الأعلى، فترتخي العضلة في ساقه، ثم تتخلى قدمه عن نقطة اتصالها بالبسطة، وترتفع في الهواء. هنا تختفي سطوة الجاذبية ويتملكه إحساس بالقدرة على السباحة في الهواء. إنه يقف الآن على الدرجة الأولي، ويشعر بقدرته على الطيران فوق بقية الدرج.

الرابـع

وقفت السيدة جلال في شرفة غرفتها بالطابق الثاني تراقب عربة الإسعاف وهي تغادر، وقالت من دون أن تسمح لنفسها بالتنفس: لا بد أنها من أجل فيشنو - وربما سيقوم آل باتاك وآل أسراني بإدخاله المستشفى. فعندما كانت في سن السادسة أرعبتها نفيسة بحكايات عن الجراثيم التي تطلقها عربات الإسعاف في الجو، وعن الأشخاص الذين يستنشقون تلك الجراثيم ويموتون بطرق شنيعة. لم تزل تحذيرات أختها تضغط على رئتيها كلما سمعت عويل تلك السيارات فانتظرت حتى وصول العربة إلى التقاطع البعيد قبل أن تسمح بكل حذر لأنفها بسحب عينة يسيرة من الهواء.

غاناغ القصيرة هي من أخبرها هذا الصباح عن فيشنو الذي يرتمي في غيبوبة فوق البسطة. لقد ساورتها الشكوك حول الخبر - فهل يكون مدّعياً المرض كما فعلها مرات من قبل؟ وقالت لغاناغ: «في آخر مرة حدث هذا الأمر، نقده السيد جلال عشر روبيات كي يتعافى».

«ليس كل شيء يمكن معالجته بهذه الطريقة يا ممصاحب، وربما سيوفر السيد جلال عشر روبيات هذه المرة»، قالت الغاناغ من دون أن ترفع نظرها وتتخلى عن التنظيف المحموم لقدر حديدي، مستخدمةً قطعة حبل.

أحست بخديها يشتعلان وأرادت أن تدافع عن نفسها وتعترض على ما حوته ملاحظة الغاناغ من ظلم. فكم مرة حضر فيشنو إلى باب شقتهم مريضاً بالفعل أو مدعياً المرض، وعندها ألم يغادرهم ومعه شيء ما؟ على الرغم من أنه لا يكاد يقوم لهم بأي أعمال مقارنةً مع ما يؤديه من أعمال لآل أسراني وآل باتاك. وعندما سرق سيارتهم - ماذا حدث حينها؟ لم يقوموا حتى بإبلاغ الشرطة عنه لينال ما يستحقه من جزاء.

«عند عودة السيد جلال إلى البيت، سأرسله تحت ليرى ما بوسعه أن يفعل».

لم تقدم غاناغ القصيرة جواباً، واستمرت في شطف القدر بالماء، وهي تحركه في حوض الغسيل بعنف غير مبرر، في حين تلوّى شعرها المعقود في ذيل حصان خلف ظهرها، وعندما انتهت من مهمتها سألت وهي تمسح حاجبيها بذراعها: «هل هناك شيء غيره تودين القيام به»؟

«كلا، لا شيء». وأحست بالذنب من دون أن تعرف لماذا. «انتظري، قطع الموز هذه لن يأكلها السيد جلال. ولن تصمد يوماً آخر ـ في هذا المكان ـ لتقديمها للأولاد»، ثم قطعت موزتين من المجموعة، ودفعت بهما إلى يدي المرأة.

قفزت إلى وجه الغاناغ نظرة ازدراء شديدة بانت واضحة في عينيها، فرُوّعت السيدة جلال للحظات، واعتقدت أنها ستعيد إليها ثمار الموز، لكنها في النهاية لفت طرف ساريها عليها وغادرت المكان.

سحبت مجموعة إضافية من الأنفاس الحذرة على سبيل التجربة، فهي ماتزال متخوفة من وجود العدوى في الجو المحيط بهم. ما نوع المرض الذي ألمّ بالجميع وجعلهم يتصرفون بغرابة؟ فغاناغ القصيرة تغادرها بهذه الطريقة، وسليم يمارس لعبة الغميضة مع تلك الفتاة الهندوسية في الطابق التحتي، وأخيراً، ثمة زوجها الذي لم تستطع فهم تصرفاته. استنشقت دفقة كبيرة من الهواء وأيقنت أنّه لا يحوي جواباً لأسئلتها، فعادت إلى المطبخ.

ظل ما تبقى من ثمار الموز على الطاولة، وأيقنت أنه ما كان عليها شراؤها من الأساس، فسليم لا يبقى في البيت مطلقاً، واستهلاك أحمد لكميات الطعام يقل كل يوم، أما هي فلطالما نفرت من طعمها الممجوج. لو أن الموز كان أقل كلفة لأعطت الكمية كلها فغاناغ. والآن تبقت ثلاث منها فقط، ومهمة التخلص منها تقع عليها وحدها. نزعت قشرة أكثر القطع اسوداداً، ثم قطعت الجزء العلوي ووضعته في فمها، جعلها نضجها الشديد تغص بها، لكنها استمرت في مضغ مكوناتها اللزجة بكل رزانة.

توصلت إلى قناعة بضرورة التخلص من سيطرة هاجس أحمد على كيانها، لكن يبدو أن أبخرة الموز أرسلت أفكارها نحو ذلك الاتجاه من جديد. ولم تصدق أنّ الأمور بدأت منذ أمد بعيد، مع صيام رمضان. كم كانت سعيدة حينذاك عندما قرر أحمد صوم الشهر كله معهم، بدلاً من صوم بعضه فقط. لقد أحست بالكرب الدائم لإخفاقه في القيام بدوره الصحيح فيما تمارسه العائلة من عبادات، وأخذت على عاتقها شهراً بعد آخر وسنة بعد أخرى أن تدفع الصدقات المفروضة عليهم، وأن تقوم بالترتيبات المناسبة لإحياء الأعياد واصطحاب سليم لأداء صلاة الجمعة في المسجد. وبعد إلحاح منها، قد يشاركها أحمد أحياناً عندما يحين وقت الصلاة، لكنه في أغلب الأحيان يغادر الغرفة وهو مستمر في قراءة كتابه كلما فردت سجادتها للصلاة. لقد حذرها أبوها، بل وكاد يرفض تزويجها له عندما علق بقوله: «يبدو أن أحمد جلال هذا قد قرأ الكثير من الكتب، وربما سيقوم يوماً ما بمحض الصدفة بقراءة القرآن أيضاً».

اكتشفت بسرعة بعد زواجها أن أباها كان مخطئاً في تقييمه لأحمد، فقد قرأ زوجها القرآن وفي الحقيقة قرأه بإجادة تامة، فبإمكانه استظهار سور وآيات منه عن ظهر قلب. لكن المشكلة تمثلت في أن اهتمامه بالدين يبدو قد توقف عند حد القراءة لا الممارسة. كان يصف الأمر بقوله: «الدين عبارة عن سيطرة على الفكر، وعملية إلهاء للجموع الغفيرة»، ثم يضيف من دون أن يرفع ناظريه عن كتابه، «ولستِ مستثناة منهم، يا حبيبتي»، عند ذلك تشعر بحمرة الخجل تطغى عليها بسبب الأسلوب السمج الذي يسخر به منها.

في بعض الليالي كان ينطلق في حديث متدفق ومسهب ذاكراً مقاطع كاملة من الكتاب المقدس، أو فقرة من كتاب دين صيني لم تفلح في تذكر عنوانه، ثم يقارن بين هذه الجمل وبعض آيات من القرآن وهو يقدر نقاط قوة كل منها وضعفه، غير عابئ بحقيقة أنها كانت تضع أصابعها على آذانها لمنع وصول أي تجديف على المقدسات. وأكثر ما أزعجها هو تلك الأوقات التي يأتي فيها بـ (الدين الإلهي) وهو كتاب توفيقي بين الإسلام والهندوسية كان قد وضعه إمبراطور المغول (أكبر) بغرض توحيد رعاياه. كان شيخهم يقول في مثل هذا الكتاب: «إن الدين الذي يأتي عن طريق شخص عادي، وليس عن نبي، غيرُ صالحٍ لأي إنسان».

وعلى الرغم من ذلك كان أحمد مؤيداً لهذا الاتجاه، وكان الإمبراطور أكبر بطلاً في نظره، فيقول متحيناً الفرصة للسخرية من سامعيه: «لقد تمكن أكبر من وضع الملالي في مكانهم الصحيح، وربما حان الوقت لإعطاء تلك التجربة فرصة أخرى ـ وأن نجبر الجميع من مسلمين وهندوس على التحول إليها. فكري في الأمر ـ سيكون هناك سلام ووئام فوري ـ وقد يضطر الملالي إلى السماح للآخرين بمشاركتهم مساجدهم، لكن ما العيب في ذلك»؟

دفعتها مثل هذه الأقوال للتساؤل: كم مرة يمكنها سماع المزيد منها قبل أن يصدر الحكم عليها بمرافقة زوجها إلى نار جهنم. وأخذت بعض المشاهد القرآنية تسيطر على أفكارها ـ صور أبي لهب والنيران تلتهمه بالكامل، ثم زوجته حمالة الحطب، وحبل من مسد مربوط إلى جيدها.

خلال الأسابيع الأولى من زواجهما أخذت تنصت بأقصى ما تملك من حلم إلى كل ما يقوله زوجها من دون إبداء أي تعليق. لكن سرعان ما تبين لها أنّ صمتها صار مدعاة لإطلاق تعبيرات غير مقبولة بشكل متزايد، وتخرج تلك التعبيرات فقط عندما ينجح في استدراجها إلى جدل ما. عند هذا الحد تحوّلت إلى المرحلة التالية؛ أي التي اعتقدت فيها أنها ستتمكن من تغييره، وأن المناقب الفعلية لمعتقدها ستسطع بقوّة وتطرد ما يهيمن على عقل زوجها من ظلال. لكنها وجدت نفسها غير مهيأة لمقارعة حنكته في الجدل ـ حدة كلماته والطريقة التي تنقض بها أفكاره عليها، وكذلك الطريقة التي يدير بها حبال أفكارها لتقع في شراك محيطة بها، ثم وهو ينظر إليها متسلياً في أثناء تعثرها ومحاولاتها تخليص نفسها. وأحست بأن أرضية عقيدتها لم تعد بالصلابة نفسها، كما أحست بخطورة السماح لنفسها بالاستمرار في هذه الطريق. عند هذا الحد استجمعت شجاعتها لتوجيه الإنذار ـ محرّمة عليه الحديث عن الدين في وجودها أو تتركه وتأخذ سليم معها.

بالطبع لم يضيّع جهداً في اتهامها بعدم الجدية، واستمر كعادته متجاهلاً تهديدها. إلى أن جاءت ليلة معينة وكان في غمرة حديث له عن المساواة بين الأديان، فما كان منها إلا أن التقطت سليم وهُرعت به أسفل الدرج إلى محطة سيارات الأجرة. وعلى الرغم من أنها عادت أدراجها بسرعة (نسيت أن تأخذ معها نقوداً لعربة الأجرة) لكنها نجحت في لفت انتباه زوجها الذي أبدى غضباً شديداً في البداية عندما صنفها، بانعدام الثقافة، وأنها متخلفة متعصبة تعرضت إلى غسل الدماغ. ثم حاول مناشدة تفتح عقلها وحس الإنصاف لديها، وحجته أن بإمكان الرجل طرق أي موضوع مع زوجته، وأن ما يصدر عنه هو كلام فقط وليس أفعالاً، فما الضرر الذي يمثله ذلك؟ لكنها تمسكت بموقفها وكانت تغادر الغرفة كلما طرح هذا الموضوع، ثم تذهب إلى سرير سليم تضم ابنها إلى صدرها لتبعد من جديد هذا التهديد الموجه إليها. لكن سرعان ما تخلى أحمد عن أسلوبه في التعامل معها وولت إلى غير رجعة تلك الخطب والمحادثات الليلية.

تطلّب الأمر عدة أسابيع قبل أن تخف حدّة الزوج، لكن في الوقت نفسه تسلل قدرٌ من الجفاء إلى علاقته بها، وهو نوع من المواقف الحذرة التي يمكن إدراكها حسياً، وتحوّل مع مرّ السنين إلى شكل من القطيعة بينهما. خلال تلك الفترة بدأ يمر بمراحل تشوبها طبيعة متكتمة ـ مثل أن يركن إلى نفسه أياماً وأسابيع متوالية ويخفي عنها أموراً كثيرة. وتذكرت ليلة بعينها، ليست بعيدة، عندما رفض السماح لها بأن تلقي نظرة على ظهره رغم تمكنها من رؤية بقعة دم تظهر من خلال منامته. وعلى الرغم من ذلك، فعادة ما كانت الأسرار التي حاول الاحتفاظ بها لنفسه غير ضارة ومن السهل توقعها، أما هي، فتحاول من جانبها ألا تبدي إلا القدر الكافي من حالة الانبهار أو الرهبة تجاه تصرفاته، لتبين له أنها لم تلاحظ شيئاً. لكن ما أزعجها أكثر، وهو الأمر الذي ألقت فيه باللوم على نفسها، تدني مستوى التزامه بأداء طقوس العبادات. راقبته في صمت عاجز والتزامه بالصلاة يقل شهراً بعد آخر، وبدأ يتلاعب بفترات الصيام التي كان يحافظ عليه في الماضي، كما توقف عن الذهاب إلى المسجد نهائياً. الأكثر إزعاجا بالنسبة إليها هو حقيقة أن سليم بدأ يتحول ليصبح مثل أبيه مع مرور الوقت، فروّضت نفسها على ممارسة شعائر دينها على انفراد، بعد إخفاقها في إشراك عائلتها في هذا الجانب من حياتها.

وهكذا، فوجئت السيدة جلال وصارت دهشتها عظيمة عندما بدأ أحمد في الالتزام الكامل بالصيام في رمضان هذا العام. ربما رجع عن غيّه، وربما سيتحول ليصبح مثل غيره من الآباء والأزواج، بل ربما لايزال هناك وقت للتأثير على سليم. كانت تستيقظ قبل الفجر في كل يوم لتعد طبق البطاطا بالكركم، وخبز البوري المقلي الطازج لتقديمهما على مائدة الإفطار، كما كانت تجلس في الشرفة مع أحمد كل مساء انتظاراً لغروب الشمس. تقوم بمشترياتها يومياً لتعد له أطباقه المفضلة، مقدمة له بيديها اللقمة الأولى من الكباب الضاني، أو برياني الدجاج، وقد منحها كل ذلك إحساساً بتحقق أمانيها. وأحست بالراحة أكثر عندما لم يتطرق لأي من النقاشات السابقة حول الأديان الأخرى، وحتى سليم حثه ما أبدياه من مثال له على صوم يوم أو اثنين من ذلك الشهر.

الغريب أن شهر الصوم ولى ومايزال أحمد يصوم يومياً، بل كان يصوم يومين متتالين أحياناً فلا يتناول طعاماً من شروق شمس اليوم الأول حتى غروب شمس الثاني. وعندما يُسأل عن ذلك يردّ بأن الصيام يساعد جهازه الهضمي، أو يساعده على تخفيف وزنه، أو أنه يقوم به تعاطفاً مع كل أولئك البشر الجوعى في العالم. ونظراً لعدم ثقتها في كيفية التصرف إزاء تلك التأكيدات، ولأنها لم تلحظ تدهوراً في حالته الصحية بسبب ذلك، فقد حرصت ألا تلح عليه في هذا الأمر.

لكن الأمور بدأت تسوء، حين أخذ يرتدى الملابس نفسها يوماً بعد آخر، متجاهلاً الجلباب الأبيض النظيف الذي تضعه على سريره يومياً. وعندها تضطر إلى أخذ ملابسه القذرة من دون علم منه حين ينام، وتخفيها في صندوق الغسيل، وهو الشيء الذي لم يكلل بالنجاح دائماً، لأنه سيستعيدها في اليوم التالي ويؤنبها على وضعها هناك.

توقف كذلك عن الاستحمام لبعض الوقت، ولم يعد إليه من جديد حتى أمست رائحته من الحدة بحيث اضطر السفائر وله للتساؤل عن هذا الأمر الذي يحدث للصاحب. فجأة أصبح الراديو مصدر إزعاج له عند تشغيله في وجوده، فيحاول إطفاءه عندما يعتقد أنها لا تلاحظ ذلك، وإن اعترضت يغادر المكان حانقاً، ثم عادت ذات يوم من السوق لتجد أن الراديو اختفى تماماً. وفي العشية نفسها أرادت غاناغ القصيرة، والدموع

تملأ عينيها، أن تعرف لماذا باع الصاحب الراديو للبان وله بعشر روبيات، في حين كان من حقها أن تستفيد من تلك الفرصة بعد كل ما قدمته لهم من خدمات، وسألتها ماذا يعني البان وله لهم على كل حال مع أنهم لا يكادون يأكلون موزتين في الشهر، إن أكلوا الموز أصلاً؟ وتطلب الأمر من السيدة جلال ساعتين من الوقوف على الرصيف بالقرب من محل البان وله، واتهامه بالسرقة أمام زبائنه قبل أن يوافق على إعادته لها.

ثم ما كان من أمر تلك الليلة عندما رمى أحمد عنه الأغطية وأشعل نور الغرفة، وشرع في إعادة ترتيب أثاثها. ظلت تنظر إليه في رعب وهو ينقل كل المقاعد إلى الردهة، ويحرك الطاولة بالقرب من الجدار، ثم جرّ الصندوق المعدني الثقيل بعيداً فوق الأرضية. بعد ذلك أسند كتفيه إلى هيكل السرير، وهي ماتزال تجلس فوقه، وبدأ في زحزحته نحو الجدار بدفعات قصيرة مصحوبة بنفثات أنفاس ضاغطة كأنه رافع أثقال يقوم بمهمته.

«ماذا تفعل يا أحمد»؟ صاحت به غير مدركة إن كان عليها النهوض لمساعدته، أو تظل جالسة في مكانها وتترك جسمها يتمايل إلى الجانبين مع كل دفعة منه.

تمتم وهو يبذل مجهوداً شديداً: «السرير لين للغاية، وهو مضر للظهر».

أخرج ملاءة من الخزانة، فردها على المكان الذي تمكن من إخلائه على الأرض، والتقط وسادته من فوق السرير، ثم أطفأ الأنوار.

«أحمد، عد إلى هنا»، نادت عليه في الظلام، وهي ماتزال تجلس فوق السرير: «لم تفعل كل هذا»؟

لكنها لم تتلق جواباً، فانتظرت إلى أن تمكنت من سماع انتظام أنفاسه قبل أن تستلقي هي نفسها في محاولة منها لاستدعاء النوم. وفي وقت ما من الليل قذف وسادته فوق السرير، واستيقظت في الصباح لتجده ممدداً فوق الأرضية العارية والملاءة تغطي جسمه ورأسه.

مرت الأسابيع وهو على هذه الحال. ورغم مضي سنوات لم يستخدما فيها الفراش لغير النوم، فإن وجود جسده بالقرب منها كان دائماً عامل اطمئنان لها. واكتشفت الآن أنّها لو استيقظت في منتصف الليل (وهو الأمر الذي صار متكرر الحدوث بسبب تقدمها في السن، أم أنه خيالها؟) فلن تعود قادرة على العودة للنوم من جديد، وعوضاً عن ذلك تستلقي في الظلام ربما ساعات، محاولة أن تغيب في النوم وهي تستمع إلى صوت أنفاسه، ومنتظرة أن يرسم الفجر بريشته أولى ضرباته الوردية على السقف.

لم تعد قادرة على حل معضلة تصرفاته الغريبة، فحاولت مناشدته والتوجه إلى صوت العقل لديه، وحاولت أيضاً تعريضه لشلال من الدموع (دموع صامتة، وأخرى مقرونة بتوجع) بل إنها حاولت التهديد بتركه، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. فكان يعود بعناد إلى ردوده السابقة ذاتها، مصراً على أن قيامه بكل ذلك هو من أجل صحته، ومتهماً إياها أنها تريده أن يتحول إلى معاق في كل مرة تدعوه إلى النوم على السرير. أحبطتها أجوبته وسببت لها الإحساس بالقنوط أما هذه الأيام فهي تبدو مرهقة بالكامل - أرهقتها تصرفاته فأصبح حتى هبوط الدرج شاقاً عليها.

حانت منها التفاتة إلى ثمار الموز المتبقية. فكم يلزمها تناول المزيد منها خلال حياتها هذه؟ وكم مرة أخرى يمكن أن تغلف مادتُها اللزجة لسانها، وينتشر نضجها التام في فمها؟ كان حلقها ينقبض لما يقع عليه من هذا الظلم، وقد نال منها التعب، بل التعب الشديد لاضطرارها إلى القيام بذلك. إلى متى وإلى أي حد وكم يلزمها أن تتحمل ذلك؟ وأخذت دموع مالحة وغزيرة تنساب فوق خديها.

لم يكن هذا الذي يجري من حولها بسبب خطأ منها، وربما يجب عليها أن تعبر عما يجيش في صدرها وتعلن قصتها، وتأتمن سرها لدى شخص ما. لقد حافظت على كل شيء طي الكتمان لفترة طويلة، وربما ستقوم برحلة إلى بيت أبويها هذا المساء وتطلع نفيسة على كل شيء. يجب ألا تشعر بالخجل أكثر مما فعلت.

سمعت صوت الباب يغلق، وتناهى إليها وقع أقدام سليم في الممر، فأسرعت بمسح أثر الدموع بظاهر يدها. ليس هناك سبب لإقحام سليم في ما يحصل لها، ولن تدعه يكتشف شيئاً.

دعكت السيدة جلال خديها بأطراف أصابعها لمسح آخر أثر للبلل عنهما ونادت عليه: «عزيزي سليم، تعال إلى المطبخ، وشارك أمك في تناول إحدى هذه الموزات».

أخرجت كافيتا أسراني صورة سليم من بين صفحات مجلة «حواء الأسبوعية»، التي كانت تقرؤها، وخاطبتها في صمت أثناء لمس أصابعها لشفتيها ثم للصورة: «الليلة يا حبي، فلم يتبق إلا بضع سويعات».

فكرت في استخدام حقيبة لها تحمل فيها بعض الملابس، ورأت أن هذا هو الوقت المناسب للقيام بذلك مع وجود أبويها على البسطة في الخارج منشغلين بعراكهما الأسبوعي مع آل باتاك. لكنها قررت في النهاية ألا تفعل، فقد أرادت أن يتم الأمر كما حدث مع ريتشي كابور، ونيتو سنغ في فيلم «زاهريلا إنسان»، ولراجيش كانا، وشارميلا طاغور في فيلم «داج». ستحظى بعالم وحياة جديدين؛ فلماذا ترتدي ملابسها القديمة؟ بالإضافة إلى أن لديها كل المال من حساب التوفير الخاص بها؛ لقد نظر إليها موظف المصرف بغرابة عندما سلمته وثيقة السحب، لكنها بلغت الثامنة عشرة من عمرها الآن، فماذا يمكنهم أن يفعلوا لها؟

لم تشعر كافيتا بتأنيب الضمير لأنها سحبت المبلغ، فقد كانت أمها تقول لها دائماً إن هذا الحساب من أجلها فقط. وعلى الرغم من أن سليم قد لا يكون (بل من المؤكد ألا يكون) هو الزوج المرتقب الذي كان في ذهن أمها، فإنهما سيتزوجان رغم عدم توصلهما بعد إلى كيفية تدبير كاهن، أو إمام، لإتمام مراسم الزواج. بالإضافة إلى أنه لا يوجد الكثير من المال على كل حال، ويجب على عائلتها أن تكون ممتنة لعدم اضطرارها تكبد أموال طائلة للإنفاق على عرسها. تذكرت العرس والاستقبال الضخم الذي دفع ثمنه والدا أنيتا السنة الماضية، مع كل من الحصان، والفرقة، والعشاء في فندق الهوليداي إن. وجعلها توقها الكئيب تركن إلى التردد، لكن ما ينتظرها من غرام سيطر على كيانها من جديد.

لم يكن سليم خلال فترة نموّه سوى أحد الفتية في الحي، وليس أكثر من ذلك. رأته يتسكع حول المكان مع غيره من المراهقين لكنها لم تلق له بالاً. وذات يوم أثاروا صخباً أكثر من اللازم، واشتكت كافيتا لأمها من المعاكسات والصفير الذي كانوا يطلقونه، فصعدت السيدة آسراني إلى الطابق العلوي، واتهمت عائلة جلال بأنهم يؤوون في بيتهم زيراً معاكساً للنساء. بعث الأبوان بسليم إليهم ليعتذر - ليس لكافيتا، بل لأمها التي قابلته عند الباب وهي تضم مرفقيها إلى جسمها، كدليل على تشددها حيال هذا الأمر. تلعثم في البداية، لكنه تمكن فيما بعد من التعبير عن أسفه ببلاغة جعلت مقاومة السيدة آسراني تتلاشى، وما كان منها إلا أن ضمّته إلى صدرها معلنة أنه بمثابة ابن لها.

«من الآن فصاعداً، كافيتا هي أختك»، قالت وهي تشد يديهما إلى بعضهما. «وإذا لم نتمكن من العيش بوئام في هذه البناية فماذا تبقى من أمل للأمّة بأسرها»؟

«أختاه»، قال سليم، راسماً على وجهه صورة ملائكية، فعرفت كافيتا على الفور إنه يهزأ منها، وأرادت أن تسحب يدها من يده، لكنها توقفت - فقد بدأت تشعر بنوع من التفاعل الكيميائي بينهما. كانت الإلكترونات تندفع خارج مداراتها، وتتعرض الذرات والجزيئات إلى عملية إعادة ترتيب، فتنبعث الحرارة بسبب ذلك، ولهذا كانت خائفة من اعتراض طريقها. وقفت هناك تشعر بالدم يتدفق نحو أطراف أصابعها؛ ونظرت إلى عينيه فرأت قدراً ضئيلاً من الأخضر مخلوطاً ببراعة باللون البني ولاحظت بياض أسنانه الناصع، ونقاء بشرته، فعرفت أنها لن تكون أختاً له أبداً.

سرعان ما تبخرت النزعة الخيرية لدى السيدة آسراني. «لست أدري ما الذي تداومين على القيام به لتشجيع سليم هذا، فهو يحوم حول المكان يوماً بعد آخر مثل صرصار طائر».

«لكنه أخٌ لي، فقد قلت ذلك بنفسك».

«أيُّ أخ يستحق ذلك؟ مسحتُ مرة على رأسه فأصبح أخاك؟ من تظنينني، ملكة إنجلترا»؟

«لكنك قلت إن علينا العيش في وئام».

«نعم نعم، فجميع من في البناية شاهد وثامكما، بمن فيهم السيدة باتاك - يا لجرأة هذه المرأة، إذ تقول لي في المطبخ: «كم أنتم متحررون، فهو لا يشبه المسلمين كثيراً».

«لكن ليس الخطأ مني إن كان الناس يفكرون بهذه الطريقة».

«خطأ من إذاً؟ وأنت تستعرضين نفسك رائحة غادية ليراك الجميع، ولكن ليس بعد الآن، لا تقتربي من هذا السيد الصرصار جلال، لا اجتماعات بعد اليوم. فما على المرء إلا أن يتخلص من عصا البامبو، ولن تُصدر القيثارة أي صوت».

«لكن هذا ليس عدلاً».

«سأفاتح أباك اليوم فقط، فيجب أن نكشف لك الطالع. كما أنّ الوقت قد حان لتضعي الحنة في يديك، قبل أن تسوّدي وجهك كثيراً، فلا يتقدم لطلب يدك أحد».

بالطبع مثل هذا التحريم لرؤية سليم شحن لقاءاتهما بنوع من الإلحاح اللذيذ، وفي حين كانت كافيتا تكتفي قبل ذلك بمجرد تبادل الأحاديث وقضاء الوقت بصحبته، فإنها وجدت نفسها الآن وقد تملكتها الرغبة في الاتصال الجسدي به. كانت تتلمس وجهه بيدها لتشعر بوخز خفيف يتولد في أصابعها، كما ضغطت بشفتيها على فمه لتشعر بالتيار الذي ينتشر سريعاً في جسمها، وضغطت بصدرها على قميصه. كان خيالها يجنح بها بعيداً، قبل أن تفكّ نفسها بعيداً عنه.

بدآ في استثمار مساعدات فيشنو في هذا الشأن، وفاجأهما ذات يوم عندما كانا في احتضان على الدرج المظلم، «انتبهي، فأمك قادمة مع الكيروسين وله»، همس نحوها، وتمكن سليم من الهرب في آخر لحظة. كانا يجتمعان بعضَ الوقت فوق بسطة فيشنو، ويمنحانه المال أو الطعام، ويقوم لقاء ذلك بالجلوس على الدرج لتحذيرهما من الخطر القادم. لكنه وجد استحالة في القيام بمهمة حراسة الدرجات العلوية والسفلية في الوقت نفسه، وعليه استخدماه لتوصيل الرسائل حول أماكن اللقاءات. ولمعرفتهما بأميّته، فقد أرسل سليم رسالة ملتهبة أو اثنتين عن طريقه (وضع نهاية لهذا الأمر رؤية الكهربائي وهو يقرأ صحيفة بصوت عال لمجموعة من الجالسين، بمن فيهم فيشنو).

في هذا الوقت، أخذت السيدة آسراني على عاتقها السعي في تنفيذ مشروع تزويج كافيتا، وكانت تملك اندفاع شخصٍ لم يعرف هدفه الفعلي في الحياة إلّا الآن. اتصلت بعرّاف العائلة الذي كشف عن خريطة طالعها (وعدها العراف بأنها سترزق بثلاثة أطفال كلهم من الذكور، شريطة توافق الحادثات كما ينبغي. وإذا لم ينتبهوا إلى المرّيخ فسترزق بخمس بنات، سواد وجوههن مثل الفحم). أُرسِلت الخطابات للأقارب في كل الجهات القريبة والبعيدة (كما أرسِلت خريطة طالعها بالبريد الجوي، حتى كندا وسنغافورة) للتنقيب في كل الأنحاء عن عريس مناسب لها. وأعدّ إعلان مبوبٌ لعدد الأحد من صحيفة (تايمز أوف إنديا) لكنه وُضع على الرف مؤقتاً عندما أعلن العراف أن الاثني عشر أحداً القادمة تعتبرُ أياماً مشؤومة.

وعندما بدأت شبكة اتصالات السيدة آسراني تبيّنُ بعض النتائج، قررت كافيتا أن عليها الرحيل.

« اتصلت السيدة لالواني ليلة البارحة»، قالت الأم ذات صباح وهي توزع ابتسامتها المشرقة على الجميع في أثناء تقديمها طبق الباراثاس على مائدة الإفطار: «ابن عم زوجة أخيها يعمل مهندساً، وتحصّل على عمل لتوّه مع شركة فولتاس. أما خرائط الطالع فمتماثلة بحيث قالت إنهما يشبهان رادها وكريشنا».

لم تفعل كافيتا أكثر من تناول لقيمات من طبقها. ستدّعي أنها لم تكن تنصت، وهو أكثر ما يغيظ أمها. «هل يمكنك أن تمرّر التشاتني»، سألت والدها بكل لطف.

«كما أنه يحصلُ على راتب جيد، ولا يتعاطى الخمر، أو يدخن».

«أراهن أنه في منتهى القبح، ذاك الذي يوافق على الزواج من فتاة بدينة مثلها». نخر شيامو شقيق كافيتا ذو الاثني عشر عاماً، «وخسيس أيضاً ـ وهو ما تستحقه تماماً ـ قبيح المنظر وخسيس».

« اسكت يا شيامو، فوالداه يملكان شقة في كولابا، وسيارة أمباسادور. وهو الابن الوحيد، ولهذا... ربما سيضربها»، قال شيامو آملا.

سأل السيد آسراني: « وكيف شكل الفتى»؟

« شكله؟ هذا الشيء الوحيد الذي خطر ببالك؟ ماذا ستفعل، هل ستلعق منظره الحسن عندما لا يكون لديهما شيء يأكلانه»؟

«سألت فقط عن... »

«أكدت لي السيدة لالواني أنّ طوله مناسب، بالإضافة إلى كونه مهندساً، ولا بد أنه يبدو مثل أي مهندس، فماذا غير ذلك؟ الأمر سيئ بما يكفي لأنني أقوم بكل المجهود - وإن لم ترغب في أن تحرك ساكناً، فعليك ألا تقف في الطريق إذاً».

«لم تتعد الثامنة عشر، ولست أرى فيم العجلة».

«ومتى ترى إذاً؟ عندما تفر حبيبتك مع الصرصار الطائر في الأعلى؟ وعندما لن نتمكن حتى من الخروج إلى مكان عام؟ فهل سترى حينذاك»؟

لم تستطع كافيتا الاستمرار في صمتها فصاحت: «ليس بصرصار، وسأتزوجه. سأمضي بقية حياتي معه، فلا تنعتيه بالصرصار».

«هل ترى؟ هل ترى لسان ابنتك ذا التسع ياردات؟ ذلك لأنك دللتها. صفاقتها تزداد يوماً بعد يوم، وأنا التي يجب علي أن أنصت إلى ذلك».

«كل ما تحتاجه هو ضربها بشكل جيد»، تطوّع شيامو بالحل.

«إذا حاولتم تزويجي شخصاً غيره، فأقسم أنني سأرمي بنفسي أمام قطار ما مثلما فعلت الفتاة في محطة موتانو».

«كيف تجرؤين على الحديث هكذا ولا تظنين أنك لن تنالي صفعة على الوجه لمجرد بلوغك سن الثامنة عشر»؟

« اتركيها لحال سبيلها، يا آرونا».

«اصفعيها! اصفعيها!» صاح شيامو بحماس، فقلب في أثناء ذلك كوب مشروب الكولا على المائدة، وندت عنه شهقة مقرونة بالدهشة عندما ضربته أمه على ذراعه ثم على وجهه.

«أنت دائماً ما تسبب المشاكل، دائماً، ولا يمكنك الجلوس من الصباح حتى المساء»، وكأن صفع شيامو جعلها تحس براحة، فكررته ثانية.

«لكن هي، هي من تستحق الصفع. وما عدتِ تضربينها أبداً» أخذ شيامو في العويل راشفاً أنفه بين الفينة والأخرى، ما أدى بالأم إلى صفعه من جديد.

«قلت لك أن تصمت. ولينصت الجميع، لقد دعتنا السيدة لالواني لمقابلة الفتى في بيتها يوم السبت، فهي تقول إن الأمر يبدو طبيعياً أكثر هكذا، ورتبت اللقاء في الساعة السابعة. أريد من الجميع أن يظهروا أفضل سلوك وكياسة ممكنين، وهذا يشملك يا كافيتا». فجأة اكتسى صوتها بنبرة تسامح: «هو شاب جيد، وعلى الأقل عليك إلقاء نظرة عليه من أجل أمك وأبيك المسكينين اللّذين يتقدمان في السن».

عند ذلك أزمعت كافيتا أمرها على الهروب. إلوب elope، كما يطلق على الفرار مع المحبوب، ورأت أن للكلمة الإنجليزية وقعاً أكثر حسّية، مع كل ما شاهدته من الأفلام والقصص التي تتطرق إلى موضوع الهرب. ستكون هي ليلى، وتكون هيير، وتكون جولييت.

«إن كان هذا ما يريده الجميع، سأفعله».

عاد الإشراق إلى وجه الأم، فقالت وهي تضمها مقبلة جبينها، «كنت أعرف أنك ستوافقين، فابنة من أنت بعد كل حساب؟ بعد الإفطار سأعلمك كيف تعدين حلوى غولاب جامونس كي تحملي شيئاً منها معك يوم السبت».

أساساً كانت كافيتا قد خططت لهربها في الليلة السابقة، لكن الفضول تغلب عليها وقررت تأجيله ليوم آخر فقد أرادت معرفة إن كانت ستنجح. وأرادت أن تترك انطباعاً حسناً لدى السيدة لالواني، وأن يقع المهندس المسكين في غرامها بجنون، وأن تتحطم خططه الهندسية المبتذلة كافة عندما تنفذ هروبها. ستعد الطعام هذه الليلة بأفضل ما يمكنها، وستضيف إلى حلوى الغولاب لمستها وتحليّها بعصارة جمالها. سيتذكرها الجميع ـ وستبقى صورتها محفورة في أذهانهم، يتوقون لعودتها ولكن دون جدوى.

قبّلت كافيتا صورة سليم وفتحت حقيبتها لتدسها فيها، فوصلت إلى أنفها رائحة أوراق المائة روبية الجديدة. فكرت وهي تشم الرائحة فيما ينتظرها من حياة جديدة ومستقبل جديد عَطِر. ثم سحبت إحداها من الرزمة، ففيشنو لا يبدو في حال جيدة خلال الفترة الأخيرة وهذه الورقة له، ستتركها تحت ملاءته عندما تغادر.

يتريث عند الدرجة الخامسة، فالدرج يأخذ شكلاً منحنياً، ومايزال الجزء التحتي من جسمه خلف الحجر، فإذا ارتقى درجة إضافية سيكون رأسه فقط هو ما يظهر.

ينظر إلى الجذع البشري الذي تظهر معالمه تحت الملاءة. إنه يرقد هناك بلا حراك، راسماً معالم ذلك الحيز الذي يحتله في هذا العالم بتفصيل، وقد عمل بكل قوة كي يعلّم حدود هذا الحيز. فكل بوصة نماها جسمه، وكل خلية تولدت فيه، كل شعرة، وكل هدب من رموشه كان في حاجة إلى هذا الحيز. حارب لافتكاكه من العالم الخارجي، واقتلعه رغم التحفظات المحيطة به كافة. فقد حماه، ورعاه، وضغط بجسمه في محيطه المحدود، وسيكره التخلي عنه.

وماذا عن جسده أيضاً ـ كيف سيتركه خلفه؟ إنه أداته للتجربة ووسيطه للعالم. هذا الجسد الذي تحمّله من المهد إلى طور رجولته، فأي عيب في هذا الجسم أتى من عنده هو، وأي ندوب فيه تخصه، وبإمكانه أن يتذكر متى حدثت. لقد اهتم بجسده، أطعمه، ونظفه، ورعاه مثل طفل. فهذه الشفاه التي كانت لا تكاد تحيط بحلمات ثدي أمه، وهذا الأنف الذي يمكنه التقاط شذا عطر كافيتا من بين عطور كثيرة غيره، وهذه العيون التي راقبت ثنيات القماش وهي تسقط من حول جسد بادميني، وقد حاول جاهداً أن يشبع تطلعاته وتوقه. لقد سجاه عارياً على الأرض، وأحس بمائه ينطلق مغادراً جسمه.

هل ما يشعر به هو إدراكه الحسّي أم أن الحجر تحت قدميه بدأ في التلاشي؟ هل أصبحت أطرافه خفيفة أم أنه كان على الدوام بهذه الخفة؟ هل بدأت عضلاته تفقد مرونتها، وهل أخذت عظامه تتحول إلى مجرد هواء، وهل يهددُ رأسه بأن يطير بعيداً؟ فهو لم يعد يشعر بملابسه التي يرتديها ولا بجلده من تحتها.

يصعد فيشنو الدرجة التالية، ويصمّم على الفعل فينجزه. ليس هناك ضغط على الأرضية، ولا دفع خلال الهواء، بل لا وجود لأثر أي نشاط. إنه إحساس غريب ولا يبدو له مريحاً تماماً.

يستمر في الصعود، وتمرق الحجارة أمام مجال رؤيته كأنها شاشة سينما. الآن لا يظهر منه سوى رأسه ورقبته، والآن وجهه، ثم جبهته، ثم شعرُ رأسه. يغلق عينيه ويرى نفسه مستلقياً على البسطة، والنور يتجمع من حوله. يفتح عينيه ويغلقهما من جديد، ليُظهر الصورة ويخفيها في كل مرة، ثم يحتفظ بهما مغلقتين. من الجائز أنه فقد حاسة اللمس، وقد يكون فقد الإحساس بما يمنحه الوزن من راحة، لكنه كسب الكثير مقابل ذلك، فيمكنه الآن أن يرى بشكل أعمق وأوضح مما سبق على الإطلاق.

انتهى العراك منذ ساعة - فقد نُظفت البسطة، وضُرب الأطفال، وعُنّف الأزواج بقسوة، وحُملت السيدتان آسراني وباتاك إلى إغفاءة العشية على بُسُط الرضا والراحة النفسية، إلى أن هبطت السيدة جلال الدرج.

« هالو؟ هل من أحد في البيت؟» كانت تقرع باب آل باتاك، دون جواب.

كان سليم قد أخبرها عن مشاهدته لعراك الجيران عندما مر بطابقهم: «يبدو أنهم غير متفقين حول من سيدفع تكاليف المستشفى، فطلبوا من عربة الإسعاف العودة من دون المسكين فيشنو».

على الفور أحسّت السيدة جلال بالذنب، وما عمّق هذا الإحساس لديها هو الحديث الذي تبادلته مع غاناغ القصيرة في هذا الصباح، فسألت سليم: «تعني أنه مرميٌّ يُحتَضر على الدرج»؟ ظلت تدور في المطبخ مشغولة البال إلى أن قررت في النهاية النزول لترى ما

يمكنها القيام به. «يا سيدة باتاك؟» نادت عليها، متسائلة إن كانت تغامر بإيقاظهم في حال قرعها الجرس. «هذه أنا، السيدة جلال».

بإمكانها سماع أصوات تحركات خلف الباب. «ماذا تريدين؟» كان هذا صوت السيدة باتاك، وعلى الرغم من أن الباب قد خفف منها قليلاً، فإن نبرة الانزعاج كانت واضحة في ثنايا الصوت.

«تساءلت إن كان من الممكن أن أقول لك شيئاً عن فيشنو».

«وماذا عن فيشنو؟»

«في الواقع، أخبرني سليم عما حدث ـ حول الصعوبة التي واجهتها مع السيدة آسراني لإدخاله للمستشفى، و... في الواقع أرى أنها مسؤولية البناية بأكملها وليس أنتم فقط، أليس كذلك؟ هكذا رأيت أنه... ربما علي النزول إليكم للمساعدة».

«أي مساعدة تقدمينها الآن، لقد حضرت الإسعاف، وغادرت».

«نعم أخبرني سليم. فالمستشفيات تكلف الكثير في هذه الأيام ولكن لدي اقتراح وهو السبب الذي أتى بي إلى هنا. ربما علينا الاتصال بـ (جمعية الهجرة)».

«جمعية الهجرة؟»

«إنهم يأخذون الأشخاص ـ الذين يحتضرون ـ فهم يعتنون بالذين لا مأوى لهم في أثناء لحظاتهم الأخيرة. في الواقع المكان ليس بمستشفى، إنما يوفر قدراً أكثر بقليل فقط من الراحة، ودون مقابل أيضاً».

«أي نوع من الجمعيات هذه؟»

« الهجرة جمعية خيرية، وبإمكانك أن تري سيارتهم تمر هنا أحياناً. وبعض الأشخاص من مسجدنا أعضاء فيها ـ حتى السيد جلال تطوع فيها لبعض الوقت من دون مقابل طبعاً».

«أوه. إذاً لها علاقة بمسجدكم».

«إنها مفتوحة للجميع، وليس للمسلمين فقط».

«نعم».

اختفت نبرة الانزعاج من صوت السيدة باتاك، لكن السيدة جلال اكتشفت حذراً لديها من إظهار أي تعبير.

«لدي رقم هاتفهم، وبإمكاني الاتصال بهم».

«لقد فهمت».

«إنهم يأتون على وجه السرعة، وما علي سوى الاتصال بهم، أعلميني فقط بالأمر».

«أشكرك».

وقفت السيدة جلال على الدرج غير واثقة مما عليها فعله، فالنبرة في صوت جارتها تلمح إلى أن عليها المغادرة، لكن لم تظهر نتيجة واضحة للمحادثة التي جرت بينهما، وهو الشيء المعتاد في كل معاملاتها مع آل باتاك، وآل آسراني. لَماذا يبدو هؤلاء الناس شديدي الصعوبة في التعامل؟ ولم لا يكونون مثل جارها السيد تانيغا القاطن فوقها. ماتزال تذكر أسابيع الخصومات التي تلت العطل في مضخة المياه، والمباحثات المضنية التي طال أمدها حين أصبح من الضروري تغيير أنابيب المجاري. وحتى تقديم مبلغ خمس روبيات لغاناغ القصيرة بمناسبة السنة الجديدة تحوَّل إلى موضوع عراك اندفعت خلاله الجارتان إلى بيتها واتهماها بتدليلها، وأن غاناغ ستتوقع إعطاءها مبلغاً مماثلاً منهما أيضاً.

على الأقل ماتزال السيدة باتاك تعاملها بطريقة مؤدبة، وليس مثل جارتها البغيضة الملاصقة لها. فكل مرة تلتقي بها على الدرج، كانت المرأة تصر على إصدار نخرة ازدراء وتدير وجهها بعيداً عنها بشكل يخلو من الذوق، وهو الأمر الذي يدعو للضحك كثيراً

باعتبار أنّ ابنتها؛ هذه الفتاة الملتهبة، هي التي أوقعت سليم المسكين في شراكها. ثم نظرت إلى جرس بابهم بلونيه الأسود والأبيض، متمنية لو كانت خفيفة الحركة كي تقرعه بقوّة، وتصعد الدرج جرياً كما كان يفعل سليم في صغره.

فكرت للحظات في النزول لتقف على حال فيشنو، فهي ماتزال تعتقد أنه ليس بهذه الدرجة من المرض ـ وربما تتمكن من الاحتيال عليه ليتماثل للشفاء، ولكن حديث غاناغ القصيرة المعنّف لها ظل حاضراً في مسامعها وأحست بالخجل لتفكيرها السخيف. كان المسكين يُحتضر ـ يُحتضر ـ وكانت هي نفسها تتحدث عن نقله بعيداً منذ لحظات قليلة. كلّا، فلا حاجة للتحقق من وضعه، بالإضافة إلى أن بإمكانها دائماً إذا دعت الحاجة أن تفكر في هذا الأمر وهي في طريقها إلى نفيسة.

لم يكن هناك المزيد لتفعله وكانت مهمتها عبارة عن مجهود ضائع، وهي تعرف أن السيدة باتاك لن تتصل بها. ما كان عليها النزول إلى جارتها ـ وكأنه ليس لديها مشاكلها الخاصة التي يجب أن تنشغل بها. فدارت على أعقابها، وبدأت الصعود ممسكة درابزين الدرج إلى الطابق الذي تسكنه.

* *

وقع الطرقُ على باب بيت عائلة باتاك في الوقت نفسه الذي كانت فيه السيدة آسراني تستعد للنوم. في البداية أحست بأنها منهكة كثيراً لكي تنهض وتتنصت إلى ما يدور من حديث، لكن صوت السيدة جلال جذبها كمغناطيس نحو باب شقتها. وهي تقف خلفه الآن منتظرة أن يخبو صوت الخطوات أعلى الدرج.

نظرت إلى ساعة الخطوط الجوية الهندية المعلقة على الجدار البعيد، وكانت يدا المهراجا بالقرب من الساعة الرابعة، وهو ما يعني أن الوقت متأخر كثيراً لاستئناف قيلولتها. بالإضافة إلى أن دقات قلبها تتسارع مرة أخرى ـ مهما حاولت فإنها لم تتمكن بعد من الحفاظ على هدوئها في أثناء تنصتها من خلال الباب على أحاديث جارتها، بل حتى إنها تساءلت إن كانت بحاجة إلى مراجعة طبيب حول هذه المسألة، فربما بإمكانه

أن يصف لها دواءً لمثل هذه الحالات. ربما كل ما تحتاجه الآن هو تناول بعض الشاي، الذي سيريح أفكارها ويهدئ من روعها. فتحت الباب قليلاً ونظرت من خلاله لتتأكد من خلو البسطة، وكانت على وشك الولوج إلى المطبخ عندما فُتح باب منزل عائلة باتاك لتخرج منه جارتها أيضاً.

في أثناء وجودهما في المطبخ لم تنظر المرأتان إلى بعضهما، لكنهما أبقتا نظراتهما مثبتة على سخانيهما، وكانت السيدة آسراني هي من بدأ الحديث. «جمعية الهجرة؟ لم أسمع عنها من قبل مطلقاً».

«قالت إنها جمعية خيرية إسلامية».

«لكن لأي أغراض، هل لمجرد نقل الميتين بعيداً؟ أيّ نوعٍ من أعمال الخير هذا؟»

«قالت إنها من أجل مساعدتهم كي يموتوا بسلام».

أمسكت السيدة آسراني بسخانها ورجّته بقوة لتسريع غليان الماء قائلة في الوقت نفسه: «أرجو المعذرة، لكن لو كنت في مثل هذه الحالة فلن أهتم كثيراً بوجود وسادة تحت رأسي.»

«بالطبع، فربما كل ما يفعلونه هو دفنهم.»

«أتساءل عما يفعلونه بالجثث.»

«سأخبرك بشيء واحد لا يفعلونه، وهو حرق الجثث.»

«بالطبع فهم ربما يدفنونها فقط.»

«من يعرف ماذا يفعلون بها أيضاً.»

«خاصة لغير المسلمين.»

«ربما يتفحصون الرجال، تعرفين ما أعني. في تلك المناطق الخاصة من أجسادهم ليروا إن كانوا مسلمين أم غير ذلك.»

«مسكين فيشنو، أتساءل عما سيحدث له.»

« لن يحدث له شيء، فلن نسلمه لهم بهذه البساطة.»

«أنا متأكدة أن البلدية تقوم بمراسم الحرق إذا اتصلت بهم.»

«وإن كان غير ذلك، فسنهبط به إلى غور النهر المقدس بأنفسنا، وقولي للسيدة جلال بأننا لسنا في حاجة إلى مساعدتها.»

«يا لجرأة هذه المرأة! تلوّح بإحسانها في وجوهنا بهذا الشكل وكأننا عاجزون، وكأننا غير قادرين على العناية بناسنا.»

«ومن يعرف أغراضها الحقيقية من وراء ذلك هي وزوجها المجنون وذلك الابن الصرصار.»

«سأتصل بها وأبلغها بهذا.»

«نعم وأضيفي اسمي أيضاً. قولي لها إن لدينا جمعيات إحسان مثل هذه في طائفتنا أيضاً.»

«فضلاً عن أني قد وضعتُ لتوّي ملاءة جديدة على فيشنو، فمن تظن نفسها؟ سأخبرها بأنه مرتاح تماماً، وشكراً لك».

خفت حدة الضوضاء، تاركة وراءها أشبه بما يخلفه الفيضان من آثار في المكان. أصوات خافتة وفي منتهى الخفوت ـ وقع خطى النمال، انطلاق الدبابير، وحركة العناكب وهي تنط على الأرض. يسمعُ طيران بعوضة أمام وجهه ويحس بإيقاع زحف أم أربعة وأربعين مثل تموجات على الحائط، ويستمع إلى أصوات صرّار الحقل تنبعث من الأشجار في الخارج. كل حشرات العالم تناديه وبإمكانه سماع صيحاتها تنبعث من الغابات والحقول البعيدة؛ إنها تناديه وتخبره بقصصها وتطلب منه أن يتتبع مسير قرقيها، وهي تزحف، وتتسلق، وتطير صوب غاياتها.

تتسلق الدرجة التي أمامه نملة وحيدة. ما المرحلة التي وصلتها هذه النملة يا ترى؟ يتساءل في نفسه، هل كانت في السابق طيراً أم حيواناً أم إنساناً؟ هل يمكن أنها كانت في وقت ما أميراً هبطت مكانته، أو براهما مقدساً سقط من عليائه؟ ينصت إلى صوت النملة محاولاً سماع قصتها لكنها تستمر في تسلقها، ولا تفضي إليه بشيء.

يراقبُ الطريق الملتوي التي تسلكه. خطوة في اتجاه، وخطوتان في الاتجاه الثاني في رقصة معقدة تمكنها من الصعود إلى الأعلى ببطء. تصل إلى القمة وتحرك قرون استشعارها في الهواء باحثة عن السطح الأملس. ينتظرها كي ترفع جسمها فوق الحافة وتبدأ في التجول فوق كامل مساحة الدرجة، لكنها تدور عوضاً عن ذلك وتبدأ في الحركة على امتداد الحافة.

ينظر إلى تحركها البطيء نحو الحائط، متسائلاً إن كان يجب عليه تصحيح مسارها. فيضع إصبعه في طريقها محاولاً سدّه عليها، لكن النملة تزحف حوله من دون لمسه وتستمر في السير فوق الحافة. يحاول مرة أخرى، وأخرى، لكنها تلتف حول إصبعه في كل مرة مصممة على المضي في طريقها، فيراقبها حتى وصولها إلى الحائط، وهناك تبتلع ظلال المكان جسمها ببطء.

ثمة أشياء أخرى تعج أيضاً بالحياة فوق الدرج. حشرات ضئيلة ترفرف في ضوء المساء الذي يرشح من النافذة. وبينما تئز بعوضة ما بالقرب من أذنه يشعر بأنه في وسط غابة، حيث تختبئ الحياة في كل مكان.

يصل إلى بسطة درج عائلتي آسراني وباتاك، فيجد المزيد من النمال هناك، بإمكانه رؤيتها تشق طريقها بحذر فوق الحائط، وتتحرك مع الطابور نتيفات من الطعام مثل نور منبعث من عقد مصابيح، يتتبع الطابور حتى وصوله إحدى زوايا البسطة، فتقع عينه على قطعة جبن مخبأة هناك. تتجمع النمال الآن بجسومها السوداء حولها وتقطع أجزاء صغيرة منها لتحملها بعيداً. وبينما تصبح قطعة الجبن أخف وزناً يحاول النمل نقل ما تبقى منها في مرة واحدة؛ يشاهدها تتحرك وتتأرجح قليلاً، ثم عندما يرفعها عن الأرض وكأنها جائزة كبرى تُحملُ في استعراض النصر، يراها تُحمل في الجو بكل ثبات.

يتذكر معاركه مع النمل، وكم من المرات استيقظ فوق بسطته ليرى صفوفاً منه تغزو ملاءته ومقتنياته وجسمه أيضاً. ويتذكر علبة الحلوى التي اشتراها لبادميني فغلفها بقطعة من البلاستيك، ثم دفنها في عمق كومة مقتنياته، مؤملاً ألا تكتشفها النِّمال، لكن ما إن حل الصباح حتى تعرضت للغزو. فوضع العلبة في ضوء الشمس وانتظر أن يجبرها الضوء على الخروج، ثم راح يضغط بإبهامه على أجسادها واحدة تلو الأخرى. وقبل تقديم العلبة لبادميني أخذ يتفحص كل قطعة من الحلوى جيداً، ويخرج النمال الباقية بكل عناية.

يتذكر أيضاً أن أول ما قالته بادميني وهي تفتح العلبة هو: «انظر، يوجد نمل هنا». تلتقط قطعة من الحلوى فيظهر على الورقة الفضية التي تلفها نملة سوداء صغيرة، فيحس فيشنو بالذنب يتسلل إلى معالم وجهه منتظراً أن ترمي العلبة بعيداً، لكن تبدو على ملامحها التسلية، حين تقلب قطعة البارفي فتتسلق النملة إلى الحافة، ثم ترقبها تسير مسرعة فوق السطح العلوي إلى الجانب الثاني قبل أن تقلبها من جديد، وأخيراً يتسلل إليها الضجر من النملة فتقذفها بعيداً في الهواء. تضع قطعة الحلوى في فمها وتلتقط غيرها قائلة: «هل هناك المزيد من هؤلاء الأحبة الصغار»؟

يتساءل كم نملة قضى عليها، وهل كان لتلك الأجساد التي سحقها أصوات؟ ويرفع قدمه ليبعد النمال عن البسطة ثم يتوقف. لقد غادرته البغضاء ولن يدوس النمل بقدمه. يراقب الآن، فيشاهد حركة قطعة الجبن على طول الصف حيث تكاد تصل إلى باب المطبخ.

تتسرب من خلال الباب أصوات كل من السيدتين آسراني وباتاك تتجادلان حول ما ستفعلانه بجثته، ويرى كم غريب هذا الأمر حيث يقف هناك منصتاً إليهما، وكم سيكون مفاجأة لهما عندما يريانه واقفاً هناك.

تخرج السيدة آسراني أولاً، تنظر من خلاله مباشرة، لكنها لا تراه، وتليها السيدة باتاك تحمل كأساً من الشاي في يدها. يقع نظرها على النمال وتتسع عيناها عند رؤية الجبن، «ملعون هذا النمل»، تصيح راكلة قطعة الجبن عبر البسطة، ثم ترفع خفها لتهوي به على الطابور مرات عديدة.

كانت صيحات النمال عالية للغاية مما دفعه إلى سدّ أذنيه. وأخذ يتأمل أطفالاً تدهسهم سيارات، أو عائلات تسقط بين أنقاض بناية، أو أشخاصاً يموتون حرقاً، فيسد أذنيه ليبقي العذاب بعيداً، لكن الصيحات تخترق سمعه لتسكن في قرارة عقله.

كانت آخر أضواء المساء تتسرب من خلال النافذة حين رأى فيشنو هيئة ما. هناك رجل ينتصب بالقرب من جسمه فوق البسطة، وينحني الرجل بجانبه ليرفع عنه الملاءة ثم يلمس وجنته بإحدى يديه؛ وبالأخرى يضغط على جبهته ويبعد الشعرات القليلة عن العيون. تستمر أطراف الأصابع في تلمس طريقها حول شفتي فيشنو، ثم إلى ذقنه وصدره حيث تبدأ في الضغط على قلبه.

عينا الرجل مغلقتان، وعنقه مشرئب، ورأسه موجه إلى الأعلى، في حين تتمتم شفتاه بكلمات غير مسموعة. لقد رأى فيشنو هذه الهيئة من قبل، ويعرف بأنه يجب أن يتبين ملامح الشكل المنحني بجانب جسده.

تنفتح عينا الرجل ويخترق بياضهما الظلام. تبدوان واسعتين ووديعتين تحدقان خلال الفراغ عبر السقف وعبر الحجارة نحو نقطة خارجية في السماء. فينظر فيشنو إلى العينين وهو غير متأكد إن كانتا مسكونتين بالخوف أو بالخشوع.

تطرفُ العينان قليلاً، وتمسّد الأصابعُ على خصلة من شعر الصدر، وتنفتح الشفتان وتنغلقان، فتنساب بكل بطء كلمات هادئة من الوجه الذي يبدو عليه الجيشان. ويرى فيشنو الشعر الأشيب والأنف المنتفخ، كما يرى الوجنتين وعليهما أثر بثرة الجدري، فتغمره المعرفة في النهاية. يحدق من الأعلى نحو السيد جلال الجاثي بالقرب من جسده فوق البسطة، شاخصاً ببصره عبر السقف ونحو السماوات العلا.

الخامس

أخذ السيد جلال يقرأ من كتابه:

ما العيون إلا عيون سرداس

ينبوعان من الرؤية

قرر سرداس، لا بد وأنهما العينان

فهما نافذة العقل والروح على العالم

ومن خلالهما اقترف الخطيئة

الخطايا التي نقترفها جميعاً ليست متساوية، لكن ثقل تلك الخطايا، ثقل الخطايا هو الفرق.

نظر سرداس إلى عينيه في المرآة

هرمية الخطيئة مثل الجذور، والفروع، والأغصان. شبكة من الخطيئة.

قال لنفسه، بهاتين العينين اقترفتُ الخطيئة، وعن طريقهما سأطهر نفسي.

سرداس هو فحل الشعراء في بلاط ملك الملوك **أكبر**. وقد اقترف الخطيئة بعينيه ولن تكون أشعاره كافية لتطهيره.

هاتان العينان جواز مروري للحرية، وستكونان كفارتي، فعن طريقهما سأحقق خلاصي.

توقف عن القراءة للحظات. بماذا اقترف الخطيئة؟ هل بيديه؟ بكل تأكيد. بعقله، بجسده، بلسانه، ربما؟ بأنفه؟ أيمكن أنه اقترفها بأنفه؟ ربما حدث ذلك عندما شمّ رائحة شيء ما كان له أن يشمّه؟ وأخذ يتدبر المسألة، فهل يجوز اعتبار الأنف مذنباً باقتراف المعصية؟

التقط سرداس السكين الذي كان صغيراً مزخرفاً، وله حد قاطع ومقوس. كان له مقبض من الخشب رُسمت عليه ثلاث علامات مائلة.

فكرة وجود العلامات أدخلت إلى نفسه السرور، فكل نص يقرؤه يذكرُ شيئاً مغايراً حول هذا الموضوع. فقد ذكر أحدها أن سرداس استخدم سفوداً، وفي مكان آخر سيفاً؛ وجاء في رواية مختلفة أنه استخدم شفرة قاطعة. ورأى السيد جلال أنها تعتبر البديل الأقل إثارة، فلا أحد يعرف نوع اللحيّ التي استخدمت عليها؟ كلا فالسكين المزخرف المذكور في هذا الكتاب أكثر لياقة للقيام بالمهمة. ثم تخيل لمعان معدنه وتلك العلامات الغامضة على نصله، التي ترسل حسّاً احتفالياً يتسرب إلى أصابع سرداس القابضة عليه.

فقأ عينه اليسرى أولاً. لم يقصد الصراخ لكن لا بد وأن آهة قد ندت عنه، لأنهم جاؤوا إلى بابه مناشدين أن يمكّنهم من الدخول. رأى الدم يتدفق وينساب فوق أنفه ليتجمع عند شفتيه. رأى كل ذلك بعينه الثانية.

لمس السيد جلال عينيه. كان سرداس قد أغوى فتاة ما توجب عليه إغواؤها. نزع عنها ملابسها، سكر من عريها، مارس الحب، وكل ذلك بعينيه فقط. وحاول أن يتذكر - هل قام هو بفعل مشابه؟ لا بد وأن أمراً مماثلاً قد وقع منه - فلا يمكن أن تكون عيناه بريئتين، وهنا قرر أن يكون صارماً، ويضيفهما إلى بقية أعضاء جسمه التي ارتكب بها المعاصي.

أمسك سرداس السكين من جديد، وفي هذه المرة كان يعرف أنه لن يرى ثانية، فحدق في النصل بهدوء، في منتهى الهدوء وبكثير من الجهد، فهو يعرف في قرارة نفسه أنه سيكون آخر ما يقع عليه بصره. ملأ عينه بمنظر الشفرة مثل رجل يتناول آخر شربة ماء، أو يستنشق آخر نفس هواء في حياته. ولم يرفع يده إلى عينه إلا عندما أيقن أن ذكرى هذا المنظر ستظل معه إلى الأبد.

كان الألم أشد وطأة في هذه المرة، لكن ذلك لم يفاجئه ولم يصرخ. هذا الألم المريح والمطهر للنفس. امتلأ فمه بالدم ثم خيّم ظلام أحمر مسالم. وأرخى الليل سدول سكينته فوق كل شيء.

اتجه سرداس إلى الباب وفتحه، مديراً وجهه صوب المرعوبين المتجمّعين هناك.

وقال يخاطبهم : الآن أصبحت حراً

الآن أصبحت حراً.

أمعن النظر في تلك الكلمات، الكتابة بنية اللون بدت له مثل دم جاف على ورقات الكتاب الصفراء. ثمّ مرر أصابعه على الحروف، وهو يكاد يتوقع تحوّل الحبر المتخثر تحت أصابعه إلى اللون الأحمر، وأنه يستعيد الحياة من جديد.

تخيّل إمكانية قيامه بسمل عينيه؛ إمكانية أن يعثر على سكين مثل الذي استخدمه سرداس، وأن يراقب نفسه في المرآة وهو يرفعه إلى وجهه. أن يرى النصل ويحس به، وأن يخبر معاني همساته الأولى عند اتصاله بوجهه. أو ربما سيجتث عضواً مختلفاً من تلك المجموعة، وربما جميعها (ترى هل توصل إلى قرار بعد بخصوص أنفه)؟ لكن ليس لشعوره بالذنب كما حصل مع سرداس، بل لما تسبغه عملية التطهير هذه من قداسة، فقد جاء في القرآن ما معناه: إن المتطهرين سيلقون النعيم وأراد هو أن يكون من المتطهرين، أراد أن يرتقى وأن يستنير ويتعرف إلى ما يمنحه الإيمان من نشوة، وكان يتوق إلى ذلك أكثر من أي شيء سواه.

صار في الآونة الأخيرة يتدبر أمر الكفّارات التي توصي بها الأديان المختلفة، مثل الرهبان الذكور الذين يعرّضون أنفسهم للجلد لتجربة ما تعرض له المسيح من آلام، ثم كهنة الهندوس الذين ينامون على أسرّة من الجليد في جبال الهمالايا للتغلب على صلتهم بالجسد. ثم من يطوفون الشوارع جالدين صدورهم وظهورهم العارية بحبال مفتولة طويلة، وكان يخرج إلى الشرفة في كل مرة يتناهى إلى سمعه صوت طبولهم معلنة عن قدومهم؛ ثم يأخذ في مراقبتهم وهم يتمايلون بحبالهم التي يرفعونها إلى أعلى مكان

تصل إليه، ليجفلوا قليلاً بعد ذلك في كل مرة تهوى فيها تلك السياط عليهم.

لكن المسألة هي أنه لا يطيق الألم، فهو يصاب بحالة من الرعب والهستريا لو تعرض إلى أقل صدمة أو جرح ـ وكان الأمر على هذا المنوال منذ نعومة أظفاره، فمنظر الدم يجعله يلهث بشدة. لقد خطرت بباله أكثر من مرة فكرة النزول إليهم لمعرفة سرّ ما يبدونه من قوة تحمل.

شاهد أخيراً رجلاً يضع يده فوق اللهب في أثناء تلاوته سوراً من القرآن، وحاول تجربة ذلك بعد عودته للبيت لكن بعد إشعاله النار وجد أن الغاز يحترق بلون شديد الزرقة مما أدخل الرهبة في نفسه. وعندها بحث في خزانات المطبخ ليجد مجموعة من شموع أعياد الميلاد التي رآها بديلاً مثالياً ليبدأ بها. أشعل إحداها وأنزل يده فوق اللهب ومباشرة تقريباً كان الألم أكثر من طاقته، فأخذ يجرب مع الألوان المختلفة مؤملاً أن تكون إحداها أقل سخونة (ذات اللون الأبيض كما خمّن)، لكن جميعها ألهبت راحته بكفاءة متساوية. في آخر المطاف قرر أن يطفئ الشموع بأصابعه، لكن حتى هذا العمل أجبره على الركض نحو صندوق الإسعافات بحثاً عن مرهم بيرنول للحروق.

الأكثر سوءاً هو ما يحدث في مناسبة عاشوراء، فلسنين عديدة شاهد المسيرات تتحرك في شوارع بومباي. كان الرجال يبكون ويصيحون، يجلدون ظهورهم بالسياط والسلاسل حتى تدمى وهم يتحسرون على معاملة حفيد الرسول في كربلاء. شاهد بعضهم يضربون أجسادهم بقطع معدنية حادة، فينبجس الدم ويغمر صدورهم وأطرافهم. وأحياناً يسقط بعضهم على الأرض مرتعدين من شدة الألم، لكنهم ينهضون دائماً ويستمرون في ما كانوا بصدده. أعجب دائماً بقوة إيمان هؤلاء النادمين ـ هذا الإيمان الذي يجعل جروحهم تندمل بين يوم وليلة مهما كانت شدتها. وكان ينتظر حتى تمر المسيرة ثم يتتبع أثرها، محاولاً بعناية تخطي بقايا الحبال والمعادن، ومحدقاً بانبهار في بقع الدم الأسود الجاف المنثورة في الطريق.

كعادته ذهب إلى مشاهدة مسيرة هذا العام، فشاهد بين الجمع فتىً لا يتعدى السادسة عشرة من عمره يجلدُ نفسه بنطاق مرصع بقطع من المعدن. كانت أشعة الشمس تنعكس فوق حواشي المعدن في كل مرة يهوى فيها الفتى بالنطاق على جسمه، محدثاً أزيزاً في أثناء اختراقه الهواء. وعلى الرغم من أنّ ظهره مغطى بعدد لا يحصى من الجروح، فإنه استمر في جلد نفسه. يتقلص وجهه من الألم ولسانه لا يفتأ يذكر اسم الله. والتنازل الوحيد الذي سمعه منه السيد جلال هو شهيق عميق بعد كل ضربة، فيخبو في أثناء ذلك الحرف الأول من اسم الله، لكن سماعه لايزال في الإمكان.

لم يعرف ما حدث بعد ذلك. وكان يتحرك بمحاذاة المسيرة ممعناً النظر في المشهد الدموي على ظهر الفتى، محاولاً الإنصات إلى كل ترديد لكلمة الله، عندما وجد أصابعه تفك أزرار قميصه، ثم وهي تبحث عن النطاق الذي يرتديه. ربط القميص حول وسطه مثلما يفعل بعض الرجال وانضم إلى المسيرة خلف الفتى. كان يقبض بقوة على طرف النطاق، في حين بقي الطرف الثاني المحتوي على الإبزيم المعدني يتدلى بجانبه.

تعاظم عدد النادبين بجانبه، فأغرقوه معهم في لجة حميتهم الدينية. وكان النطاق المرصع بالمعدن يرتفع ويهوى أمامه مباشرة، ثم طار منه خيط متصل من الدم ليرتفع في الهواء، ويحط بشكل مائل على صدره، فبدا الأمر وكأنه تحد صارخ له كي يقوم بتوقيع علامته الخاصة. رفع السيد جلال النطاق عالياً وهوى به، لكن الحركة لم تكن متقنة فنتج عنها التفاف النطاق حول ذراعه. كرر المحاولة من جديد، ومرة أخرى لم يستجب النطاق كما يجب وحط على كتفه دون أذى، فتساءل في نفسه إن كان المحيطون به يراقبون ما يفعل، وإن كانوا قد شاهدوا عجزه، أو أنهم يتهامسون ويشيرون إلى حداثته بهذا الأمر، وإلى زيف ما يقوم به من أفعال. انبثقت قطرة دم جديدة من ظهر الفتى ولطخت وجهه فترك النطاق يستوي بفعل ثقل الإبزيم في نهايته، ثم أطلقه إلى الأعلى على شكل قوس واسع وشاهد الإبزيم المعدني يشق الهواء مختفياً خلف رأسه، منتظراً ملامسته لجلده، التي ستجعله يندمج معَ هذا الجمع.

أول ما أحس به هو لسعة الضربة مثل رصاصة موجهة تحت عظم كتفه مباشرة. كان ينوي الصياح باسم الله مثلما يفعل الفتى وقد جهز الكلمة على طرف لسانه، منتظراً أن يسحبها مع حركة الشهيق. لكن الألم الذي تولد عن الضربة كان من الشدة بحيث أن كل ما أمكنه القيام به هو إطلاق صرخة مدوية. أطلق طرف النطاق من قبضته فصار يتدلى من ظهره، لأن إبرة الإبزيم انغرزت فيه. صرخ مرة بعد الأخرى في أثناء محاولته الوصول للنطاق، وسقط على ظهره، مما أدى إلى انغراز المعدن بصورة أكثر، لكن المسيرة استمرت في طريقها لا يعبأ أفرادها بما حل به من عذاب. زحف بين تلك الأقدام المتشابكة حتى وصل جمعاً من النظارة على جانب الطريق، ونزع أحدهم النطاق الساكن في ظهره.

« انتظر، وخذ نطاقك!» صاح الرجل ملوّحاً به في الهواء حين كان السيد جلال يترنح مبتعداً عن الجمع.

لن يتمكن أبداً من إلحاق الأذى بنفسه، ولن يجرب مطلقاً ما يمنحه هذا الفعل من صفاء وسكينة وما يمثله من طهارة وقداسة لروحه. فكل ما يستطيع القيام به هو القراءة حول هذا الأمر وأن يحلم به، وكم تاق لمعرفة سبب كون الألم مؤلماً بهذا القدر.

وقع اختياره بعد ذلك على أقرب شيء يمكنه القيام به وهو تجويع نفسه؛ وخطر بباله هذا الأمر خلال شهر رمضان، فهو لم يصم من قبل قط إلا يوماً أو اثنين لتهدئة عريفة، وحتى في تلك المرات كان ينهي صيامه قبل الوقت المحدد للإفطار. أما هذه المرة فأقنعته عريفة بأن يحافظ على الصيام حتى موعد الإفطار.

ربما يعود الأمر لمعرفته بأنه سيؤدى طقس الصيام كاملاً، لكن ما إن انتصف النهار حتى كان الطعام والشراب هما كل ما يشغل تفكيره. كان فمه متيبساً، ولسانه جافاً ودائم الحركة، أما حنجرته فتصدر صريراً مثل جلد مدبوغ كلما بلع ريقه. اخترق الجوع نسيج معدته وانتشر مثل الحمى إلى الأطراف الخارجية من جسمه.

كان الوقت مبكراً من ذلك المساء عندما بدأ يشعر ببعض الصفاء، فالجوع والعطش

هما من عوامل التطهير، يغسلان عقله مما علق به من أفكار سيئة، ويعززان من قوة جسده ضد الليونة التي سمح له بالتعوّد عليها. وهكذا قرر الاستمرار في ترويض نفسه عليهما وأن يجعلهما جزءاً من كينونته، فهو سيصوم كل شهر رمضان ويستمر بعده أيضاً.

صام الآن ثلاثة أشهر، لكن المشكلة تمثلت في أن جسمه بدا وكأنه اعتاد الجوع، وهكذا لم يعد هذا التمرين يلبي احتياجات التجويع. حاول بعد ذلك الصوم لفترات أطول من المدة المعتادة من شروق الشمس إلى غروبها، لكن ما رافق ذلك من شعور بالخواء جعله يصاب بالدوّار، فتوقف عن ذلك وقرر أن طريقه نحو صفاء النفس لا يمكن أن يكون مرصوفاً بالألم والدوار.

عوضاً عما سبق، حاول إيجاد طرق جديدة لتوقيع الحرمان على نفسه، فتخلى عن قراءة الصحف، ثم توقف عن سماع الموسيقى، لكن مع ذلك بدت هذه مثل تضحيات غير ذات شأن. ثم حاول الامتناع عن الاغتسال، فتذمر من حوله ونفروا من الروائح المنبعثة منه. بدأ ينام على الأرض وكانت عريفة تناديه لينهض ويشاركها النوم على السرير، لكن نداءاتها لم تستمر إلا خلال الأيام الأولى فقط، فقد لاحظ بامتعاض كيف أخذت تستلقي براحة تامة على السرير، بل وصارت تشغل الجانب المخصص له أيضاً حتى إن شخيرها صار أعلى مما كان يصدرُ عنها في العادة.

بدأ في العمل على مشروع جديد منذ الأسبوع الماضي، إذ سيهبط الدرج في وقت متأخر من الليل للجلوس إلى جانب فيشنو في الظلام، وكان يراقبه لمدة ساعة أحياناً قبل أن يعود إلى شقته، وقد غلبه النعاس ذات مرة ولم يفق إلا عند الفجر في الوقت المناسب، لتلافي اللقاء مع غاناغ القصيرة عند قيامها بجولتها الصباحية لتوزيع الحليب.

في أثناء جلوسه هناك، كان يعبث بخصلة من شعر فيشنو، ثم تمتد يده لتلمس وجهه ويسرح به الخيال متذكراً كل تلك الألاعيب الصغيرة التي سمح له القيام بها طوال السنين الماضية. منها التعويضات عن أضرار يفترض أنه تكبدها في أثناء قيامه بالخدمات لهم، أو التعويض عن أسعار يضخّم الباعة من قيمتها. ربما كانت سنوات

التساهل معه تلك هي التي شجعته على سرقة سيارتهم ذات مرة، وكم كانت صدمة كبيرة بالنسبة إليه، لكن تلك الحادثة لم تعد تعني له شيئاً الآن.

ينقل أصابعه إلى أنف فيشنو، وجفنيه، ثم إلى شفتيه فيشعر بدفء الجلد تحت أطراف أصابعه الباردة، ويحاول معرفة ما يمر به في تلك الحالة مستخدماً حاسة اللمس لديه. هل تغضنُ جبهته سببه التركيز أم بفعل ما يكابده من ألم؟ هل تقلصات الجفنين سببها الحمّى أم أنه يمر بحلم؟ هل يمر برؤيا مثيرة تتسبب في ارتعاشات شفتيه، أم أن الوصول إلى نوع من الحقيقة الدامغة هو ما يسبب التسارع في تنفسه؟ والأهم من ذلك كله هل مايزال فيشنو يعاني ممّا هو فيه أم أنه تجاوز ذلك وتحصل على زخم كاف بفعل ما مر به من آلام وكروب ليرتقي إلى مكان أكثر سموّاً وسكينة؟

بهرته حالة فيشنو الراهنة، وأحس أن ثمة أمراً مقدساً وأكثر رفعة وصفاءً يمر به الآن، وهو على هذه الحال القريبة من الموت. كاد يموت هو نفسه عندما كان في الخامسة من عمره إثر إصابته بالجدري، الذي تركه يهذي أياماً طوالاً، وقد حاول غير مرة استعادة ذكرى تلك التجربة ليستشعر مرة أخرى معنى المقدرة على رؤية العالم الموجود في الجانب الآخر.

في أثناء جلوسه بالقرب من فيشنو، كان بإمكانه أن يحس به في كل مكان - شعور بالزخم، وعلامة بيّنة في الجو سبحت خلال الظلام وحطت على كتفيه مثل وشاح. أراد أن يلف نفسه بإحكام داخل هذا الإحساس، كما أراد السقوط في إشراقة الطاقة المنبعثة من فيشنو، التي تنتشر من البسطة إلى أرجاء المكان.

قرر في هذه الليلة القيام بخطوة أخرى أبعد مما فعل في السابق. سيمضي الليلة مع فيشنو. سيستلقي بجانبه وينام هناك على البسطة وسيصبح مثل الأم تيريزا، ومثل القديس فرانسيس، فيحضن فيشنو وكأنه أخ له. لن يشمئز من الرائحة، والقذارة، أو من احتمال التقاطه العدوى، وربما سيكتشف أحدهم وجوده، لكن ذلك لن يهمه في شيء.

عاد إلى كتابه وارتعشت أصابعه وهي تسوّي صفحة منه، فسرعان ما يحل الوقت ويتمكن هو أيضاً من كشف المستور.

حدث الأمر منذ سنوات، فلم يبدُ وكأن فيشنو قد تعمد سرقة سيارة الفيات الخاصة بآل جلال. لقد وعدته بادميني، «أركبني في سيارة، وسأدعك تقودني إلى حيث تريد». لم تكن لديه طريقة للاستفادة من هذا العرض سوى باستعارة السيارة، لكن الأمر لم يخلُ من بذل مجهود أيضاً.

في أثناء وجودهما على الدرج ذات يوم قال للسيد جلال: «صاحب، سأكون سائقك الخاص من الآن فصاعداً». وفوجئ الصاحب بالعرض: «متى تعلمت قيادة السيارات؟»

«أنا ؟ هاه! منذ سنين عديدة وأنا أقود السيارات ومن كل الأنواع، فيات، أمباسادور، وحتى المستوردة منها، فلا مشكل لي معها، بإمكاني أن أريك الآن، هيا بنا إلى سيارتك».

أبدى السيد جلال رفضه قائلاً إنه ليس بحاجة إلى سائق.

«حتى أنديرا غاندي قمت بقيادة سيارتها مرة أو اثنتين»، صاح فيشنو وراء ظهر السيد جلال، الذي لم يكلف نفسه عناء النظر خلفه.

عندما لم تؤد مساوماته إلى نتيجة تذكر جرّب خطة جديدة، وهكذا هبط السيد جلال من بيته ذات صباح ليجده يلمع له سيارته مستخدماً خرقة قذرة. «أصبحت سيارتك نظيفة ولماعة، يا صاحب»، قال مؤدياً في الوقت نفسه تحية عسكرية أنيقة، ثم لاحظ وجود بقعة دهن واحدة من عديد منها نسي أن ينظفها، فبصق بقوة في الخرقة وحك الخرقة المبتلة فوق بدن السيارة.

«انتهى الأمر الآن»، قال فيشنو ولاحظ السيد جلال أن التلوث بالدهن قد توزع بشكل متساوٍ على السيارة.

حل صباح اليوم التالي وأتى معه بتراجع تعوزه الحكمة في موقف السيد جلال. فبعد فحصه لأنفاس فيشنو للتأكد من عدم تناوله الكحول في ذلك اليوم بعد، طلب منه أن يقود بهما السيارة إلى عرض في دار الأوبرا، ولاحظ في أثناء جلوسه مسترخياً في المقعد الخلفي أن قيادته للسيارة ليست في مستوى أنديرا غاندي التي لا يمكن أن تروض نفسها

أيضاً على قبولها، ومع ذلك فأن تجلس وتترك للآخرين القيادة بك، فذلك لا شك من ضروب الرفاهية.

«كانت قيادتك جيدة لكن ليس بوسعنا تحمل نفقات سائق»، أخبره فيما بعد وهو يقدم له روبيتين.

«ومن ذكر شيئاً عن النقود يا صاحب؟ أرغب في القيام بهذا العمل لأحصل على فرصة لقيادة السيارات من جديد».

ربما كان عليه الإنصات إلى نواقيس الخطر التي بدأت تجلجل بعنف في رأسه، لكنه لم يفعل. وبدلاً من ذلك طلب منه في اليوم التالي أن يقود به إلى سوق كروفورد. هناك وبينما كان يجادل الباعة حول ثمن سلة مانغو، تسلل فيشنو إلى صانع مفاتيح ليطبع نسخة من مفتاح السيارة. ثم في تلك الليلة، وبينما كان السيد جلال يتخيل نفسه راكباً يُساقُ به إلى شاطئ جوهو، أو ربما حتى إلى فيرسوف، كان كل من فيشنو وبادميني يستقلان سيارة الفيات بالقرب من الشاطئ متجهين إلى طريق البحرية، يستمتعان بصوت الأمواج وهي تتدحرج بانتظام من بحر العرب.

يهب نسيم أسفل الدرج، وفجأة يصل إلى أنف فيشنو عبق رائحة البحر.

«أشعر بنفسي في منتهى الخفة، وكأنما أسبح في الهواء»، تقول وهي تفتح نافذة السيارة، وتخرج رأسها إلى الهواء.

ينظرُ إليها ويرى الوجه المحاط بالوشاح الأصفر، الذي تتكوم ثناياه من حولها، ويضع يده فوق فخدها فلا تزيحها بعيداً.

«أرغب في ركوب الطائرة ذات يوم»، وتغلق عينيها لتفادي تيار الريح، في حين تستمر يده في الانزلاق نحو جسدها فلا تجد مقاومة.

«هل ستُركبني الطائرة؟» تسأله مرة أخرى فيما بعد، باحثة في وجهه وهو يفك أزرار قميصها في المقعد الخلفي. كانت السيارة تقف تحت موقع الحدائق المعلقة في الظلال

المعتمة لبناية تحت التشييد. وإلى الأسفل بالقرب من استدارة مياه خليج في ظلمة الحبر، وحيث يلمع كل شعاع من الضوء يسقط على طريق البحرية، فيسند خده على صدرها ويشعر بليونة جسدها.

«سنذهب معا - سنذهب إلى آغرا، ونرى تاج محل»، يخبرها وهو يدعك أنفه على صدرها، ويشم رائحتها التي لم ينجح العطر في إخفائها.

«وعدٌ هذا» تقول بعينين واسعتين يبدو عليهما التعب مثل عيني طفل يقرر إن كان سيصدّق راشداً أم لا.

ينقل نظره من رقبتها العارية نحو مجموعة الأضواء الممتدة على سطح البحر في الأسفل، ثم يهمس: «نعم، إنه وعد.»

تبدأ شفتاه بالمغامرة، وتقوّسُ ظهرها لتمكنه من مساحة أكبر من صدرها فيقبل عليه بشراهة، ويحس به يضغط على ذقنه ووجنتيه فيدفن أنفه في خضم الرائحة الممزوجة بالعطر. بشرتها بلون الفضة تحت النور المتسرب من الخارج وتلمع مثل قشرة سمكة بوفري اصطيدت لتوها. تتلوى تحت ضغط شفتيه وتضغط عليه بكل جزء منها له وهي تشده إليها، يمرر أصابعه على ليونة بطنها وتشعر بخربشة شعره النامي فوق جلدها، تحاول الابتعاد لكنه يثبتها ويستمر في خربشتها بشعر ذقنه، فتشده إليها بقوة. لكنه يُخلص رأسه من يديها، ويرفع نفسه مستنداً إلى ساعديه، فالأمر سيكون مختلفاً، وسيمسك بزمام الأمور هذه الليلة. يثبّت يديها فوق كتفيها فتجاهد بتحريك مرفقيها في الهواء، يعلوان ويهبطان مثل جناحي طائر بالقرب من وجهها. هذه الليلة سينال منها ما تمنحه في العادة لذوي الشأن من السادة. سينال منها ما ظلت تغريه به من دون أن يحصل عليه، وظل يمعن النظر في المفاجأة التي تركت مكانها في عينيها لحالة من الرضا والاستسلام.

يقترب منها فتدير وجهها مبتعدة، لكنه يتبعها مصمماً على مبتغاه، ويلحظ على الفور قتامة جلده الأسمر مقابل احمرار شفتيها، ثم تتوقف عن الإشاحة بوجهها وتبقي على فمها مغلقاً في استمرار للمقاومة. يتوسل إليها ويرخي قبضته عن يديها، فلا تقوم بجهد لتحريرهما، لكنها تبقي عينيها مركزتين على وجهه، تتأمله بنظرة لم ير فيها سوى القلق. ثم يرى في عينيها نظرة إصرار وثقة بالنفس ينسابان فوق تموجات وجهها، فتفتح شفتيها ببطء وترو قائلة: « هذه المرة فقط».

يقول لها فيما بعد: «لنهرب بعيداً عن هذا المكان. لنجدَّ في السيْر ولا نعود أدراجنا أبداً».

تسأله مغلقة العينين: «أين سنذهب؟»

«إلى حيث تحبين، وأينما تقلنا السيارة.»

«خذني إلى نولافالا، إذاً ».

مايزال الظلام مخيماً عندما انطلق نازلاً على الطريق الملتوية من الحدائق المعلقة. نظر إليها في أثناء نومها في المقعد المجاور، وذراعاها يندسان بعناية تحت الوشاح لتحافظ على دفئهما، في حين تظهر أحياناً الأضواء القريبة من البحر خلفها من النافذة، بنورها الهادئ غير المركز، أما فوقهما فتمتد أغصان أشجار المانغو بكثافة عبر الطريق، وتعكس أوراقها ما يتوافر من أشعة القمر.

تهب من نافذتها دفقة هواء قوية باردة ومشوبة بالملح، فيمد يده فوقها ليرفع الزجاج، لكنها تتململ في جلستها قائلة: «كلا، اتركه مفتوحاً، أحبُّ الجو البارد»، ثم تلتفت وتعود للنوم.

يتتبع الطريق التي تستدير أمامه نحو الظلمة، فسرعان ما يمر بـ «أبراج الصمت»، التي تهدأ فيها حتى النسور في هذا الوقت من الليل، حيث يمكنه رؤية أضواء الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة، وهي تعمل كمرشد للسيارات في الليل. سيصعد بعد

ذلك إلى زاوية كيمب، ويحاول رؤية البحر من خلال الفُرج بين ناطحات السحاب، فلن تبزغ الشمس إلا بعد ساعات، ولم يكن تفكيره طوال الرحلة إلا في بادميني التي تنام إلى جواره.

كانت السيدة لالواني تقطن منطقة كوبالا البعيدة بجوار أحواض السفن في ساسون. ولم تكد سيارة الأجرة تتخطى منطقة تشرش غيت حتى بدأت السيدة آسراني في إبداء تذمرها.

«الله وحده يعلم أي نوع من الترتيبات هذا، حين نضطر إلى جرجرة ابنتنا عبر نصف المدينة تقريباً في الوقت الذي يعرف فيه الجميع أن الفتى هو من يجب أن يأتي لزيارتنا - بدلاً من ذهابنا إلى هذه المنطقة المحايدة»، نظرت بضغينة إلى عدّاد السيارة الذي تحرك في تلك اللحظة مبيّناً رقماً جديداً في خانة الروبيات، وكأنما يقصد إغاظتها.

« هذا أفضل يا آرونا، وتخيلي ما سيكون عليه الوضع من سوء بوجود فيشنو في تلك الحالة، بالإضافة إلى أننا وصلنا إلى تشرش غيت ولن تطول الرحلة كثيراً».

« تظن أنني أهتم إن كانت تكلف أكثر من ذلك؟ وهل تعتقد أن إنفاق بعض الروبيات سيشغلني عندما يتعلق الأمر بمستقبل ابنتي وسعادتها؟» واستنشقت أنفاساً من الهواء ثم صعّدتها في غضب.

«كل ما قلته هو المسافة - إن المسافة لن تطول أكثر من ذلك.»

«أعرف، أعرف، ولا حاجة بك لأن تعطيني دروساً في الجغرافيا، فقد عشت طوال حياتي في بومباي. ابتعد عن تلك النافذة يا شيامو- أم تريد أن يُقطع رأسك بواسطة إحدى حافلات (بست)»؟

أطلق العداد صوتاً جديداً وقاومت الرغبة في اتهام صاحب الأجرة بأنه تلاعب به، فكل هؤلاء الناس لصوص، وقد اضطرت إلى الزعيق في وجه السائق مرتين بسبب الطرق المختلفة التي حاول أن يسلكها. كم تكره سيارات الأجرة وترى أنها مضيعة كبيرة

للمال ـ من الأفضل دائماً انتظار حافلة ما والوصول في وقت متأخر بدلاً من ركوب سيارة أجرة. لقد حاولَت طوال هذه السنين إقناع السيد زوجها لكنها تشك أنه يستقلها في الخفاء.

«شيامو، ألم أخبرك بضرورة إدخال رأسك؟ كم سيبدو منظرك سخيفاً وأنت تتجوّل من دون رأس، فكر في ذلك، والجميع يشيرون نحوك ويقولون هذا هو الفتى الذي أخرج رأسه وفصلته له إحدى الحافلات». كان عليها الإذعان لركوب الأجرة اليوم بسبب كل تلك الحلي والحرير الذي ترتديه كافيتا. ونظرت إلى ابنتها الجالسة بينها وبين شيامو، وعلامات الجدية على وجهها فرأت كم تبدو متوهجة بحسنها. يبدو كأن تحوّلاً كاملاً قد طرأ عليها ـ فقد أبدت عناداً عند لحظة معينة، ثم ها هي مسالمة مذعنة بعد ذلك، سامحة حتى بأن تقاد إلى المطبخ كي تعلمها طريقة إعداد الغولاب جامونس (كان الدرس كارثياً، واضطروا فيما بعد للمرور بدكان الحلوى وشراء علبة منها. لكن ذلك لن يهم).

رأت السيدة آسراني أن ذلك ما يفعله الإقدام على تجربة الزواج لدى الشباب، وحاولت تذكر كيف كانت في مثل سنها. هل ارتدت أفضل ملابسها، وهل حاولت إعداد الغولاب جامونس أيضاً؟ حانت منها نظرة إلى زوجها الجالس في المقعد الأمامي في حين تتلاعب الريح بما تبقى من شعيرات قليلة فوق رأسه. كم يبدو لها أشبه بطفل، وهو يستمتع بالجلوس عند النافذة، وركوب الأجرة مثل شيامو الجالس بجوار النافذة الخلفية، وأحست بجيشان عاطفي غير متوقع في حلقها. ترى كم من الوقت مضى على ذلك؟ انطلقت المشاعر من حلقها نحو فمها ثم إلى أنفها. لقد مرّ زمن طويل منذ أن سافرا سوية في رحلة دون توقف في سيارة أجرة وحدهما، وتذكرت المثل القائل بأن الحياة عبارة عن رحلة لا يمكن اقتسامها إلا مع شخص واحد. جلست في المقعد الخلفي تنظر عبر النافذة ولم تتفطن إلى دمعة سقطت على خدها وبللت غطاء علبة الحلوى القابعة في حجرها.

كانت عيناها ماتزالان مبللتين عند مرورهم بسينما ريفال، وبدا لها أن شيئاً ما غير عادي يتعلق بهذا المكان. وفجأة تذكرت ماذا كلفها غياب ذاكرتها المؤقت، فصاحت في السائق: «من قال إن بإمكانك المجيء من هذا المكان، فالجميع يعرف أنه يجب المرور عبر شارع كويراج، أم أن عدادك ليس سريعاً بما فيه الكفاية لتأتي بنا من مكان بعيد أيضاً»؟

استمر التاكسي وله في القيادة مركزاً نظره على الطريق، ولأنها لم تحس بالرضا التام من توضيح وجهة نظرها بما يكفي استمرت قائلة: «كلك، كلك، كلك ـ كلما تطرفُ عيناي أجدُ رقماً جديداً في العداد. فهل تظن أنك تقلنا إلى بونا. انظر إلى المبلغ المسجل في العداد»!

أوقف السائق السيارة وغادرها فصاح شيامو بتعجب: «إنه يتركنا. انظروا فهو يدخل إلى دكان الشاي.»

«ماذا ؟» حاولت السيدة آسراني النظر من خلف كافيتا وشيامو لكنها لم تر شيئاً. «ماذا يفعل؟»

«يطلبُ فنجان شاي، فهل يمكننا الذهاب أيضاً؟» قال شيامو مبتهجاً، فقد كان هذا العرض بمثابة جائزة إضافية غير متوقعة تضاف إلى ترف ركوب سيارات الأجرة.

«الوغد، الغشاش. هذا بالضبط السبب الذي يمنعني من ركوب سيارات الأجرة.» ضغطت على الكلمات وكأنها خلاصة حكمة لقصة ما تؤكد عليها من أجل السامعين. ثم التفتت إلى زوجها: «عجباً، لا تكتف بالجلوس هنا، اطلب منه أن يعود.»

«بعد كل الذي تفوّهتِ به؟»

« ماذا قلت؟ وما العيب في قول الحقيقة؟ والعداد مايزال دائراً كما ترى ـ أنت الوحيد من بيننا الذي تعرف كيفية التعامل مع هؤلاء القوم، مع كل سيارات الأجرة التي تحب ركوبها ـ اذهب إليه»!

هكذا ذهب السيد آسراني للحديث مع التاكسي وله، الذي عاد بمجرد أن شرب الشاي، واستمروا في طريقهم إلى بناية السيدة لالواني من دون حوادث تذكر. لم يلق السائق بالاً إلى همهمة السيدة آسراني في الخلف حول إبلاغ السلطات عنه، وهو الذي جدد انتعاشه بشرب الشاي منذ قليل.

عندما حان وقت دفع الأجرة وجد شيامو الفرصة سانحة للحصول على آخر ما يمكن الاستمتاع به من هذه الدراما، فأشار إلى العداد ولاحظ بصوت عال كم تبدو الأجرة مبالغاً فيها، فتحصَّل نتيجة لمجهوده هذا على صفعة لا من أمه فحسب، وإنما من السيد آسراني أيضاً، ثم دُفع متباكياً إلى أعلى الدرج نحو شقة السيدة لالواني.

في بداية الأمر لم تنظر إليه، فذلك ما يفترض أن تفعله من ستصبح عروساً، لأن قصصهن تنسج في الغالب بواسطة آبائهن وأبوي الفتى وليس من قبلهن. وما فائدة النظر إلى الطرف الآخر إن لم يكن له رأي في مسألة الزواج؟ فإن شاءت الأقدار سترى الفتاة عريسها عندما يرفع عن وجهها الخمار في فراش الزوجية، وتضطر حينئذ إلى التطلع في وجه من سيرافقها طوال حياتها على هذه الأرض.

ستكون مثل سابقاتها من العرائس اللائي جلسن في غرف لا تحصى في طول البلاد وعرضها ينتظرن في صمت. بعد ذلك سترقص كما فعلت نوتان في فيلم ساراسواتي شاندرا ثم تخفي دموعها في وشاحها؛ وتشدو بالغناء حول محبتها الشديدة لحياتها الجديدة إلى الحد الذي تنسى فيه بيت أبيها.

فاضت مشاعر كافيتا مع شعورها بالتوحد مع سابقاتها من البنات. فيا للظلم الذي يضطرهن إلى القيام بهذا الأمر. حاولت التعلق بالفكرة، وأن تجرّب ما قد شعرن به تماماً، لكن نوتان استمرت في التشويش عليها. نوتان وهي ترقص مع كل هؤلاء النسوة في منزلها الجديد. نوتان وهي تغني حول إرسال خطابات إلى أمها عن السعادة التي ترفل فيها، ثم نوتان مرتدية ذلك الساري اللبني المطرز الجميل رغم صعوبة تمييز الألوان على أشرطة الفيديو وبالأخص الأفلام القديمة غير الملونة.

«كافيتا، يا عزيزتي، أقدم لك بران».

لم تصدق عينيها. بران؟ الشرير الذي روّع العديد من البطلات لسنين طويلة؟ بران صاحب العينين المخادعتين والفم الماكر. بران الذي يتلقى ضرباً مبرحاً من البطل في نهاية كل فيلم. من يطلق على ابنه مثل هذا الاسم؟ ورغم قرارها السابق بأن تخفض بصرها فإن عينيها تجولتا فوق لتريا كيف يبدو بران هذا.

كان يقف أمامها في ارتباك مثل صبي أوقفه أبواه هكذا، وطلبا منه الانتظار. حاولت النظر إليه لكنه تحاشاها واستمر ينظر تحت كما كانت تفعل. وعندما أمرته أمه السيدة كوتواني: «بران، حيِّ كافيتا»، طفح وجهه بِشْراً.

«أهلاً»، نطق من دون أن يرفع عينيه، وقاومت كافيتا رغبتها في القيام بدور العريس، فترفع وجهه بسبابتها وإبهامها.

حاولت الرد على ترحيبه بصوت أكثر خنوعاً مما صدر عنه، لكن بالمقارنة خرج صوتها أكثر قوة، ولاحظت أنّ أمها جفلت من ذلك. سيكون صعباً المحافظة على دور الفتاة الخجول الذي رسمته لنفسها، فكم مربك أن تضطر إلى منافسة بران على هذا الدور.

ظلت السيدة لالواني مع مجموعتي الآباء يحيطون بهما ويرقبونهما كأنهم يتوقعون أمراً ما؛ أو كأنهما موضوع لتجربة بيولوجية قد بدأت لتوّها، وحتى شيامو كان يحملق في اهتمام من وراء أمه. أليس من المفترض أن يقول أحد شيئاً أو يقوم بشيء ما، كي تتحرك الأمور إلى الأمام؟ أمّا هي فلم تقرر إن كانت ستخفض بصرها، أو تتركه حيث هو مركزاً على ذقن بران. ومرة أخرى منعت أصابعها من الحركة نحوه لرفع تلك الذقن.

السيدة لالواني هي التي نطقت أخيراً: «كافيتا تدرسُ الآن لنيل شهادة البكالوريوس من جامعة إلفينستون.» وكأن ذلك سيشرح كل شيء، وكأن هذا هو السبب الذي يقفون من أجله حولهما مشاركين في هذا التمرين.

«والتحقت كذلك بفيلا تيريزا»، أضافت أمها في توضيح أكبر للموقف.

«لقد تحصل بران لتوّه على وظيفة مع فولتاس»، عقبت السيدة لالواني معلنة عن تعادل في التعريف بالاثنين.

ثم مرت لحظة صمت، ليتمكن الجميع من استيعاب المعلومات المعلن عنها.

قالت السيدة كوتواني لكافيتا: «علمت أنك تتقنين عزف السيتار يا ابنتي».

مباشرة أطلق شيامو نخرة، فاضطر والده إلى جرجرته نحو دورة المياه.

«أوه، أعزف قليلاً كهواية»، ردت كافيتا. أخيراً وجدت نفسها تندمج في الدور وغضّت من بصرها كذلك تاركة نهاية كلماتها تتمطى لتترك انطباعاً لدي الجميع عما تبذله من محاولات للتغلب على حيائها الشديد.

«وماذا عنك يا بنيّ؟» خاطبت السيدة آسراني بران، «هل لديك هوايات أيضاً»؟

هز بران رأسه، وعند ذلك فركت أمه شعر رأسه قائلة: «بالطبع له هوايات، أخبرهم عن جمعك للطوابع يا بران».

لم يقل بران شيئاً، فالتفتت أمه إلى الجميع وأعلنت ضاحكة: «إنما يشعرُ بالخجل قليلاً»، وهنا أحست كافيتا بامتعاض شديد لهذا التعدي الإضافي على طبيعة دورها.

مع ذلك جرى حثه على الحديث في النهاية، وشرح متلعثماً طريقة تصميم مضخة المياه الجديدة، التي تقوم شركة فولتاس بتطويرها. وجه السيد آسراني بعض الأسئلة المتّسمة بتفهم المتعاطف، هازاً رأسه بالموافقة بعد كل إجابة، فبدت السعادة على السيدة آسراني لهذا الاختبار الذي يجريه زوجها للفتى - أخيراً ها هو يقوم بشيء مفيد - وعند هذا الحد أبدى بران معرفة ممتازة بالمضخات، ولا يبعده عن كونه زوجاً لابنتهم إلا بعض الأسئلة الإضافية.

في مرحلة ما من اللقاء أُحضِرت حلوى الغولاب، وعلقت السيدة كوتواني على استدارتها الرائعة، كما قضمت السيدة لالواني واحدة منها وأعلنت إنها غاية في الروعة. حتى السيد كوتواني تحركت مشاعره ليضع يده فوق رأس كافيتا في مباركة لها وهو في طريقه ليأخذ حصة إضافية من الحلوى. أما شيامو فأحضرت له حصته منها إلى الغرفة المجاورة.

«أعتقد أننا يجب أن نترك لهم بعض الوقت على انفراد»، همست السيدة لالواني في أذن السيدة آسراني، ثم تحرك الكبار إلى خارج الغرفة، في حين كان السيد كوتواني يقذف في فمه بآخر لقمة من الحلوى أثناء خروجه.

جلسا في صمت، كافيتا على كرسي وبران على أريكة بالقرب من الباب. أمعنت فيه النظر كأنما تقيّمُ خضاراً أو فاكهة في السوق. بوجهه بعض البثور وحتى أذناه ترك حب الشباب فيهما احمراراً، أو ربما يعود ذلك إلى الحياء بسبب ما ينتابه من الخجل مرة أخرى. رأت أنّ أنفه أكبر مما يجب بالنسبة إلى وجهه ـ وربما سيساعده لو أطلق شنباً رغم وجود مشكلة في شفته العليا التي تكاد تختفي. كما فاجأها عدم ارتدائه لنظارات طبية فقد توقعت أن يضع أصحاب المهن الهندسية كافة نظارات سميكة قوية ـ كذلك شكلت عيناه مصدر مفاجأة إضافية لها. فخلال المرات القليلة التي أتيح لها النظر إليهما رأت أن لونهما بني ومريح وترددت في وصفهما بالجذابتين، ثم استقر رأيها على أنهما لطيفتان. بدا لها هزيلاً بالفعل وهو يجلس محدودباً بتلك الوضعية فوق الكرسي ـ بالأكيد هو بحاجة لأن يقوم أحدهم بالإمساك بكتفيه وفردهما له.

تساءلت في نفسها عما سيفعل لو أنها تحركت نحوه وجلست بجانبه، ثم أمسكت بيده بين يديها. أو أن تضغط بشفتيها على شفتيه، أو أن تحرك يدها فوق بطنه وصولا إلى فخده كما علّمها سليم، وتمكنت من منع انفلات قهقهة منها. رأت أن بإمكانها جعله يتمدد بلا حيلة إلى جانبها على الأريكة خلال دقيقة واحدة. «كلا، دعني أذهب»، بإمكانها الصراخ ليعود الكبار إلى الغرفة راكضين.

صاحت بهما السيدة آسراني من الغرفة المجاورة: «هل تتحدثان إلى بعضكما أم ماذا؟ لا تشعرا بالخجل ـ وتحدثا».

ولأن بران لا يبدو عليه الاستعداد لقول شيء فقد تسلمت زمام المبادرة: «أحب الأثاث في غرفة استقبال العمة لالواني، وخاصة المعلقات على الحائط. هل تعتقد أنها من كشمير؟»

من جديد رأت الحياء ينتشر من وجنتيه فيهبط إلى رقبته ثم يصعد إلى أذنيه. نهضت لتفحص السجادة الفخمة، «وحواشيها بالذات، فهي منسوجة بعناية».

غمغم بران بشيء ما خلف ظهرها، فالتفتت إليه.

«هاه ؟ ماذا قلت؟ » سألته متلهفة لسماع شيء؛ أي شيء منه.

قال بران وعيناه البنيتان ترتفعان نحوها: «آمل أن توافقي.»

«ماذا قلت؟ »

«أنت جميلة جداً»، قال في اللحظة نفسها التي اقتحمت فيها السيدة آسراني الغرفة بعد أن عجزت عن الاحتفاظ بهدوئها لمدة أطول.

هما الآن في ضواحي لونافالا، ويرى فيشنو نفسه ممسكاً بمقود سيارة الفيات وبادميني تبدأ في الحركة بالقرب منه. ما إن يصلا إلى مركز المدينة حتى تكون قد طردت النوم عنها، تشعر بالجوع فتقول في أثناء مرورهما بمتجر للحلويات: «لنتوقف هنا ونتناول بعض البهاجيا الساخنة بالفعل».

كانت البهاجيا ساخنة بالفعل - والبائع ينتشل دفعة طازجة من تلك الفطائر من وسط قدر ضخمة مملوءة بالزيت، ثم يخلطها بالملح ويلف مجموعة منها في ورق الصحف، ويسلمها لفيشنو.

«هل أحضرت الباهاجيا المفلفلة؟» تسأله بادميني وهي تفتش في الصحيفة ثم تلتقط قرناً من الفلفل وتأخذ منه قضمة كبيرة قائلة: «آآه، ليس هناك ألذ من الباهاجيا الساخنة. كانت أمي تقلي حصة إضافية في كل مرة، من أجلي فقط لأنها إن لم تفعل فلن يحصل أحد على شيء منها».

«وأين أمك الآن؟» يوجه سؤاله فتنظر إليه بحدة، وعندها يكتشف بأن سؤاله غير مناسب.

«لم آت إلى هنا لسرد مأساة الرامايانا المحزنة»، قالت بوجه متجهم.

لكن فيما بعد تطوعت من تلقاء نفسها بالمعلومات: «تعيش أمي في راتناغيري، وتظن أنني أكسب عيشي من الخياطة».

تأخذ بادميني في الضحك، «هل يمكنك أن تتخيلني؟ أنا خياطة؟ ليس بإمكاني خياطة حتى حفاظ طفل، فما بالك بفستان. لكن على الأقل فهي لا تتوقع مني تزويدها بأي نقود في هذه الحالة، ليتكفل أبناؤها بإعالتها».

هناك العديد من الأسئلة في ذهن فيشنو. يحس بجوع لمعلومات حولها، وكلما انفتحت قليلاً تجاهه ستعدٌّ تلك خطوة نحو الوقوع في حبه. «هل تواتيك الفرصة لرؤية أمك»؟

لكنها لم تنصت لما يقوله، فقد شُوِّش فكرها بواسطة رجل يبيع الألعاب، وهنا تأمره: «اشتر لي هذه»، مشيرة إلى دمية من قماش محشو بالقطن.

يتجهان إلى سنست بوينت، ولأن المكان شديد الارتفاع، ظهرت لهما سحب ضبابية معلقة في الجو، حتى مع وجود ضوء الشمس الذي يعمل على تشتيتها. وتمتد الجبال من الشرق إلى الغرب على شكل جدار متين متصل، كما تزدهر منحدراتها بخضرة أشجار الغامبول. تظهر بوضوح الخطوط البيضاء الدقيقة لحدود شلالات المياه التي تنبع من المرتفعات مخترقة المساحات الخضراء، ومن مكان ما ينطلق الطائر بالغناء فتتردد أصداء نغماته خلال تموجات الهواء.

«هل تسمعه؟ ترى أين يختفي؟» تسأل بادميني راكضة نحو الحاجز وصائحة نحو الجبال من خلال قبضتها، «كو - كو، كو - كو»، ثم تميل رأسها لتصغي إلى صدى الصرخات. وتردد من جديد: «كو - كو»، لكن لا مجيب، فالصوت الوحيد الذي يصل إليهم هو اندفاع المياه من مكان تحتهما تتعذر رؤيته.

تلتفت لتأخذ وضعية تصوير مقابل الحاجز وتقول باندفاع: «تمنيت لو أحضرتَ آلة تصوير»، ثم تتحرك نحو أحد الأعمدة وتدعك جسمها به. تمسك الريح بثنيات الوشاح الملتف حول رأسها، وترفع بصرها فيبدو الحرير الأصفر على وجهها مثل نقاب، ويخطر بباله أنها ربما قد خرجت من معبد ما لتوها.

«لطيف أن لا أحد موجود هنا»، تقول في الوقت الذي يقترب فيشنو إلى حيث تقف على الحاجز. طوال الليل وهو يرنو إلى استلقائها بهذا القرب منه، وكان يرغب في لمسها، وتذوقها، بل وأن يُسكنها في أعماق كيانه.

«هذا جميل»، تقول له، ثم تتوقف عندما يدني شفتيه من شفتيها. وقبل أن تتمكن من الابتعاد ينجح في طبع قبلة من خلال النقاب؛ وتخفض بصرها نحو الأرض فيمسك بأطراف الوشاح ويرفعه ببطء عن وجهها.

«أنا عروسك؟» تسأله وهو يقبل جبهتها، ثم شفتيها مرة أخرى.

«هربت بعيداً عني، هل تذكرين؟»

«إذاً كم ولداً تود إنجابه من هؤلاء؟» تسأله ملوحة في وجهه بدمية القماش.

لوهلة فقط يتخيل فيشنو... أنهما معاً، بل ربما هم عائلة من ثلاثة، وأنهم قدموا من لونافالا مثل غيرهم من البشر للتمتع بعطلة طالما انتظروها. أما عند العودة إلى بومباي فهما مجرد زوجين طبيعيين تنتظرهما متطلبات الحياة الحقيقية. ليس من الضروري أن يكونا من الأغنياء، بل سيعيشان مجرد حياة عادية. يسكنان شقة أو حتى مجرد غرفة تحوي سريراً وخزانة، ودورة مياه سيشاركان فيها الآخرين في الغالب، ولديهما موقد كيروسين مثل الذي كانت أمه تملكه، وأن يكون لديهما عنوان معروف، وبطاقة تموين، وساعي بريد يحضر الرسائل إلى بيتهم، وعمل يتوجه إليه كل صباح، وامرأة هي زوجته.

ربما بيّن وجهه كل ما يفكر به لأنها توقفت عن الابتسام، واعتقد أنه شاهد على وجهها للحظة خاطفة نظرات قلقة مشوبة بالارتباك. ثم تنبه إلى المفارقة العجيبة في موقفهما وما جال بخاطره من صور بعيدة عن المعقول، وما اتسمت به مشاعره من سخف، ومدى حماقة مطاردة الانفعالات التي تكتسي وجه بادميني. فهو يعتقد الآن كم كانت غريبة هذه الرحلة، وكم يبدو غريباً وجودهما معاً في لونافالا، بل وكم غريب هذا المشهد الذي يمتد أمامهما. يفكر في السيد جلال المضحك المسكين الذي ينتظر سيارته في بومباي، وكيف ستكون ردة فعل بادميني عندما يطلب منها دفع ثمن وقود السيارة ليتمكنا من العودة. ثم يشعر بالسكينة تهبط عليه فجأة فتتملكه نوبة ضحك؛ يضحك من الخمار الذي مازال يغطي رأس بادميني؛ ويضحك من الدمية التي ماتزال تتدلى بجانبها؛ ويضحك لمفعول الراحة التي تمنحها ضحكته لعينيها. تشرع بادميني في الضحك أيضا، ومن مكان ما بين تلك الأشجار البعيدة يشاركهم الطائر بمحاكاة ساخرة، وبينما أخذت جلجلة غنائه المرح تزداد علواً كان فيشنو يسمع صداها في الوادي بأكمله، وتتردد عبر الجبال ثم تدوي في كبد السماء.

السادس

حلّ الظلام مع وصول سيارة الأجرة إلى دونغري، وكان صدى أذان العشاء يسمع من المباني، فأرهفت السيدة جلال سمعها لهذا الصوت المألوف. لقد افتقدت المسجد ببلاطه الأخضر الزاهي بالقرب من زاوية الشارع، وافتقدت النداء للصلاة المنبعث من صومعته معلناً تقسيم وقت النهار إلى فترات محددة. تعرف أن النساء في براقعهن السود منغمسات الآن في حالة مفاصلة من خلف خمرهن مع البائع في محل جزارة رحيم، وبجانبه قد يكون العجوز أنور شاسا مايزال يجلس خلف مكتب الاستقبال في فندق الله إجازت، يطلب من العاملين في المطبخ إعداد طلبات السمك المقلي، وأرجل الخرفان. تساءلت في نفسها إن كان سيتعرف عليها الآن، أو أنه سيقدم لها الحلوى من الوعاء الذي يحتفظ به بالقرب من مرفقه، كما كان يفعل في كل مرة ترسلها فيها أمها إليه لإحضار المشروبات الباردة.

سارت على امتداد طريق السجن، ثم انعطفت صوب شارع السوق. كان الممر مزدحماً كما هو على الدوام بمجموعات من البشر يدورون في أنحاء المكان يتجادلون مع البائعين المفترشين للأرض. في أرجاء المكان توجد أكوام الخضار والفواكه، أكداس من حبات الباذنجان السوداء اللامعة، وثمار البرتقال المكدسة بعناية في أشكال هرمية، وسلال مملوءة بحبات الطماطم الناضجة شديدة الاحمرار. والأجمل من كل ذلك الصناديق المملوءة بثمار المانغو الخضراء والصفراء، وهي ملفوفة بالورق بشكل جزئي للحفاظ عليها من التعرض للرض. لاحظت وجود بائع متجول يعرض قطع غيار مواقد الكيروسين، وآخر يبيع دواء مكافحة الحشرات (عدا أن علامتها كانت أودومول، وليس أودوموس). وخارج دكان يعرض لحوم إندوري اللذيذة وقف صبي يبيع نحو دستة من الدمى البلاستيكية المتماثلة المرصوفة فوق خرقة قماش، كانت الدمى تبدو مثل أطفال من دار الأيتام قد جرى رصهم في صفوف منظمة. «ثلاث دمى بروبيتين، ثلاث دمى بروبيتين»، يعلن البائع عن بضاعته، فأحست السيدة جلال وكأن مئات العيون ترمقها من الأرض، معاتبةً إياها لعدم التقدم لإنقاذها مع هذا العرض المغري.

توقفت للحظة عند وصولها إلى زاوية طريق ناووجي هل. فعلى امتداد الشارع وبالقرب من محطة الحافلات بعد المنعطف، كان مطعم الشاتوالا حيث التقت أحمد للمرة الأولى، وتساءلت إن كان ما يزال في مكانه، وأن عليها التوجه هناك لمعرفة الأمر. كل تلك الأماسي التي خضعت فيها مع نفيسة إلى ما يعدُّ به طعم الفلفل الحار من مذاق حاد في أفواههما، وتوقٌ إلى شراب تمر الهند وهو ينساب مدغدغاً حلقيهما، حيث يأسرهما كل ذلك ويلفهما مثل سمكة معلقة في نهاية خيط سنارة. كان ذلك في ليالي الشتاء المظلمة، وفي أثناء فصول الصيف الحارة المزعجة، وحتى في أكثر أيام موسم الرياح الموسمية غزارة بالأمطار، حين تقفان ملتصقتين بالقرب من مطعم الشاتوالا تحت مظلة موقف الحافلات، وحين كانت الريح تحاول اقتلاع الأوراق المطوية داخل الأكواب التي في أيديهما.

ثم تذكرت تلك الليلة المقمرة التي ملأت فيها النجوم السماء - أم ربما كانت ليلة غيماء خلت من النجوم؟ - عندما سحقت فطائر الغولغابا في فمها للمرة الأولى، فأحست بالألياف الهشة، وبملمس الحمص الليّن بين أسنانها، ثم تذوقت صلصة الشتني الحريفة اللذيذة فوق لسانها، وأغلقت عينيها عند تدفق شراب تمر الهند وهو يجري في حلقها. غالباً ما كانت الجرعة الأولى من الطعام المتبل الحامض تجعل الدموع تقفز من عينيها، وبينما كانت تمضغه تفطنت بشكل غائم لأحمد وهو يبتسم لها من الطرف القصي لمجموعة الزبائن الواقفين على شكل نصف دائرة. رفع ورقته نحوها، وعندما وضع عليها البائع حصته من الغولغابا، غرف أحمد منها ثم أغلق عليها فمه وارتسم على وجهه تعبير ينم عن حالة عالية من الرضا المترف، ولم يكن هذا العرض إلا من أجلها فقط.

ولأنها لم ترغب في الاستجابة إلى ما قام به، أشاحت عنه بوجهها على الفور مركزة نظرها على الأواني المعدنية الكبيرة، ومعدات الطهي الفخارية الموجودة على قطعة القماش الأحمر التي تغطي نضد الكشك. راقبت باهتمام كيف تتم صناعة كل حبة غولغابا على حدة: ما تتلقاه من نقرة خفيفة بالسبابة لإحداث تجويف في جزئها العلوي، ثم عملية ملئها بغرفات من الحمص والشتني، وفي النهاية يتم غمرها في شراب تمر الهند، عندما تختفي يد البائع فيه حتى مرفقه تقريباً. كانت مصممة على شغل انتباهها

بهذه الطريقة، لكن السائل تسرب من حصتها الثانية من الغولغابا، فأمالت رأسها كي تبتلع السائل الذي انتقل إلى الورقة، وهنا اشتبك بصرها بابتسامة أحمد مرة أخرى.

كادت ترد عليه بابتسامة، لكنها أمسكت عن ذلك في الوقت المناسب، وبدلاً منها تمكنت من استدعاء تكشيرة، وأملها أن تشتعل هذه التكشيرة بنفس قوة اشتعال مصباح الكيروسين الموجود فوق منتصف النضد. نجح مخططها - فهو لم ينظر بعيداً فحسب، وإنما أشار إلى البائع بأنه اكتفي، وأنه جاهز لدفع حسابه.

في أثناء بحثهما لاحقاً عن اللفت في السوق، أخبرت نفيسة بما حدث معها.

«كم أعجب لجرأة هؤلاء المزعجين، فوقاحتهم تزداد يوماً بعد يوم، وتخيلي أن يقوم بذلك بعد تناول الباني بوري (اسم آخر للغولغابا) المقلية!» ثم هزت نفيسة رأسها: «لكن أخبريني، يا عريفة، كيف كان شكله – فهل كان روميوك هذا وسيماً على الأقل؟»

«ليس روميوي»، ردت بحدة: «وكل ما حاولت القيام به هو تناول الغولغابا، لا أن أكون حكماً في مسابقة جمال».

«بالطبع قمت بالشيء الصحيح، ولكن لم كل هذه القسوة، فهو لم يفعل أكثر من الابتسام في وجهك، هذا المسكين».

كانت على وشك توبيخ أختها لما أبدته من سذاجة، عندما ظهر أمامهم أحمد بشكل مفاجئ أمام مكتب فندق الله إجازت.

«يا إلهي، إنه هو، وهو يتحدث إلى أنور شاسا».

ما قامت به أختها حينذاك لم يكن أكثر من مزحة، لكنه غيّر كل شيء، بل غيّر حياتها.

« هيا بنا نمارس بعض الألعاب»، قالت نفيسة وهي تمسك رسغها وتجرها نحو أحمد.

منذ ذلك الوقت لم تستقر بعد حول كم يتوجب عليها أن تحمل لأختها من مشاعر العرفان، أو من الحنق تجاه فعلتها تلك، فطوال هذه السنين كانت قد شعرت بكليهما بقدرٍ متساوٍ. تبين أن أحمد هو ابن صديق لأنور شاسا؛ أما وقد ثبت الآن ما يحوزه من مؤهلات، فقد جعله ذلك يحظى بنوع من الاحترام ـ والأهلية. أعلنت نفيسة أنه غاية في القبح، وقد فوجئت لما انتهى إليه ذلك اللقاء من تطورات. (مع كل تلك الندوب على وجهه ـ من المؤسف أنه أصيب بالجدري في السابق، ولكن هل يعني ذلك أن على المرأة أن تتزوجه رأفة به؟) لكن عريفة نظرت أبعد من وجهه، وأبعد من الندوب، نظرت إلى العاطفة القوية التي تشتعل في عينيه. وكانت مبهورة بها وخائفة قليلاً في الوقت نفسه، لأنها لم تدر من أين تنطلق، أو المسافة التي يجب على المرء أن يجتازها في معرض تنقيبه عن مصدرها.

أحست بالإطراء، فها هو شخص ما يهتم بها. ليس بنفيسة الفاتنة ولكن بها هي، عريفة، التي يعوز أطرافها التناسب ويفتقر جسمها إلى اللياقة؛ عريفة التي ترى عمتها أن قبح وجهها يشعّ بكل مهابة، والتي قيل لها: ليس لشخصية مثلها إلا أن تطمح في دماثة الخلق فحسب. وها هو رجل خاطبٌ ودّها؛ يريد أن يتعرف إلى ما تفكر به وإلى مشاعرها، مقدماً لها وعداً تقبلته بكل طيش، بأن يحملها بعيداً ويغيّر عالمها. ارتعشت عندما أمسك أحمد بيدها وأخبرها بكل ذلك فوق ذلك الجزء الصغير المخضرّ من الأرض بالقرب من المسجد، وكانت البنايات تقف في صمت من حولهما، ونوافذها شاهدة عليهما.

ستذكرُ على الدوام ذلك اليوم غزير الأمطار من شهر يوليو، وهو ليس ببعيد عن لقائهما الأول، عندما تسللا إلى شرفة الطابق الثالث في الأعلى. كانت قد أمضت معظم الصباح وهي تقوم بتجريب أدوات زينة نفيسة على وجهها، وبينما كان أحمد يقودها إلى أعلى الدرج تساءلت إن كان المطر سيفسدُ زينتها. جذبها إليه وحضنها، فأحست بحرارة جلده من خلال قميصها المبلل. أخذت أصص الأزهار على رف الشرفة تمتلئ بالماء، وراقبت الماء الذي تحول لونه إلى الأحمر بفعل الطين وهو يسيل من حوافها ليختفي في الشارع من تحتهم، كما تناثرت قطرات المطر من فوق وجهه لتحط على وجهها، وفوجئت عندما وجدت فمها يبحث عن فمه. لدهشتها اتصلت شفاههما فتسمّرت في مكانها وقد أسرها ما أحدثته القبلة من صدمة.

برّ أحمد بوعده وأخذها بعيداً عن عالمها ـ عن المسجد، والسوق، وعن بيتها، وعائلتها. أحسّت بغرابة شديدة عندما انتقلت معه إلى شقته التي تقع بين سكن عائلات هندوسية من فوقها ومن تحتها. وبدلاً من المسجد في مكانه السابق، هناك كنيسة في الجهة المقابلة من الشارع، وكانت قمة صليبها الأبيض ظاهرة لها من خلال نافذة غرفة نومها عند استلقائها على السرير. افتقدت السوق أكثر من أي شيء آخر، فدكان الفواكه هنا مجاور لعدة دكاكين مختلفة تخلو من البساطة، وأسعارها مبالغ فيها، ودكان اللحوم بعيدٌ يصعب السير إليه على الأقدام، ولا يوجد أنور باشا هنا ليحييها عند المقهى الإيراني أسفل البناية.

استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن تتعلم الإنصات إلى بائعي اللحوم وبضائع أخرى يتنقلون بها من بيت إلى آخر، معلنين بصوت عال عن بضائعهم وباحثين عن الزبائن في الشرفات. أعلمتها السيدة تانيغا القاطنة في الطابق العلوي عن مكان بائعي الوجبات الجاهزة بالقرب من بريتش كاندى، كما اكتشفت أن بإمكانها ركوب الحافلة ٨١ إلى المسجد بالقرب من محطة مترو. أما تحت فقد بدأ البان وله بتحيتها بـ «تحية لك، يا ممصاحب جلال». وبدأ السفائر وله يفعل مثله. وفي كل مرة يراها فيشنو فوق الدرج، يسأل إن كانت المصاحب بحاجة إلى سيارة أجرة، فهو يركض لإيقاف واحدة لأجلها إن هي أبدت موافقة.

لم تتمكن قط من حلّ لغز سرّ إعجاب أحمد بها ولماذا تزوجها أصلاً. في النهاية فهو ينحدر من عائلة تتميز بالغنى والثقافة، وليست هي بالفتاة التي كان والداه سيختارانها له (كما أكدت لها أمه ذات مرة). في البداية ظل هذا التساؤل هاجساً يقض مضجعها، فحاولت أن تستخلص إجابة له، لكن مع مرور الوقت أيقنت أنها ربما لا ترغب فعلياً في معرفة الإجابة عن سؤالها.

ورغم ذلك فطالما ساءلت نفسها إن كان أحمد قد أحبها في تلك السنوات الأولى، فهي تمثل الفترة الحرجة التي قد يكون ما يظهر فيها من حب كافياً للاحتفاظ بذكريات عنه تدوم لعمر بأكمله، أو هكذا تقول الأغنية. كادت تقوم هي بذلك عندما وصلت إلى

المرحلة التي بإمكانها أن تنظر داخل قلبها، وترى المساحة التي أعدتها له. ولو استمرت قليلاً، لمكنته من الدخول وأسرته هناك إلى الأبد. قد لايزال هناك بعض الشكوك والعذاب النفسي، ولكن كان بمقدورها احتواء أي شيء داخل جدران قلبها السميكة.

ندت عنها تنهيدة، فهذا ليس بالوقت الذي يجب الانشغال فيه بما يحمله الناس في قلوبهم من حجيرات خاوية، ولا هو الذي تتذكر فيه أيام شراب تمر الهند في الماضي. فهي في زيارة إلى نفيسة للحديث عن كل الأمور، لا أن تنهار لانتزاع الشفقة منها. ومن الأهمية بمكان أن تحافظ على رباطة جأشها، وتنأى بذهنها بعيداً عن تلك الأفكار التي تدفع العواطف للجيشان.

ثم ألقت نظرة أخيرة على محطة الحافلات التي اختفت من مكانها، وعبرت الشارع ماشية المسافة الباقية نحو البناية التي تقطنها نفيسة.

جلست كافيتا إلى طاولة الأكل، تمعن النظر في دجاج الماسالا المتبل في الطبق أمامها، فهو طعامها المفضل، وقد حرصت أمها كثيراً منذ هذا الصباح على قلي الماسالا ليصبح لذيذاً ومحمّراً، ثم زينت الطبق بأوراق شجر البلاذر الغربي قبل تقديمه. كان لطبق الأرز المصاحب اصفرارٌ فاقع من أثر الكركم، وقد أحيط بكثير من البصل المقلي الذي تحب كافيتا التهامه. أسرّ لها شيامو ببهجة في أثناء جلوسهما: «يوجد حتى بوظة الحليب للتحلية، ولا بد أن تمكني الكثير من الخاطبين من النظر إليك قبل أن توافقي على أحدهم».

كان الطعام آخر ما يشغل بال كافيتا، فكل ما فكرت به خلال الضباب الذي اكتنفها طوال رحلة العودة من بيت العمة لالواني، هو الكلمات التي تفوّه بها بران:

«آمل أن توافقي».

لم تفعل أكثر من الوقوف هناك والنظر إليه. كان وجهه يرتفع نحوها، وعيناه تقابلان عينيها، بينما تتحول رقبته، وأذناه، وخداه إلى اللون الأحمر.

«أنت جميلة جداً».

لا تكاد تصدق ما يحدث، لقد نجح سحرها، فأوقعت مهندساً في شراكها كما كانت تخطط من البداية. ترى إلى أي مدى أوصل جمالها هذا الخجول المسكين، إلى الحد الذي استجمع فيه الشجاعة للتفوّه بهذه الكلمات. توسعت عينا بران أمامها مثل تويجات زهور تتفتح في الضوء - بإمكانها الإحساس بالأنفاس تمسك بتلابيب حنجرته، وأن تسمع صوت الدماء يدق في أذنيه.

تساءلت أي جزء منها يرى أن طغيانه لا يقاوم؟ تلك الخصلات (كما يقول الناس) التي تلتوي حول محيط وجهها بانتظام كامل، أو الضفائر (كما يضيفون) التي تتدلى بترف حول كتفيها؟ أم هما عيناها باستدارتهما واتساعهما الكامل (انطلق قلم تخطيط الحواجب في العمل هذا اليوم)، واللتان طبعت السيدة كوتواني عليهما قبلة محبّة في أثناء وداعها. أو ربما هما شفتاها اللتان زينتهما بقلمها (الريفلون) الجديد لطلاء الشفاه، الشديد الاحمرار إلى الحد الذي منعتها أمهما من ارتداء أي فستان أحمر معه. حافظت على بروز شفتيها ومررت لسانها عليهما باستمرار للمحافظة على لمعانهما. ولاحظت تسلل عيني بران إلى الأعلى عدة مرات لتصلا إلى مستوى شفتيها قبل أن تحيدا بعيداً.

من المؤكد أن هذا النجاح الذي حققته في محاولتها الأولى للغواية هو دعوة للإطراء، فلماذا إذاً ظل جانب منها في حال ارتباك عالية؟ هذا الجانب الذي لاحظ الشعيرات الدقيقة الملساء على شفة بران العليا؛ الجانب الذي اكتشف تلك الرعشة في حنجرته عندما حاول جاهداً إخراج الكلمات، والجانب الذي نظر في عينيه بشكل قد يكون أعمق مما يجب، دون أي مراعاة لجانب الاحتراس. واكتشفت رقة وحساسية تختبئان فيهما خلف غلالة الخوف، وللحظة أحست بصدرها يرتجف استجابة لتوقه وأحست برغبة في أن تحتويه في حضنها وتطرد عنه توقه الموجع، وأن تصل إليه من خلال جبنه، وتمكن الرقة المحبوسة داخل عينيه من الخروج لتشعر بدفئها يستكنّ في حرارة على وجهها.

«انظروا إليها فهي لا تأكل شيئاً»، قالت أمها وهي تأتي بالبوظة، «وما خطبك إذاً، ألا تستطيعين نسيان هذا الذي يدعى لا أدري ماذا؟» ابتسمت السيدة آسراني موزعة إشراقها على الجالسين إلى المائدة.

في مكان ما كانت الأنوار تخبو تدريجياً، وبدأ عرض الفيلم. كان أبواهما يحضنان بعضهما بعد إعلان موافقتها. كما كانت أنيتا وبقية صديقاتها يقهقهن على زخرفة يديها بالحناء، في حين يصطف الناس على الرمال في منطقة جوهو لإلقاء نظرة على وصول موكب العرس، والأبواق وآلات الترومبون تصدح بأغنية من فيلم بوبي، كلا بل من فيلم الكذبة الصادقة، بل من فيلم طريقين، كلا... يتعين عليها التفكير في نوع الموسيقى بالضبط.

يصل بران ممتطياً صهوة مهرة مثلما فعل العريس في حفل زواج أنيتا، وسار بها طوال المسافة إلى مدخل فندق الهوليداي إن. أو ربما كان فندق أوبروي بعد إلحاح من عائلة كوتواني على اختياره، وكانت أنيتا تمتلئ غيظاً. وقد اضطروا بكل أسف إلى نقل شيامو بعيداً عن الاحتفال، لالتهامه عدداً كبيراً من قطع الحلوى، أما العريس فكان يحمر خجلاً أكثر من العروس عندما بدأ الكاهن في أداء صلواته.

وعند هذا الحد يبدو أن بكرة من فيلم مختلف بدأت تتداخل مع الأولى، فها هي مرة أخرى ترتدي ملابس العرس، لكن الجالس بالقرب منها الآن هو سليم، وليس بران. وهما ليسا في الأوبروي، أو حتى في الهوليداي ان، بل يجلسان في قطار في محطة فكتوريا. تنطلق الصفارة ليبدأ القطار في الحركة ويغادر المحطة ببطء. تبدأ الشوارع بالمرور من خلال النافذة، والبيوت المضاءة ومصابيح الكهرباء، والبائعون يجرون عرباتهم خلال الأسواق الفارغة. فالمحطات مقفرة في هذه الساعة من الليل، ثم تمتد ذراعا سليم لتحضناها، ويقترب وجهه من وجهها، وينظران سوية من خلال النافذة نحو المدينة التي عاشا فيها طوال حياتهما.

فجأة يعود الفيلم الأول مرة أخرى، فترى نفسها جالسة فوق السرير المنثور ببراعم الورود في جناح العرسان بفندق أوبروي. أحست بخمارها يرتفع ونظرت إلى أقدامها المخضبة بالحناء، وسمحت لعينيها بالنظر فوق إلى وجه بران، عدا أنها لم تر عينيه بل رأت عيني سليم بدلاً منهما. تلك النظرة الشزراء الخبيثة التي عرفتها جيداً، وتلك الشفاه التي بدت لها على استعداد دائم للتقبيل. ضغط فم سليم على فمها وشمت رائحة

جلده المفعم بالحيوية، وتذوقت طزاجة معجون الأسنان على لسانه، فسبحت تويجات الزهور بعيداً، واهتزت الغرفة وتلاشت من حولهما، في حين بدأت السماء تضيء من خلال النافذة. وجدت نفسها تلتصق بالقرب من سليم في إحدى كبائن القطار وملاءة تغطي جسديهما، كان الفجر يسابق الطريق معهما حين أبان خيطاً برتقالياً رفيعاً عبر الحقول في الخارج، فأغلقت عينيها فوق صدر سليم وتركت القطار يهدهدها للنوم مجدداً.

«إذاً، ماذا ترين يا عزيزتي؟» قالت أمها مقاطعة مشهد الفجر في القطار الرومانسي. وأحست كافيتا بيد تربت على شعرها متسائلة: «أترين أن نستمر في هذا الأمر؟»

«حقا يا آرونا، يلزم رسم بعض الحدود هنا ـ فاتركي لهذه الطفلة المسكينة فرصة لالتقاط أنفاسها على الأقل»، قال الوالد.

«ابق بعيداً أنت عن هذا الموضوع يا سيدي، لقد تركتها تطلق الكثير من الأنفاس، وحتى الموجودون في الشارع من تحتنا كانوا يستمعون إلى أنفاسها»، ثم حانت منها التفاتة رأت فيها التعبيرات على وجه كافيتا، وسرعان ما هدأت من لهجتها، «ما أقوله هو إن كنا معجبين به فلا يجب أن نعطل الترتيبات. ماذا لو قامت فتاة أخرى غداً باللعب بعقله، فالمهندسون لعلمكم لا ينبتون فوق الأشجار، وبالأخص مهندسو فولتاس.»

«في رأيي يجب أن نعرض عليها المزيد منهم، وأرغب أن تكون البوظة القادمة بنكهة الفستق»، أعلن شيامو وهل يلعق أخر بقايا البوظة التي أمامه.

هل يجب أن ترد بالموافقة؟ وأن تتزوج بران؟ ماذا عن سليم؟ وماذا عن النقود التي سحبتها من المصرف؟ حتى لو أعادتها الآن فكيف ستشرح الأمر عند حضور تقرير كشف الحساب الشهري؟ بالإضافة إلى أن الساعة بلغت التاسعة والنصف، وسيكون سليم في انتظارها في الشرفة عند منتصف الليل.

أُعيد لف بكرة الفيلم إلى ليلة زفافهما من جديد، عدا أن الأمر مختلف هذه المرة، فبينما تجرى مراسم تزويجهما، وقف سليم وحيداً في الشرفة يترنم بأغنية حزينة،

ينظر عبر الخليج منادياً على حبيبته، ويذكرها بالوعود التي قطعاها على أنفسهما. أما عيناه اللتان طالما امتلأتا بالهزل، فهما فارغتان ونظراتهما غائمة وبعيدة.

كلا فهذا محزن للغاية، لا يمكنها أن تفعل ذلك لسليم، وعليها أن تجد طريقة أخرى. لكن من أين لها الوقت؟ فقد عُلّق ساريها إلى قطعة قماش العرس التي تجر خلف بران، وهم على وشك البدء في الدوران سبع مرات حول النار.

فجأة يجلجل صوت في أنحاء الصالة، يحمل في طياته سلطة ألف زواج مر به، ومعلناً الجملة التي لا مهرب منها منذ بدأت السينما الناطقة.

«هذا الزواج لا يمكن أن يتم»!

يمسك الجميع عن الحديث ويرفع الناس عيونهم في صدمة، ويسقط الكاهن ملعقته المقدسة في النار، وعندها يحاول بران نزع غطاء رأسه، لكنه لا يفلح.

يدخل سليم راكباً المهرة نفسها التي حملت بران إلى الفندق من قبل، يعدو بها عبر صالة حفلات الأوبيروي وهي تثبُ فوق الموائد المكدسة بالأطعمة، وينتشر الضيوف خلف الأثر الذي يتركه، حين يمتطي المهرة قاصداً المنصة نفسها.

بضربة واحدة من سيفه يشق سليم العقدة التي تربط كافيتا إلى بران، ويرفع كافيتا مستخدماً ذراعه الثانية، ثم يلوّح للحاضرين المذهولين. يحوّل وجهة مهرته لتصعد بهما الدرج، فيقتحمان صالة الاستقبال ثم يتجهان إلى الليل في الخارج. وتمر المهرة عدْواً بمبنى الخطوط الهندية، وبالحديقة البيضاوية، ثم بنافورة فلورا. ومن بعيد تشاهد كافيتا الملكة فكتوريا تقف فوق محطة قطاراتها، ممسكة بعلامة الأمل التي تحملها دوماً فوق رأسها، منيرة لهم طريق الهرب، إلى النصر، وإلى الحرية. كان القطار في انتظارهم داخل المحطة، والبخار ينبعث من فتحات محركاته الخلفية.

حتماً ستفعلها، ستهرب مع سليم، فالأمر مقدرٌ هكذا. ولن تحاول التفكير في ذلك البائس وهو يحاول نزع غطاء رأسه في صالة الأوبروي الخاوية.

«أمي»، قالت كافيتا، فأشارت الأم إلى الجميع بالتزام الصمت، «أمي، أعتقد ـ أعتقد، أنني ربما أوافق».

غربت الشمس، وحلت الظلمة على الدرج من جديد، وتوقفت الأصوات في أرجاء المكان. وبإمكان فيشنو رؤية بسطة الطابق الأول من تحته.

ينساب الغناء من أسفل الدرج نحوه. أنت من فعل ذلك، نعم أنت من غافلني وسرق قلبي... ضحكت علي وسرقت قلبي... تصله الكلمات ضعيفة ومختنقة.

ينصت فيشنو لكلمات الأغنية. لا أدري كيف نظرت إلي، لكن قلبي صار يدق تك، تك، تك... كان الغناء يأتي من البسطة التالية مباشرة، التي تقع بين الطابقين الأول والثاني، فيقرر تتبع مصدر اللحن.

... تك، تك، تك...

كان ذلك الراديو وله يجلس محدودباً فوق بسطته، وقد وضع ملاءة من القماش على كتفيه. كان الراديو في حضنه، ورأسه مائل بزاوية للأمام وكأنه يحاول التقاط همسات رضيع، في حين كان الصوت منخفضاً إلى الدرجة التي لا يستطيع سوى فيشنو الإنصات إليه بما أوتي من قدرات جديدة في حاسة السمع.

ربما أحس الراديو وله بوجود فيشنو لأنه ضم يديه حول ركبتيه محيطاً جهاز الراديو بملاءته. أدار وجهه إلى هذه الناحية، ثم الأخرى، وغطس برأسه في الحجيرة التي كونها، يشد الملاءة على رقبته ليمنع الموسيقى من التسرب. مايزال بإمكان فيشنو أن يسمع كلمة تك، المعتادة، لكن بقية الكلمات تظل حبيسة بالداخل.

ينتزع الراديو وله رأسه من الحجيرة مثل كلب يرفع وجهه عن صحن طعامه، ويجري مسحاً بنظره للبسطة من جديد، ثم ينحني مرة أخرى وهو يشد الملاءة فوق رأسه هذه المرة. يجلس هناك في الظلام تغطيه الملاءة، وتنعدم الحركة في جسمه.

قابل فيشنو الراديو وله للمرة الأولى منذ عدة سنوات، عندما انتقل فيشنو للبناية أول مرّة. أي في ذلك الوقت الذي لم يملك فيه الراديو وله الجهاز بعد، واسمه لايزال ناثورام، يعمل أجيراً على عربة يدوية، وطموحه الملحّ والوحيد في الحياة الذي أفضى به يوماً لفيشنو هو أن يمتلك جهاز راديو ترانزيستور، من ذلك النوع الذي يكون داخل غطاء من الجلد البني اللماع، والموجود عند صالة عرض أجهزة فيلبس في زاوية كيمب.

ولأن ناثورام لم يملك عربته الخاصة، فلم يكن عمله متواصلاً، حيث يجلس لأيام عند خزان جنوالا مع بقية سائقي العربات اليدوية منتظراً دوره في العمل. وفي كل مرة يحصل فيها ناثورام على أجرته عن عمل يقوم به كان يوفر قسطاً منها، حتى لو كانت قطعة نقود صغيرة لا تتعدى بياستين أو ثلاثة، ليضعها في كيس كبير من القماش يربطه حول عنقه، وعادة ما يعلن رنينها من بعيد عن وصوله إلى الدرج. عندما تتجمع القطع المعدنية لديه كان يستبدلها بروبية ورقية عند السغائر وله، الذي يؤدي له هذه الخدمة دون أن يحصل منه على عمولة، طالما استمر ناثورام في شراء سغائر البيدي منه بالمقابل. (شراء اثنين منها مقابل استبدال أوراق من فئة الروبية الواحدة إلى فئات أعلى منها).

« تحصلتُ على إحدى عشرة روبية اليوم»، كان يقول لفيشنو، «أربع عشرة روبية»، «ثماني عشرة»، « أربع وعشرون»، والحصيلة تزداد شهراً عن آخر، وسنة عن أخرى. كان فيشنو يجلس إليه في قاع الدرج منصتاً إلى حديثه عن كم ستبدو الأمور رائعة عند حصوله على الراديو، وكيف ستمتلئ البناية بالأصوات الرائعة لكل من ناوشاد، ومادان موهان، أما صوت لاتا الساحر فسيكون مثل نبات متسلق يلتف حول الطوابق المختلفة، تصل محاليقه لتلمس كل ركن وزاوية من البناية. سيكونون مدعوين كلهم للتجمع في الأماسي للاستماع إلى برامج خاصة عن موسيقى الأفلام، مع تخصيص بعض الليالي للأغاني التعبدية، وربما موسيقى غربية في بعض الأحيان.

أخيراً جاء اليوم الذي حقق فيه ناثورام حلمه، وحمل بفخر الصندوق الأحمر القاني إلى بسطته. رتبت غاناغ الطويلة للعودة مبكراً من أعمال التنظيف التي تقوم بها، وحتى السفائر وله تسلق الدرج مجهداً للمشاهدة. أنفق ناثورام عدة دقائق لفك الدبابيس فقط، وكان مصمماً على المحافظة على أدق تفاصيل الصندوق سليمة؛ فأخرجت كل قطعة من مواد التغليف بالداخل بحذر شديد، ومُرّرت بعناية على المتحلقين به لإبداء الإعجاب بها. كانت غاناغ الطويلة مفتونة على الأخص بمادة الستايروفوم الهشة المستخدمة في التغليف، وسألته إن كان في استطاعتها أن تحتفظ بعينة منها، لكن ناثورام رُوّع لطلبها وسرعان ما انتزع القطعة من يدها.

عند الانتهاء من تمرير آخر القطع وضعها جانباً، وران على الموجودين بالبسطة صمت الترقب. رفع ناثورام يديه وأخذ يلفهما في الهواء مثل ساحر يعرض يديه للمشاهدين قبل تقديم نمرته. ثم أدخل يديه في أعماق الصندوق وأخرج الترانزيستور بكل بطء. أوّل ما بان على الجميع هو زرّ البحث عن المحطات يلمع ضمن صف من الأزرار في أعلى الجهاز، ثم تلته نافذة تبيان المحطات باللون الأسود الناعم، وقد طُبعت عليها الأرقام بالأصفر على خلفية زرقاء، ثم ظهرت الواجهة الفضية وعليها فجوات مكبر الصوت مرتبة على شكل دائرة متناسقة. حمل ناثورام الراديو بين ذراعيه وكأنه يحمل طفلاً، جاهزاً لسحبه بوجه السرعة في حال اقتراب يد أحدهم أكثر مما ينبغي.

في الليلة الأولى ملأ صوت الراديو المساطب كافة في البناية، وقد أرشد السفائر وله ناثورام إلى مصدر للكهرباء لم يستخدم منذ أن وجدت هناك مصابيح كهربية لإنارة كل بسطة، ولم تغادر الجماعة المكان في تلك الليلة حتى انتهاء برنامج محطة فيفيدي بهاراتي الساعة 11:30، ثم حاول ناثورام بعد ذلك العثور على محطة ما على الموجات القصيرة، لكن الإشارات كانت تصله ضعيفة مهما عدّل من اتجاه الهوائي. صعد فيشنو إلى المكان بعد أن غادره الجميع ليجد ناثورام مستغرقاً في النوم، والراديو مندساً بين أحضانه، فيما كان ينبعث منه صفير موجات استاتيكية تملأ أرجاء البسطة مثل مد أثيري.

سرعان ما أصبح الراديو جزءاً أساسياً من الحياة في البناية، ففي كل صباح يصحو فيشنو على دعاية شراب معالجة السعال غلايسودين من راديو سيلان، وعندما يسمع أغنية كي إل سيغال يعرف أن الساعة تقترب من الثامنة، ويكاد وقت إطفاء الجهاز يحين. بعد دقائق يهبط ناثورام الدرج حاملاً الترانزيستور في حقيبته الجلدية مربوطاً إلى عنقه. وفي المساء كان ناثورام يحيّي القادمين الذين يصعدون إليه، محدّداً أماكن جلوسهم على البسطة مثل موظف في دار سينما. أما البرنامج الأكثر شعبية فهو «ما يطلبه المستمعون» في الساعة 9:30. وادّعت غاناغ الطويلة أنها أرسلت للبرنامج بطلب ما، وكانت تنصت بلهفة كل ليلة علها تسمع اسمها الذي لم يذكر قط.

مع مرور الوقت صار الجميع في البناية بمن فيهم السيد جلال، والسيدة آسراني ينادون ناثورام «بالراديو وله». وكان لا يذهب إلى أي مكان دونه - ويشغله عندما يمارس أعماله الصباحية في بريتش كاندي، ويحمله على ظهره عندما يدفع عربته، بل وينام وهو يحضنه بالقرب من جسمه تحت الغطاء.

لم يُعرف بوضوح تام متى بدأت التغيرات تطرأ، أو ما سببها، فمازال الجميع يحتشدون فوق بسطة الراديو وله في كل مساء لسماع الأغاني الجديدة لكل من لاتا، وآشا، ورافي. لكن في الوقت الذي كان الراديو وله في السابق يتحرك في أرجاء المكان محيّياً الحاضرين بابتسامة، صار يكتفي أحياناً بالجلوس بالقرب من راديوّه محدقاً فيهم بصمت. وذات أربعاء أصرّ على تغيير المحطة للاستماع إلى موسيقى روحانية على الرغم من أن برنامج «العشرون أغنية الأولى»، الذي تقدمه بيانكا، كان يذاع في تلك الأثناء من راديو سيلان؛ وفي ليلة غيرها رفض تغيير المؤشر عن محطة «راديو عموم الهند» مرغماً الجميع على الإنصات إلى نشرات إخبارية باللغة الإنجليزية. وكان قد أوكل إلى السفائر وله الاحتفاظ بصندوق تغليف الراديو الذي أتى معه، وفجأة اتهمه باستخدام الصندوق لتخزين علب الكبريت، واسترده منه غاضباً، ثم أنفق بضعة أيام في تهوية ما يحويه من عدة التغليف للتخلص من رائحة الكبريت الذي ادعى أنها تلتصق بكل شيء.

لم يكن الحاضرون على استعداد للتخلي عن اجتماعاتهم المسائية، وكانوا جاهزين لإيجاد الأعذار، ويفترضون: «أوه، إنه ليس بحالة جيدة هذه الأيام، لكن ما العمل والمسكين لم يجد عملاً طوال أسبوعين».

لكن كان من الصعب تجاهل الأمر في الليلة التي أعلن فيها اسم غاناغ الطويلة في طلبات المستمعين. لم تصدق نفسها في البداية، لكن بعد ذلك، أطلقت عواءً جذلاً وانفجرت في نوبة من التصفيق. بدأت أغنيتها، فحزمت ساريها إلى وسطها ونهضت لترقص على الموسيقى، وعندها طلب أحدهم من الراديو وله أن يرفع الصوت.

لم يبد حراكاً لمدة دقيقة، لكنه ظل يمعن النظر فيهم وهم يصفقون لغاناغ ويصيحون بها، ثم مد يده وأطفأ الراديو.

« قل لها أن تشترى راديو خاصاً بها،» قال مديراً ظهره لغاناغ الطويلة، التي توقفت في منتصف الرقصة وتجمدت أطرافها بفعل الصمت الذي حلّ فجأة.

بعد تلك الحادثة، سرعان ما وصلت التجمعات الليلية إلى نهاية لها. وصار الراديو وله لا يشغّل راديُوّه إلا في غياب الآخرين، ويختار القناة التي تذيع مادة مملة، أو حتى التي تصدر ضجيجاً ستاتيكياً إذا قدم أحدهم لمشاركته الاستماع. ثم وقع الاختيار على فيشنو للتباحث معه، لكنه استقبله بريبة، وأمره ألا يقترب من راديُوّه. ولتزداد الأمور سوءاً نزع أحدهم، كردة فعل منه، الغطاء عن صندوق تخزين الراديو ومزق حوافظ التخزين بداخله. عاد الراديو وله من عمله ذاك المساء ليجد البسطة مغطاة بقطع البلاستيك وأجزاء مادة الستايروفوم. فجمع كل ما أمكنه العثور عليه، ووضعه داخل الصندوق، وفي اليوم التالي كان يطارد غاناغ الطويلة على الدرج متهماً إياها بتمزيق الصندوق للوصول إلى ما بداخله. وكان تهديد السفائر وله بأن يوسعه ضرباً هو ما ردعه وجعل غاناغ تشعر بالأمان لدخول البناية ثانية، وبخاصة أنها لم تقاوم رغبتها في الاستيلاء على أكبر قطعتين من الستايروفوم في ذلك اليوم الذي وجدت فيه الصندوق محطماً.

أمسك الراديو وله عن الحديث مع سكان البناية، وأخذ في تشغيل راديوه بصوت منخفض، فلا يتمكن أحد من سماعه سواه، كما كان يخفض الصوت أكثر من ذلك إذا تصادف مرور أحدهم. وكان يشاهد أحياناً جالساً على بسطته، ناشراً مواد التغليف ويفحص أجزائها كما لو أنه يحاول فك شفرة حظه من خلالها.

وبينما يمر به فيشنو الآن، يظهر رأس الراديو وله من تحت الملاءة، فتخرج نغمات من الموسيقي، وسرعان ما يشد الغطاء من حوله. ويتخيل فيشنو النغمات وهي تنط تحت الغطاء ناقلة معها الإيقاع والطاقة في أثناء اصطدامها بجلده. أما هو فظلت تتبعه أوهن أشكال اللحن أثناء استمراره في صعود الدرج.

ما إن وصلتا إلى معبد أميرة ما، حتى شعرت السيدة جلال بالراحة المصحوبة بالدوار. فقد أصابته عين وهذا هو المكان لإبطالها والتخلص منها، كانت نفيسة قد شخصتها بكل ثقة، وأعلنت قبل أن يتما شرب شايهما: «أصاب أحدهم زوجك بعين الشيطان ، وستزداد حالته سوءاً ما لم يبطل مفعولها».

تاه فكر السيدة جلال بعيداً، فلماذا يكره أي شخص أحمد؟ ومن يقوم بمثل هذا الفعل؟

«هل أنت جادة؟» سألت نفيسة، «فبالطريقة التي يمارس بها عزيزي جيجا شعائره الدينية، لن يفاجئني أن يكون الشيخ الملا نفسه هو الذي أصابه بالعين. لكن من يعرف كيف يعمل هذا السحر - فإن مدحتِ شخصاً ما كثيراً سيصاب بالعين، ولا تضعي الكثير من السخام على وجنتي طفلك وإلا سيصاب بالعين، وإذا تفوهت بأي شيء لطيف عن زوجك فسيصاب بها لا محالة - يبدو أن الإصابة بها أسهل من التقاط البرد».

امتقع وجه عريفة. «أنت لا تلمّحين إلى أنني قد أكون أنا من فعل ذلك؟ أوه، يا إلهي، ماذا لو أن ذلك صحيح؟»

« لا يهم كثيراً كيفية حدوثه بل الأهم الآن هو كيفية إبطاله. سنذهب الآن إلى أميرة ما، وما عليك إلا ربط عقدة خيط في الضريح، وسينتهي الأمر».

في أثناء انتظارهما لسيارة الأجرة، قصدهما شحاذ أعرج، فبدأت نفيسة بإبعاده لكن أختها أخرجت روبية من حقيبتها وقدمتها له رغم نظرات أختها المستهجنة. لقد أحست بحاجتها لكل ما أمكنها الحصول عليه من حظ، وإعطاء الصدقات لن يضرها بشيء. مرت بهما سيارة الأجرة على حفلة عرس، بالتأكيد هذا فأل حسن، وهكذا بدأت السيدة جلال في الإحساس بالراحة، حتى إنها تمكنت من إقناع نفسها أن لا شيء صدر عنها قد يكون المتسبب في هذه الإصابة بالعين ـ فعلى كل حال متى كانت آخر مرة وجهت إليه إطراءً.

أنزلتهما السيارة في بداية ممر محاط بمقاعد خشبية طويلة. وبينما هما يشقان طريقهما في الممر كانت عشرات من الأيدي تمتد إليهما عارضة عليهما شراء ثمار جوز الهند، والورود، والبخور. فقالت نفيسة وهي تدفع الأيدي بعيداً عنهما، «كل ما نحتاجه هو الخيط».

كانت بوابات مدخل الضريح مقفلة عند وصولهما ولا يسمح بالدخول إلا للزوار الذين لديهم أقارب يعالجون في الداخل. «جئنا لزيارة أمّنا. لنعرف إن تمكنتم بعد من طرد الأرواح منها»، قالت نفيسة لحارس متجهم الوجه. ففتح الحارس البوابة قليلاً ليمكنهما من الدخول.

استمر الحارس في مراقبتهما، فصعدتا الدرج الذي يقود إلى صالة النساء كما أمرهما، ومرّتا في طريقهما بعدد من الأبواب المغلقة، فحاولت عريفة ألا تنصت إلى أصوات الضرب والمعافرة التي تصدر من داخلها. كان الباب الأخير موارباً، وعند اقترابهما منه انطلقت منه صرخة مليئة بالقنوط إلى الحد الذي انفطر معه قلب عريفة، فنظرت في الداخل وتبينت الطرف العلوي لجسد عارٍ يلمع من خلال بخور اللوبان. صرخت المرأة مجدداً، فجذبتها نفيسة بعيداً عن الباب، ولكن ليس قبل أن تلاحظ أن يديها مربوطتان إلى لوحة عريضة بالقرب من السقف.

«من هنا»، قالت نفيسة وهما يهبطان سلالم ضيقة أعادتهما إلى الساحة من جديد.

رأت بعض الناس، فهمست نفيسة لأختها بالتصرف بشكل عادي وكأنهما ينتميان للمكان. «الضريح عبر ذلك الباب»، أخبرتها نفيسة وشاهدت عريفة فتحة في الصخر إلى الجانب الأبعد، ملاصقة لشجرة نيم.

كانت أميرة ما امرأة مباركة، اشتهرت بقدراتها على إعداد الرقية ضد السحر، وجاءت إلى هذا المكان منذ عدة عقود. وتذكرت عريفة قبرها الحجري المحاط بحاجز من الرخام عندما أحضرتها نفيسة إلى المكان ذات مرة. كان الحُجاجُ يأتون إلى القبر من مسافات بعيدة تصل حتى الباكستان، لربط خيوط إلى الحاجز الرخامي، وأشيع أن الذين يأتون للمكان بقلوب مطهرة تتحقق أمانيهم. استمرت عادة الرقية حتى هذا اليوم، حيث يُحضَر المسكونون بالأرواح لاستنشاق دخان اللوبان المبارك، أو يُتركون هناك لتلقي العلاج في الحالات الأصعب.

دلفتا إلى الحرم الداخلي وشاهدتا النار المشتعلة أمام القبر، واللهب يخرج من فتحة مربعة في الأرضية الحجرية، ثم يثب إلى الأعلى على شكل كرات صفراء وحمراء وزرقاء. هذه أغرب نار شاهدتها في حياتها، فهي بلا دخان، تصاحبها أصوات انفجارات خفيفة وفرقعة كأن الأرضية نفسها هي التي تلتهمها النيران. وعلى الحفرة جلست امرأة تضع يديها فوق اللهب، مشيرة لهما بالاقتراب نحوها. كانت عيناها تبدوان فارغتين بشكل غريب خلف الألوان التي ترقص فيهما، والشعر غير ممشوط وعلى هيئة خصلات معقوفة مكومة في لبد سوداء فوق كتفيها. وما إن اقتربت منها عريفة، حتى أدارت المرأة وجهها إليها وهي تحك براحتيها على صدرها، كأنها تنقل لها الحرارة من يديها.

«الخيط»، ذكّرتها نفيسة، وعندها انتزعت عريفة نفسها من نظرات المرأة وتعثرت في أثر أختها.

بدا الحاجز الرخامي متوهجاً في ضوء النار، مثل شيء فُصل لتوه عن صخر بركاني في باطن الأرض. فاقتربت منه عريفة ولمسته بكل حذر، تكاد تتوقع أن يسفع جلدتها، لكن الرخام كان بارداً تحت ملمس أطراف أصابعها، التي مررتها على الحجر المنحوت متحسسة الخيوط التي ربطها آخرون. فهناك الآلاف المؤلفة منها، البيضاء منها والحمراء، من خيط الحياكة الأسود الرفيع، إلى البني الخشن المفتول، وكان بعضها قد أخذ يبلى ويتحلل فوق الرخام.

استلت الخيط الذي أحضرته لها نفيسة من أحد الأكشاك في الخارج، وقد أحست به غاية في الخفة بين أصابعها. فهل سيكون قوياً بما يكفي لإنقاذ أحمد، وإعادته إلى حالته الأولى؟ ماذا لو أن التعاويذ الخيّرة ليست مناسبة بما يكفي؟ ماذا لو حدث ما لم يكن في الحسبان وانقطع الخيط في أثناء ربطها له؟ ولكن من السخف أن تفكر هكذا.

«أربطُ هذه العقدة لأجل أحمد»، همست لنفسها وهي تربط الخيط على الرخام. «حرّريه من العين التي أصابته يا أميرة ما»، ولم ينقطع الخيط.

أحست عريفة بيد أختها تحط على كتفها، فأدنتها من وجهها لتقبلها، وأحست بعينيها نديتين، ولكن عندما لمستهما برفق لم تجد أثراً للدموع. ربما تكون قد بكت بما يكفي في سابق أيامها، والأمر متروك الآن لـ أميرة ما، التي ستنتظرها لترى ما هي فاعلة لها.

اختفت المرأة الجالسة عند النار، لكن اللهب مايزال يستعر في الظلمة، وثمة رجل يدحرج طبلاً ضخماً لبدء المراسم الصباحية.

قالت نفيسة: «كل هذه الألوان، تمثل الأرواح التي تتطهر بفعل اللهب. فالأزرق يمثل الشر، أما الأصفر فهو للخطيئة التي يحملها الناس داخل أجسادهم عندما يأتون هنا، وعندما يقفون بالقرب من اللهب بمسافة كافية لا تملك الأرواح إلا أن تغوص فيه، فالأخضر كما ترين ـ هو للأرواح التي تنبعث من جديد بعد تطهرها».

رأت عريفة بطرف عينها بعض الحركة بالقرب من البوابة. ثم هيئة سوداء تلتف وتدور وتتحرك ناحيتها، وللحظة ظنت أنها روح ما في طريقها إلى اللهب، وأنها تقف في طريقها مباشرة. ثم عرفت أنها المرأة التي كانت ترقص بالقرب من النار. كانت يدها ممتدة، وهي في طريقها لإعطاء عريفة شيء ما.

ابتسمت المرأة ولاحظت عريفة الأسنان الملطخة باللونين البني والبرتقالي بفعل سنوات من مضغ البان. اختفى الفراغ من عينيها، وحلت في مكانه الآن قسوة مقصودة. كانت المرأة تحاول إخبارها بشيء ما، لكن عريفة لم تفهمه.

انحنت إلى الأمام لالتقاط كلماتها. «هذا لك»، قالت لها المرأة ثم دسّت شيئاً في راحتها. وظلت رائحة الرماد والشعر المتفحم باقية في المكان حيث كانت المرأة تقف منذ لحظة.

حتى دون النظر إليه، كان بإمكان عريفة أن تحس به. قالت في نفسها لا يمكن ذلك، وهي غير راغبة في فتح راحة يدها. وبينما انفتحت أصابعها، بان عليها الخيط. لاتزال عقدة أحمد موجودة، قوية وسليمة كما كانت عندما ربطتها، لكن الخيط نفسه انقطع، وكانت نهاياته المنتسلة في المكان الذي انقطع فيه تلتوي على نفسها فوق جلدها. حاولت أن تقول شيئاً فلم تستطع، إذ كانت شفتاها منفرجتين دونما أمل، ويدها ترتفع وتهبط بالخيط بشكل آلي. عاد إليها صوتها، فحاولت أن تقضي على الرعب، وأن تخرجه من حنجرتها وتطرده من رئتيها، فأطلقت صرخة، وكان الصوت يشق المكان بحيث أن نفيسة تسمّرت كأنما قد صعقت، وجعلت الصرخة الرجل القريب من النار يفقد السيطرة على طبله. أمسكت بالخيط في ضوء النار وصرخت مرة بعد الأخرى. وراء الساحة، ووراء البوابة، في الممر المحاط بالمقاعد والمضاء بالكيروسين، توقف أصحاب الدكاكين عما كانوا يقومون به من حسابات في دفاترهم، وعن عدّ نقودهم، ونظروا لوهلة نحو معبد أميرة ما.

*

في مكان ما من الظلمة ثمة تشكيلة من الروائح تحوم في الهواء بعيدة عنه. فالعطور بالنسبة إليه تتسامى في عليائها على امتداد محيط إدراكه في انسجام تام مع لحظة اقترابه. ها هو يتتبع أثراً لبهار ـ كمون، أو ربما كركم ـ ينتشر بسرعة خلال الجو، ويهرب دون الإمساك به. وهناك رائحة زهور هنا، وفواكه أيضاً، ورائحة وحلٍ، وزيت، ومطر.

فيشنو على يقين الآن أن بإمكانه التعرف على الآلهة عند نزولها من خلال روائحها. فرائحة (غانيش) هي رائحة الفواكه التي يحبها، و(فيرونا) مثل البحر، أما نسمات النهر فستعلن عن قدوم (ساراسواتي)، وتأتي (أندرا) معها بالمطر. ستكون رائحة (كريشنا) مثل أي شيء حلو، مثل الحليب، أو السكر البني، أو النعناع، وخشب الصندل، وورود الكيفيدا، والزعفران، واللبن، والعسل.

ستنتثر الزهور تحت قدمي (لاكشمي)، وتعبق كل خطواتها بعبيرها. وستغيّر ثمار المانغو من لون الشمس، وتملأ العالم بعبير نضجها. ستتمايل أشجار التولسي في الريح هامسة بأسرارها للهواء، وستمطى الأرض بأريجها وشذا عطرها منتظرة أن تحط اللمسة على جلدها.

يستنشق فيشنو، فيجد الهواء بحلاوة عبق اللوتس، ويعتقد أن حواسه تخونه فيستنشق دفقة أخرى. تصل إليه الرائحة غاية في القوة وكأنما ألف زهرة قد تفتحت، وكأنما الجدران والدرج والسقف مغسولة بتويجات الزهور. يختلط عبقها برائحة الحبق التي لا يكاد يدركُ كنهها في البداية، لكنها تتجلى مع مرور الوقت إلى أن تصبح كلّ ما يصل إلى أنفه، ويرى بأن مليون ورقة تولسي يجري فركها بين أصابع غير مرئية. ثم تأتي نسائم المانغو، أمواج تأخذ في الجريان وتغطي على رائحة التولسي، تكبر كل موجة منها عن سابقتها وتعبق بالأنواع التي يعرفها كافة. ويتعرف فيشنو على وحشية رائحة مانغو الجولا، وحدّة اللنغادا، وحلاوة البايري التي تحس معها بالتخمة، ونقاوة الألفونسو التامة. بدا له العطر قوياً وكثيفاً، فباستطاعته الإحساس به يضغط على وجهه، عدا أن ما تضغط عليه فتحات أنفه الآن هي التربة؛ تربة ندية ومعطرة، تربة تفوح بالحلاوة

ورائحة الطفالية وقد اختلطت بها رائحة الروث. يستنشق فيشنو هذا العطر الجديد، فهي رائحة الأرض، ورائحة الخصوبة، الرائحة التي وجدت منذ بدء الحضارة، فيبدى عجبه لثباتها ورسوخها.

ومن بعد ذلك تجمعت عليه كل الروائح التي شمها، فاختلطت جميعاً لتكون عطراً جديداً هو خليط من الفواكه والزهور، وهو من النفاذ بحيث يصعب تحديد كنهه، لكنه يعبر عن أنوثة لا غبار عليها. إنه عطر لم يشتمه من قبل قط، لكنه تعرف عليه على الفور.

ينظر فيشنو فوق إلى الدرج المفضي إلى الظلمة. فالليلة هي التي سيرى فيها حبيبته. الليلة ستهبط لاكشمي.

السابع

بعد منتصف الليل بقليل تمكنت كافيتا من الصعود إلى سطح البناية، ووجدت سليم في انتظارها عند هوائيات التلفزيون المطلة على مياه الخليج الداكنة مثل قائد سفينة يقف منتصباً على مقدمتها يستطلع البحر من أمامه. عندما رأت ظله منتصباً على خلفية السماء غلبت عليها العاطفة والحب العارم والمودة العميقة التي أحست بها تجاه محبوبها الصادق، وأيقنت باتخاذها القرار الصحيح.

«هل تركت حقيبتك تحت؟» سألها سليم بعد أن تبادلا قبلة.

«حقيبة؟ ولم أحتاج إلى أي شيء، وأنت معي؟» ومدت يديها تتحسس خديه، لكنه أمسك بهما وأنزلهما إلى جانبها.

«ستحتاجين الملابس يا عزيزتي، وأشياء أخرى أيضاً. من الأفضل أن تذهبي وتحزمي بعض الأغراض - فمايزال لدينا وقت.»

«أوه، لا تكن مملاً هكذا يا عزيزي». قصدت أن تسخر منه بلطف عندما تفوّهت بكلمتها الأخيرة، لكنها فوجئت بمدى حدتها عندما أطلقتها، فخففت من نبرتها مباشرة. «كل ما أنشده هو الحب، الحب، الحب. مثل أغنية فرقة البيتلس القديمة، هل تذكرها؟»

لم يجبها، لكنه نظر نحوها بقلق، فدلّت حقيبتها اليدوية أمامه. «بالإضافة إلى ذلك، خمّن ماذا لدي هنا. إنه مهري، بل مهرنا. ويعود الفضل لأبي وأمي».

« كم يوجد داخلها؟»

اظلمّ وجهها وقالت: « أربعة عشر ألفاً فقط، وهل توقعت أن يزوجونني على شاطئ شوباتي؟» ثم هزت رأسها لترفع الشعر عن وجهها، «ولكن على كل حال، فهي تكفيني لشراء الكثير من الملابس، فدعنا نذهب قبل أن يكتشف أحد أمرنا أو شيئاً من هذا القبيل».

«في الواقع، أعتقد أنّ...» بدأ يقول، لكن كافيتا قاطعته.

« **ماذا** تظن أنك تعتقد في الواقع؟ أنني سأنفقها كلها على شراء الملابس؟» ومرة أخرى خرجت منها الكلمات أكثر حدة مما قصدت، فحاولت التغطية من جديد. «لستُ في حاجة إلى الكثير يا عزيزي، فلا تنشغل بشيء».

لا بد أن تتفطن إلى ما تتفوه به، وتساءلت لماذا تنفجر كثيراً في وجه سليم المسكين. ربما كانت منفعلة، بالطبع فهي منفعلة لأنها ستهرب مع حبيبها، وليس الأمر مجرد ذهاب إلى ناصية الشارع لتناول الفولغابا. لكن ربما كان الأمر أكثر من ذلك، وربما كانت الزيارة إلى العمّة لالواني ماتزال تؤثر على أفكارها. كلاّ، هذا غير معقول، فقد انتهى ذلك الأمر وهو ليس سوى حلم قد مرت به، وحدثٌ جانبي في قصة حياتها. أما الآن فلا يذكر أي من المشاهدين حتى اسم هذا الفتى سيئ الحظ الذي التقته. في الواقع هي تتذكره ـ إنه بران، وليس ذلك إلا لارتباط اسمه بالفيلم، لكن هذا ليس وقت الانشغال ببران.

«هل يمكنك السير أبطأ من ذلك؟» همست له بعصبية وهما يهبطان الدرج»، فهم لم يبدؤوا في مطاردتنا بعد».

كم سخيف منها حتى أن تجري المقارنة بينهما. بران الذي رأته مرة واحدة هذا اليوم، في لقاء يجب على المرء أن يعترف بأنه ظهر فيه ساذجاً بعض الشيء. وسليم الذي عرفته طوال هذه المدة؛ حبيبها الحقيقي الأول والوحيد.

في الواقع، لا بد أن يكون هو حبها الحقيقي إن كانت ستتبعه إلى مكان لا يعلمه إلا الله.

«وإلى أين ستحمل جولييتك، يا روميوي؟»

«يتعين على روميو أن يكون أقوى بكثير ليحمل جولييت مثلك، يا بطاطتي».

توقفت كافيتا عن السير، «من الذي تصفه بقطعة بطاطتك؟ هل أبدو لك مثل البطاطا؟ هل أبدو كذلك؟» ارتفع صوتها فوق مستوى الهمس بكثير، «ألا تعتقد أن هناك آخرين يرغبونني، حتى وإن كنت تظن أنني بدينة حقاً»؟

التفت سليم إليها، «تعرفين أنني إنما كنت أمزح، وتعرفين أنني لا أعتقد أنك بدينة». وضع حقائبه أرضاً، وأخذها في حضنه، «هل هناك شيء ما؟ هل كل شيء على ما يرام؟»

« كل شيء على ما يرام، ولم لا يكون كذلك؟ ولكن لا تظنن أنك تسدي لي معروفاً وأنت تذهب بي بعيداً على هذه الصورة ـ فبران لن يفعل مثل هذا الأمر مطلقاً»!

بالطبع لم تتفوه بالجملة الأخيرة، رغم أن الفكرة اختمرت في ذهنها وكادت تخرجها دون تفكير. وقد رأت أن تصرفها يخلو من العدل، بعد كل حساب فهي التي كانت وراء مخطط الهرب. لكن من جانب آخر، فسليم هو الذي وافق على الخطة، ولم تستطع تخيل شخص محترم مثل بران ـ مهندس، وجامع طوابع بريدية ـ يوافق على مثل هذا الهروب.

أين ستكون بعد عشرين سنة من الآن؟ أغلقت كافيتا عينيها وتخيلت أنها متزوجة من بران، وأن لهما طفلين ـ كبيرهما صبي بارع في الرياضيات مثل أبيه. وسيلتحقان بأفضل المدارس ـ مدرسة كاثوليكية بالطبع ـ كاميون، أو سانت ماري، أو فيلا تيريزا (إن كان أحدهما طفلة) سيركبون سيارتهم العائلية في كل صيف ويذهبون إلى **ماثيران**. قد تحاول صديقاتها إثارتها حول بران ـ فهو مهندس صاحب يُعتمد عليه كثيراً. لكنها ستكون الوحيدة التي تعرف بأمر تلك النظرة الخاصة التي يملكها، وبالحياء الذي يعم وجهه، وينتشر إلى رقبته وعينيه وهي تخلع عنها ساريها له.

لكن لا، ستكون مع سليم، هي وسليم بعد عشرين عاماً من الآن. ولم يخطر ببالها شيء، فمستقبلهما غير معروف، مجرد فراغ. كلا، الفراغ كلمة قاسية لوصف ذلك ـ مجرد غامض ـ نعم، فذلك هو الأمر لأنه عندما يبدأ شخص في مغامرة ما، فبالكاد يمكنه معرفة النهاية. فجأة دوّت الحقيقة في وجهها مثل نمرةٍ تفاجئ طريدتها، فهي لم تكن واثقة من شيء. لم تعرف إن كانت تريد مرافقة سليم أسفل الدرج إلى المدينة التي تنتظرهما تحت. إنها بحاجة إلى مزيد من الوقت ـ مزيد من الوقت لتأخذ أنفاسها، لتفكر، وتفهم الأمور. لكن الوقت متأخر جداً، متأخر جداً. وكانت نقود المصرف تشتعل في حقيبتها، ولا يفصلها عن الشارع سوى بسطة فيشنو.

كم يبدو فيشنو مسالماً، فبإمكانها رؤيته ممدداً تحت، وأن ترى في ذلك الظلام ما بدا لها أنها هالة من السكينة تحيط به. اقتفت أثر سليم هابطة الدرج نحو بسطة فيشنو، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت ورقة العملة التي خصصتها له. وبينما كانت تنحني لتدسها تحت رأسه، قفز إلى ذهنها مشهد من طفولتها ـ فيشنو وهو يلعب معها لعبة الغميضة فوق الدرج.

قال سليم: «لن يحتاج إلى المال في المكان الذي سيذهب إليه، ومن الأفضل أن تحتفظي بها. حتى عربة الإسعاف أتت ثم غادرت بالأمس، والوقت قد تأخر على هذا المسكين.»

«هذه ترهات، وسيصبح في حال جيدة ولست أقدّم له سوى مائة روبية ـ فلا لزوم للطمع الذي أراه في عينيك حتى لهذا المبلغ».

«أهذا ظنك بي؟ أن عيوني على المائة روبية؟ وأنني أهربُ معك من أجل نقودك»؟

حانت اللحظة المناسبة، فإما أن تستغلها لإغضاب سليم والابتعاد عنه. أو تدع الفرصة تمر وتتبعه إلى نوع الحياة التي سيقودها إليها. بعد سنين عندما سيتقدم بها العمر، ربما ستنظر إلى هذا الموقف وتحس بالراحة أو ربما بالأسى، لكن شيئاً واحداً يتضح تماماً لها. ستكون هذه هي فرصتها لاتخاذ القرار.

ماذا ستفعل؟ ومن ستختار؟ والوقت لا يسعفها للتفكير في الأمر. ليس هذا بعدل ففي الأفلام ستكون هناك أغنية ما الآن، وستعرضُ محاسن الخطيبين ومساوءهما بوضوح من خلال الموسيقى. ذلك النوع من الأغاني التي يصاحبها خلفية أنغام طويلة ومريحة، من النوع التي تغنيها لاتا، مع عدة لقطات استرجاعية لكليهما، تُركّب على وجه البطلة. (على الرغم من أن ذلك سيمثل بعض الصعوبة لبران، لأنها لم تقابله إلاّ اليوم) ولكن لا، سيتعين عليها أن تختار بنفسها دون الاستفادة من العرض الموجز.

في النهاية قالت: «متأسفة، فأنا مضطربة كما تعرف، وما قلته عن فيشنو ـ لم يفعل أكثر من...» ثم انفجرت بالبكاء.

عند هذا الحد اقترب منها سليم واحتضنها. «ستكون الأمور بخير، فهم في الحقيقة لا يدرون كيف هي حالته. سيكون بخير فلا تشغلي بالك.»

« لكن كيف نتركه بهذه الحالة، وهو مريض للغاية؟ حتى إننا لا نعرف شيئاً عن حالته ؟ كيف أترك فيشنويّ؟»

تقدمت كافيتا نحو الجسد المسجى. «فيشنو، أرجوك تحدث معي، افتح عينيك وقل شيئاً. أنا كافيتتك»!

وضعت يدها على وجنته. «أتساءل إن كان يشعر بالبرد،» ثم نزعت وشاحها من فوق رأسها وغطت به نصفه العلوي «ربما سيساعده هذا بعض الشيء»، وانتصبت قائمة.

«خذ بالك من نفسك»، قالت له واستدارت، ثم وضعت يداً فوق فمها وهبطت الدرج ركضاً، في حين يزداد صوت الموسيقي في الخلفية بكل ما يتطلبه المشهد من دراما.

توجه سليم نحو فيشنو لاسترداد النقود التي وضعتها كافيتا، قائلاً وهو يدسها في جيبه ويتبع أثرها نازلاً الدرج، «مع السلامة يا صديقي».

أووه، لما خلفته من عطر، من الأوراق والثمار والأزهار، ومن متعة جمالها ما أتت به للأرض، وهذا الوشاح الذي أشعر به الآن فوقي، مضمّخاً بعطر جسدها.

عودي هنا يا لاكشمي، عودي. ألا ترين أن مكانك هنا إلى جانبي. ألا ترين أنك خلقتِ لفيشنو، وأنك مصدر قوّته؟ عودي لألمس وجهك، وأمسّد لك قدميك. عودي لصحبتي الأبدية، أووه أنت لي يا لاكشمي.

ماذا سيحدث للزهور بعد رحيلك؟ وللتربة التي تتشبث بالخطى، وزهور التولسي التي بدأت تبرعم للتوّ. ماذا عن الألوان التي تنير الدرج، والروائح التي تعطّر الجو. هل عليّ أن أتسلق منفرداً أثر تويجات الأزاهير المنثورة على طول الطريق من حيث هبطت؟

لكن مهلاً. من هذا؟ من يخرج من منزل جلال؟ هل هو إلهٌ ثان يتجرأ على السير بمثل

خطاك؟ إنه يمسك بالحاجز، ويهبط متخفياً. يتحرك ظله على الجدران بصمت، ووقع خطاه على الأرضية في منتهى الهدوء.

الزهور التي كانت غاية في الاحمرار والحيوية منذ ثوان فقط، تموت تحت وقع خطاه، وتذوي التويجات حيث ترتمي ويتلاشى عبقها في الأرض. تنسحق السدايات تحت قدميه ناثرة غبار طلعها في أرجاء المكان.

ثم تسقط الظلال بكثافة على البسطة. هذا رجل وليس بإله. ليس بعد. هذا هو السيد جلال، ماتزال أقدامه ثابتة إلى الدرج، ومايزال يحتفظ بوزنه ثقيلاً على هذه الأرض، وقبضته تطاول الهواء.

*

في البداية فكّر في إحضار ملاءة معه ثم غير رأيه ـ بعد كل شيء فوجوده هناك هو للاستلقاء بجانب فيشنو فقط، بشحمه ولحمه، وستعمل الملاءة كعازل لهذا الاتصال. ومع ذلك ارتدى لباس نومه المخطط، بشريطه الأحمر حول الياقة، ومثيل له حول المعصمين.

لم تمر تلك الليلة عليها بسهولة، فلسبب ما كانت عريفة مضطربة. «لا تتركني أرجوك»، قالت وهو يفردُ الملاءة على الأرضية. «ليس هذه الليلة، لا تتركني».

توقف للحظة، والملاءة تتدلى من زواياها التي يمسك بها، «تعرفين أنني أحب النوم على الأرض، واعتقد أننا قد تفاهمنا على هذا الآن. إنّ ظهري... »

«كلا يا أحمد، ليس هذه الليلة. ليس في هذه الليلة بالذات، عد إلى السرير أرجوك، أستعطفك أن تفعل».

ثمة شيء خانق حول استعطاف زوجته له. منذ عودتها من زيارتها لأختها، كان سلوك عريفة ينبئ بحدوث كارثة عظيمة. وقد أضاف صوتها المرتعش وإلحاحها الكئيب إلى تعزيز هذا الاعتقاد. أما هو فظل يتطلع لاقتناص بعض الوقت للتسلل إلى تحت.

«ما الذي يجعل الليلة مختلفة عن بقية الليالي»؟

لم تقل شيئاً، وبدلاً من ذلك نهضت عن سريرها، وبدأت في سحب الملاءة من فراشها أيضاً.

«إن لم ترغب في العودة إلى السرير، سأنام معك على الأرض».

وكان أن سوّت فراشها بالقرب منه واستلقت بجانبه، «هكذا، أظن أنه سيكون مفيداً لظهري أيضاً».

على كل، يبدو أن الأمر لم يكن كذلك، فبعد ساعة تقريباً من التقلب، وعدد من الأنات، وقول (هاي) له في كل مرة، وبعد تظاهره بالنوم تسللت إلى سريرها المفروش، وفي دقائق، أنبأه شخيرها العالي المنتظم بأن الوقت قد حان لتحركه.

منذ سنين لم يهبط السيد جلال الدرج في هذا الوقت المتأخر من الليل. أخذ يبحث عن مفتاح الإضاءة قبل أن يتذكر أنها لم تعمل منذ عقد من الزمان في أعقاب نزاع ما مع جيران الطابق السفلي حول اقتسام فاتورة الكهرباء بين الأدوار المختلفة. وبكل حذر شق طريقه ماراً بالراديو وله، ثم شقة كل من آسراني، وباتاك، وصولاً إلى بسطة فيشنو.

استغرب إصرار عريفة على النوم بجانبه هذه الليلة. فخلال الأيام الأولى من نومه على الأرض عمّقت آهاتها من إحساسه بالذنب، وتساءل: هل يحرمها من وجوده بالقرب منها، وهل هو مقلّ في أداء واجباته الزوجية؟ هل يجب عليه مصارحتها، وأن يفسر لها الرحلة التي باشر فيها؟

قرّر عدم القيام بشيء من ذلك، فهي لن تفهمه. سترتاب في أهدافه وستثير الشكوك والاعتراضات حول كل شيء. ثم متى كانت آخر مرّة قاما فيها حتى بمجرد حضن بعضهما في السرير، ناهيك عن ممارسة الحب؟ كلا، لا بد وأنه أمر آخر - ربما إحدى تلك العذابات الزائفة التي تعاني منها النساء، والتي أثيرت دون وجه حق، ولسوء الحظ

بسبب ما قام به من تصرفات. عليه أن يظل ثابتاً لا يتزحزح عن موقفه ـ فما يجِدّ في أثره أهم بكثير من أن يفقده في ظلال ما ينتابها من كآبة. بالإضافة إلى أنها هي التي تتذمر دائماً من انعدام الإيمان لديه، وقد حان الوقت كي يفعل شيئاً حيال ذلك، ليس من أجله فقط، ولكن لكليهما.

كم كانت عريفة مختلفة عندما قابلها للمرة الأولى، أم ربما هو الذي تغيّرت أفكاره. هل يمكن أنه قد وجد فاقتها في ذلك الوقت أمراً مطمئناً، وعدم استقرارها شيئاً محبباً؟ أليس من الممكن فعلاً أنه قد سَعُد بالطريقة الساذجة التي كانت تخوض بها غمار الحياة؟.

تلك كانت الأيام التي صاحب فيها أصدقاءه المثقفين ـ تلك المجموعة من الملتحين، بنظاراتهم الطبية، الذين التقاهم كل ليلة لمناقشة الفلسفة، ومصير العالم. «وراء كل ورقة شجر قصة»، كما يقول مثله المفضل، وما عريفة إلا ورقة سقطت في طريقه. كم أثرت فيه بساطتها، وانعدام وجود شيء لديها لتقدمه عندما أطلق في وجهها ابتسامته المشجعة في ذلك اليوم الأوّل. ألم تكن هي أيضاً تستحق أن تكون لها قصة ـ ألا تستحق هي أيضاً أن تحصل على شخص ما ليكتب قصة لها؟ وفكر في نفسه، لم لا يقوم هو بهذه المهمة، وربما يقوم حتى بإدراج نفسه في الحبكة القصصية؟ ألم يفتخر دائماً بعدم تأثره بالغنى والجاه، وألم يقرّ بأن هذا المعتقد يسكن في الأعماق الكامنة لكل إنسان؟ الآن واتته الفرصة لإثبات ذلك مرّة وإلى الأبد، بالزواج من هذه المرأة البسيطة؛ هذه المرأة التي تعدّ تزكيتها الوحيدة حتى الآن هو ما أفصحت عنه قسماتها عندما بيّنت حالة الرضا على ضوء مصباح مطعم الشاتوالا.

كانت مجرد فكرة وسرعان ما تجذرت لديه. فكرة نضجت وأينعت في مثالية الأيام الشبابية تلك. سأله أبوه: «هل أنت متأكد من رغبتك في الزواج من هذه الفتاة البسيطة؟» وامتلأ صدر أحمد بالثقة عند رده بالإيجاب.

كان في تصوره أنه سيغيّر عريفة على شاكلة «بيغماليون»، ويدخلها إلى عالم الفن والأدب والفكر المجرّد، وأنه سيكشط وينظف بدائيتها إلى أن تظهر جلية للعيان، ملمّعة ونفيسة مثل جوهرة بعدة انعكاسات، لها شخصيتها المتألقة ويمكنها أن تسند نفسها ببراعتها الحادة. انغمس في هذا المشروع بحيوية بالغة، وطفق يحدثها عن كانط، وأفلاطون، عن أعمال برناردشو وطاغور، في عملية عصف وإغراء وتحدّ لها كي تعمل فكرها. وأبدت له ليناً معيناً تجاه الدين، فحاول أن يعرّفها إلى الأفكار ـ الغريبة أحياناً والمتناقضة أحياناً أخرى ـ التي تشكل جوهر الديانات الأخرى، ليبين لها أنها من اختراعات الإنسان، وأنه لا يمكن تفضيل أحدها على الآخر. وحاول بالذات أن يؤثر فيها بقصة **أكبر**؛ إمبراطور المغول المفضل لديه، الذي جاء للحكم في الهند بعد تاريخ طويل من الحكم الإسلامي، لكنه سار في طريق مختلفة كلية ـ ليس بتشجيع الديانات الأخرى فحسب، وإنما بالزواج من الأميرات الهندوسيات أيضاً، ودعوة الإرساليات المسيحية لتعليم ابنه، ثم في نهاية الأمر بإنكاره للكثير من المعتقدات، في سعي منه نحو تحقيق الدين الإلهي الخاص به، إلى الحد الذي أعلن الناس فيه ارتداده.

«فكري في الأمر يا عريفة، إمبراطور يتخلى عن دينه من أجل توحيد رعاياه. حاكم يقول إنّ جميع الناس سواسية مهما كان انتماؤهم الديني».

اختارت زوجته ألا تفكر في هذا الأمر، «ألا تكفي محاضراتك لي من الصباح حتى المساء عن كل الموضوعات في هذا العالم؟ وما حاجتك لإجباري الآن على الاستماع إلى هذه الترهات الإضافية؟»

لم تدفعه مقاومة عريفة إلا للتشدد في موقفه، فلن يهدأ له بال حتى يجبرها على مواجهة معتقداتها اللاعقلانية. مع ذلك فكلما بذل جهداً أكثر، اصطدم بمقاومتها التي لا تلين. في النهاية هي التي ربحت ـ وهو نصرٌ أزعجه كثيراً لأنه مثّل هزيمة لكل ما ينادي به ـ هزيمة المنطق والعقلانية أمام القوّة البدائية للعقيدة.

ذلك عندما صدمته غرابة موقفه. فبوعي منه سعى في أثر امرأة ليس معها من المشتركات إلا القليل، وربط نفسه بها. والآن لم يكتشف أنها لم تكن حتى الموضع الفارغ في البناء الذي توقع أن يتمكن من سدّه فحسب، وإنما أتته مبرمجة بأفكار مسبقة خاصة

بها، وقناعات لم يتمكن من زحزحتها عنها، ومعتقدات قد لا يتمكن أبداً من تخليصها منها.

ما الذي يجعل إيمان عريفة بهذه القدرة على التماسك في وجه كل محاولاته؟ كان يفخر دائماً بإلمامه لا بالإسلام فحسب، وإنما بكل الديانات الرئيسية في العالم. وبإمكانه أن يفسر كيف خرجت العقائد المختلفة وتجانست مع الفلسفات الأم، وأن يعدد بالتفصيل الطقوس الغريبة التي تمارس باسم العبادة من إفريقيا إلى الأمازون. لماذا إذاً لم يفهم آلية الإيمان؟ ما الذي يفعله الدين بالناس كي يستفز مثل هذا العناد، وهذه الهستيريا ـ كيف يدفع الناس إلى مرحلة تعذيب أنفسهم، وقتل بعضهم بعضاً؟

اعتقد دوماً أن ذلك بسبب خلل في الناس، وأنها حالة إخفاق إنساني تكونت معها هذه الحاجة للإيمان بشيء وراء المألوف. كما رأى أن الدين ظهر للسيطرة على المجتمع، ولمراقبة أولئك الذين لا يملكون المقدرة أن يفكروا في دقائق الأمور بأنفسهم، وأنه يقدم وعوداً ومشاهد تبدو باهتة لأشياء في السماء، من أجل تنظيم حاجات الجموع وتهدئتهم. بعد كل شيء، ما الذي تتضمنه كلمة (إيمان) سوى عمى إرادي عن غياب الإثبات الفعلي؟ لم يكن إلا أمراً طبيعياً أن تقوم عريفة بثقافتها غير المصقولة بالاتكاء على عكاز الإيمان هذا للتوافق مع غموض الحياة. وبالمقابل فهو لا يريد، وفي الحقيقة لا يمكنه استخدام الأدوات نفسها.

لكن عند هذا الحد ثار شك غير متوقع في عقل السيد جلال. ماذا لو كان متكبراً إلى أبعد الحدود؟ ماذا لو كان هناك بعدٌ ثانٍ للإيمان، وطريقة أخرى لفهمه وتجربته لا يمكنه بكل بساطة أن يمارسها. ماذا لو لم تكن مواطن الضعف في رؤية عريفة، بل لديه هو ـ وماذا لو كانت محدودية العقل وانغلاقه من جانبه هو؟ في الواقع ألم يكن مندهشاً للعدد الكبير من الأشخاص ذوي الذكاء العالي الذين كانوا مؤمنين ـ ألم يقل حتى أينشتاين بوجود الله؟

بدأ هذا السؤال يستفز السيد جلال، فإمكانية أن يكون عقله هو الذي لم يصل إلى المستوى المطلوب أخذ يحزّ في نفسه، وأصابته حالة اكتئاب لأسابيع طوال بسبب كونه أقل

كمالاً من عريفة، وأنه بشكل ما أقل منزلة من حشود الناس التي تتزاحم على مساجد ومعابد وكنائس المدينة. وفي كل مرة تقع عينه على راهب، أو ملّا، أو حتى مجموعة من المصلين بعلامات المعبد الحمراء على جباههم، كان يواجهه السؤال: هل يكمن العيب فيهم، أم فيه هو؟

شيئاً فشيئاً اتضح له أن ليس أمامه إلا طريق واحد للمعرفة، حيث يتوجب عليه محاولة تجربة هذا الذي يسمونه الإيمان بشكل شخصي. ربما سيتم ذلك بإيقاف إعمال عقله، ودعوة الدين كي يأتي ويجدّ في طلبه، مقدماً نفسه ليؤخذ بعيداً مثل أولئك النادبين في مسيرة عاشوراء. ومثل أتباع كريشنا وهم يجوبون الشوارع راقصين في أيام الجُمع. لم يكن اهتمامه بالدين فيما مضى إلا بشكل تحليلي - فلم يمتلك الدين روحه، أو يخترق غلاف عقله قط، وسيثبتُ أنه كامل مثل أي شخص آخر، وأن بالإمكان إثارة الجانب الروحي فيه. لكن الفرق بالنسبة إليه أنها ستكون مجرد تجربة تمكنه من الاطلاع على الإيمان من الداخل. فيما بعد، وعند عودته إلى طبيعته، سيعمل على تمحيص التجربة ليرى إن احتوت على أي شيء ذي بال. من يعرف، فربما سيصادف عريفة في أثناء رحلته للعالم الثاني ويقنعها بالعودة معه.

كلما فكر أكثر في هذا المشروع، امتلأ بالحماسة. فقد بهرته فكرة تطفله على أهل الإيمان. لكن كيف السبيل إلى الحد من نشاط عقله؟ وأين سيجد المرء الوصفة لإغراء الدين بأن يأتي إليه؟

أخرج كتبه عن بوذا، وماهافيرا جين، ورهبان الهندوس ودراويشهم، ثم تأمل ملياً في حكايات الجلوس تحت الأشجار، والطواف في الغابات، والعيش بكفاف بما يمكن أن يجده من طعام وشراب. أليس الزهد هو المفتاح لما حققه هؤلاء الناس؟ ألم ينجحوا في شحذ أذهانهم عن طريق حرمان أجسادهم؟ هل يمكن أن تكون هذه هي الوصفة التي يبحث عنها؟

في ذلك الأسبوع نفسه استقل القطار إلى بوريفيلي، ليهيم حافي القدمين في بريّة الغابة الحكومية هناك. كان من الصعوبة تحاشي العائلات التي تتنزه في المكان، لكنه استمر في سيره، غير عابئ بالأحجار التي قرّحت قدميه كثيراً. لكنه دُهش وأحس بسعادة جمة عندما رأى شجرة بانيان هائلة في وسط الغابة، من المؤكد أن هذه كرامة ما. جال بخاطره شيء من الإحساس بالذنب، فقد حرّم على نفسه الاعتقاد في الكرامات. سوّى له مكاناً بين جذور الشجرة المتشابكة وافترش الأرض بارتباك وخجل، ثم حاول أن يصالب رجليه في وضعية اللوتس لكنه تخلى عن ذلك، وأغلق عينيه بالمقابل.

مر بعض الوقت وهو يجلس هناك رافضاً أن يزعجه وقع الخطى أو الأصوات، والضحكات التي تنطلق أحياناً، بل وحتى هدير طائرة تمرق فوق رأسه، عندما وقع الحدثُ وأحس فجأة بضوء يتدفق على وجهه؛ كان وميضاً مؤقتاً حوّل الجانب الداخلي من جفنيه إلى اللون الأحمر الزاهي، فحافظ على عينيه مغلقتين، وتساءل إن كان يتخيل الأشياء. بعد ثوان أحسّ بالوميض من جديد، وفي هذه المرة بدأ قلبه ينبض بقوّة، فشيء ما يحدث له، شيء غير متوقع وخارق للعادة، وما هو إلاّ وسيط يتحقق من خلاله هذا الشيء. وانطلق ذهنه في استعراض سريع للكتب التي قرأها - هل تحدث بوذا أو ماهافيرا عن تعرضهما لوميض؟ ما الذي يعنيه هذا الأمر، وإلام يرمز؟ عاد الوميض ليبقى فترة أطول هذه المرّة، وللحظة تساءل إن كانت هذه هي الخطوة الأولى نحو مرحلة التنوير. بدأ يخترق كتفيه شعور بالدفء، وأحس فجأة بأنه خفيف جدّاً. ثم رنت ضحكة في أذنيه، وانفتحت عيناه، ليجد نفسه محاطاً بجمع من طلبة المدارس. وعكس أحدهم نور مرآة في عينيه للمرة الأخيرة، في حين ركل غيره التراب في وجهه، ثم هرول الجميع مبتعدين وضاحكين.

نهض السيد جلال ينفض التراب عن شعره بضجر، وبينما هو يمشي غائم البصر نحو موقف سيارات الأجرة، استقر رأيه على أن العالم قد أصبح مكتظاً أكثر من اللازم بالبشر لخلق ظروف التنسك نفسها التي كانت على أيام بوذا.

وعلى الرغم من أنه انخدع، فإن شيئاً واحداً من تلك التجربة ظل معه، وهو ذكرى اللحظات الأخيرة عندما انتشر الابتهاج مثل الدواء في أنحاء جسمه، وحين جاش ذهنه بالتفاؤل لمّا شعر بنفسه يحوّم منعدم الوزن مثل بالون. أراد أن يتمكن من إعادة خلق الظروف نفسها التي أوجدت التجربة الأولى، ووجد نفسه منغمساً في هذه المسألة بإلحاح جديد، كما وجد نفسه يبدأ في الإحساس بالأمل في العثور على شيء ما ضد الشكل الخارجي لطبيعته، وأن اختبارات الألم والحرمان التي يعرّض نفسه لها ستخلي الطريق لظهور كرامة جديرة بالتصديق - كرامة لن يتمكن أبداً من دحضها، وستشتعل بما تحمله من طاقة خلال كل خلية، وكل عرق من جسده. أخذ توقه يزداد مع كل محاولة يقوم بها، وسرعان ما كان يذكّر نفسه بين الفينة والأخرى بأن التشاؤم كان على الدوام جزءاً من طبيعته.

الليلة، وبينما السيد جلال يخطو على مهل هابطاً الدرج المظلم والخالي حتى من ضوء القمر، لم يكن التشاؤم هو المسيطر على ذهنه بل الإثارة. كان ينتظر هذا الأمر طوال اليوم، وتكوّن لديه شعور حول هذه التجربة - ربما ستكون هذه هي المحطة خلال رحلته التي يصل فيها إلى مكان ما.

دلف بسهولة إلى الهدوء المخيم على بسطة فيشنو. وبدا له الأمر كما لو أنه ولوج إلى بُعد مختلف حيث تلينُ طبيعة كل شيء، كما تستدير حدة كل زاوية. هناك يستلقي جسد فيشنو تحت الملاءة، وكانت رسومات الورود على الملاءة باللون البرتقالي البراق تومض في الظلمة من حول قدميه. لاحظ أن الملاءة تم تغييرها منذ البارحة، وكذلك موقع فيشنو على الأرضية. حتى الرائحة بدت له مختلفة - فقد اختلطت روائح الإفرازات، برائحة الفينول الحادة، وظلت هناك في هواء البسطة مثل الجوّ المعتاد في المستشفيات. وتساءل عمّن نظّف فيشنو فشغلت التغييرات باله، إذ عوّل على وجود القذارة ليجعل منها اختباراً فعلياً، أكثر مما قد يحدث الآن.

وبينما كان يُعد نفسه للالتصاق بفيشنو، حاول تخيّل ما الذي فعله بوذا قبل أن يستلقي أرضاً. من المؤكد أنه نطق بصلاة ما قبل الاستغراق في التأملات. وماذا عن الأم تيريزا، والقديس فرانسيس؟ لوهلة فكر في رسم إشارة الصليب لكنه عدل عن ذلك. ومستخدماً حاسة اللمس لديه، مدّد نفسه بجانب جسده في الظلام وأحس بالامتنان لأنه شعر بالبسطة أكثر صلابة من أرضية غرفة نومه.

لامس طرف ملاءة فيشنو منامة السيد جلال. الجسم والجسد كما نذر من قبل. وجذب إليه بعضاً من الملاءة من تحت فيشنو وسوّاها فوق منامته، ثم مد ذراعه وتحسس تحت الملاءة إلى أن اتصلت أصابعه بفيشنو.

دعني أخبرك يا صغيري فيشنو عن (الروح - يوغي) المسمّى جييف، الذي يولد تسعمائة وتسعين ألف مرة.

يتوقف فيشنو فوق الدرج لينصت، فأي من قصص جييف التي ستخبره بها أمه؟

منذ عقود كثيرة مضت، خلال الأيام التي كانت فيها (الكورافات) و (الباندافات) تعيش في زمن (المهابهاراتا) انتقل جييف لتوه من طور الحشرة. كان يولد أحياناً على هيئة طير، ويولد أحياناً أخرى على هيئة حيوان صغير. وكان براهما قد استيقظ من نومه أخيراً ونفث العالم من أنفاسه. في ذلك الزمان كان العالم مازال جديداً، وجداول المياه باردة ورقراقة؛ وظهرت غابات ساحرة على الأرض، وحتى الأشجار كانت لها أرواح داخلها. أما الحيوات التي عاشها جييف فسهلة ومريحة - يقفز، ويطير، ويجرى، مستغلاً الكميات القليلة من الهواء والماء التي يحتاجها لوجوده. نعم، لقد مرّ عبر ميتات وولادات عديدة، لكن الولادة من جديد لا تكون مؤلمة كثيراً عندما يكون المولود بهذا الحجم الضئيل.

حدث الأمر خلال إحدى دورات حياته كطائر عندما وجد جييف نفسه يُحمل إلى بيت الباندافات. وكان على وشك أن يحطّ على شجرة عندما أتاه سهم طائر من خلال الأوراق وسحج ريشه. فطارت لفة من ريشه في الهواء، وجعله منظرها يسقط إلى الأرض مصدوماً.

«افتح عينيك أيها العصفور الصغير»، خاطبه صوتٌ، فوجد جييف نفسه مستلقياً في مهد راحة يد ما. «لم أقصدك بالسهم، فقد كنت أتمرّن لإصابة فرع الشجرة دون أن أنظر، ولم تكن موجوداً عندما عصبتُ عيني».

كان ذلك صوت أرجون، أمهر رماة السهام على الإطلاق. رأى جييف الوجه الوسيم، ورأى الصدر المتكور الذي زادته ممارسة الرماية قوة، وأحس بصلابة في صدره المريّش الصغير.

« يا لك من طائر جميل»، قال أرجون ممسداً منقاره. «تعال، سأحملك إلى بيتي ويمكنك البقاء فيه إلى أن تشعر بتحسن».

لفّ أرجون جييف في منديل ودسّه في صديريته. وفي طريقهما إلى البيت، سيطرت على حواسه رائحة جسد أرجون، وحتى خلال الوقت الذي استغرقه الانتقال إلى كوخ الباندافات، هام جييف حبّاً بأرجون.

وصلا إلى الكوخ، فصاح أرجون: «انظري يا أمّاه، تعالي وانظري ماذا وجدت».

وأجابته من داخل الكوخ: «مهما يكن ذلك الشيء، فعليك اقتسامه مع إخوتك».

ولأنه ابن ملك من سلالة (الراجبوت) فقد كان ملزماً بالانصياع لكلام أمه، وعندما تخرُجُ تلك الكلمات فلا مجال لردّها. وهكذا أصبح جييف هو جالبُ الحظ لأخوة الباندافا الخمسة. اهتموا به بالتناوب يوماً بعد الآخر، يطعمونه من راحات أيديهم، ويدعونه يحط على أكتافهم، ويربتون على رأسه الصغير بأصابعهم. وعند سفرهم يصطحبونه معهم إلى أي مكان يذهبون إليه، يحملونه في قفص ذهبي عندما لا يستطيع جناحاه أن يرفرفا بالسرعة المناسبة لمواكبة سيرهم.

حاول جييف في البداية التعايش مع هذه الترتيبات، لكنها لم تسرّه. كل ما أراده هو تناول طعامه من راحة يد أرجون، والالتصاق بجسده، وألا يغني إلا لأذنيه. كان يعيش من أجل ذلك اليوم الخامس من كل دورة تناوب، حين تكون رائحة كل شيء ومنظره وملمسه كما يحب، وعندما يكون في صحبة الأخ الوحيد الذي يهمه من بين الإخوة الخمسة.

في نهاية المطاف لم يتمكن جييف من إخفاء مشاعره، وبدأت تظهر عصبيته خلال الأيام الأربعة التي لا يكون فيها مع أرجون. رفض تناول أي شيء، وكان ينقر أصابع إخوة أرجون إذا ما حاولوا أن يربتوا عليه. خص أمّ أرجون بحنقه الأشدّ، لأنّ توصيتها كانت نقمة عليه ولا يمكن النكوص عنها. وصار يسقط فضلاته على سريرها وينقر رأسها في أثناء نومها. ثم حاول الإخوة تهدئة جييف، لكن كان من الصعب السيطرة على ما يعتريه من غضب.

جاء اليوم الذي وضع فيه أرجون جييف في قفصه وسار به نحو الغابة. دامت الرحلة ساعات طويلة ومرّا بجداول وأشجار غير مألوفة. وفي أثناء السير، استمر جييف في تسليط نظرة على عيني أرجون، في محاولة منه لمعرفة كنه الحزن الذي يسكنهما.

ثم وصلا إلى مكان فسيح، ففتح أرجون باب القفص. نط جييف على الإصبع الذي أبرزه أرجون، ومن ابتهاجه أحس بنفسه وكأنه يسبح في الهواء.

«لكل مخلوق قدره الخاص الذي يتبعه، أيها الطائر الصغير»، قال أرجون وهو يقبله بلطف على جانب رأسه، «وقد حان وقتك اليوم لتجد قدرك».

للحظة رأى جييف الوجه الذي أحب قريباً منه، وحدق في الفم، وفي الشفتين اللتين مسحتا لتوهما على ريشه، ثم اختفى كل ذلك في لحظة، عندما طوّح أرجون إصبعه في الهواء. ورغماً عنه وجد جييف قدميه تتركان مربضه، وجناحيه يرفرفان، والعضلات في صدره تبدأ في الضخّ. وجد نفسه يرتفع، يرتفع، فوق أرجون، وفوق النباتات والأشجار، ويرتفع فوق الغابة، إلى أن نظر تحته ولم ير إلا اللون الأخضر. كانت الأنهار القادمة من بعيد تشق المكان، ومن خلفها الجبال، ومن خلفها يوجد الثالوث الأقدس، حيث يضطجع (براهما) في عربة البجعات السبع، و(فيشنو) ينتصب بكل ضيائه في عنان السماء، و(شيفا) عند حافة العالم، يجهز نفسه لأداء رقصته.

خلال الليل شاهد السيد جلال رؤياه. وهي من القوّة والكثافة كي لا تكون مجرّد حلم ـ كان على ثقة بأن هذه الرؤيا ليست إلا وحياً، وثواباً إلهياً. أمضى جانباً من الليل في قلق

يتقلب في نضال عنيف، وفي أثناء ذلك انسحبت الملاءة والوشاح المغطيان لجسد فيشنو، والتفّا حول جسمه.

في الرؤيا كان يجلس على الدرجة التي فوق البسطة مباشرة، يرتدي منامته، في حين يجلس بجانبه فيشنو، الذي يبدو أنه قد تعافى من مرضه، وبينهما وعاءٌ مملوءٌ بحبات جوز الهند.

التقط فيشنو جوزة من الوعاء ووضعها فوق البسطة، ثم هوى عليها بقبضته فكسر قشرتها، وأخذ يفتش بين الحطام لالتقاط الثمرة.

حاول السيد جلال القيام بالشيء نفسه، لكن جوزته لم تتكسر، وارتدّت قبضته عنها مصحوبة بالألم.

«ليس ذلك بالأمر الهيّن»، قال فيشنو ضاحكاً. «أنا فقط من يمكنه القيام بذلك»، ودفع ببعض كِسَر الثمار إلى يد السيد جلال الذي حملق فيها بشك. «لا تقلق، فهي سليمة من المرض. لقد تعافيت الآن ـ ولن تصاب بالعدوى».

وضع القطع في فمه، فبدا له طعمها غريباً وكأنها مقلية في الزيت لإظهار نكهتها. ثم نظر إلى الوعاء وتمنى لو أنّ فيشنو يكسر المزيد منها على الرغم من أن تناول الجوز قبل النوم لا يعد فكرة صائبة.

«أرى أنك جئت لتنام هنا الليلة»، قال مهشماً جوزة أخرى، مسلّماً ثمرتها بالكامل له. «لكن أخبرني، ما الذي تأمل أن تجده بالإضافة إلى ثمار الجوز»؟

أحس السيد جلال بهشاشة الجوزة تحت أسنانه، كما تسربت عصارتها الكثيفة لتغطي لسانه، وحاول تذكر سبب مجيئه.

ثم تذكر فأخبره، «أسعى إلى المعرفة ، وجئت لأرى كرامة ما».

أخذ فيشنو يضحك، «وكيف ترى الأمر ـ هذه المعرفة التي تنشدها ـ هل ستحصل

عليها عن طريق جوزة؟ وأنها تنتظرك في إحدى هذه القشور؟ ـ وأن أقوم أنا بالكسر في حين تبلعها أنت؟»

ردّ بخشونة: «لعلمك، كنت أنام على الأرض طوال الشهور الأخيرة».

«وانظر إليك الآن، فقد هبطت الليلة حتى دون وسادة. بالتأكيد هذا يستحق شيئاً ما». وكسر فيشنو جوزة إضافية، ثم مد يده بها. «إليك بهذه، ربما تكون هي التي بدأت حَجّك من أجلها».

احمرّ وجه جلال، «لقد جوّعتُ نفسي وآذيتها. قد لا أكون بوذا، لكن ما فعلته له معنى»، ثم دفع عنه يد فيشنو، «كل ما أطلبه هو كرامة ما، وليس الدخول للجنة».

«لو كان ظهور الكرامات سهلاً، فسيصطف الناس أعلى وأسفل الدرج للحصول على هذا الجوز. وسيمكنني بيع كل واحدة منها مقابل ثروة».

«أنت لا تفهمني، ولا تعرف كم عانيت، وكم حاولت. فلستُ بشراً عادياً كما تعرف ـ طوال تلك المدة لم أفكر في شيء آخر غير هذا الأمر». ثم علا صوته ليشبه العواء، «إن كان هناك أحدٌ يستحق الحصول على المعرفة، فهو أنا».

«أنت ومليون غيرك، فقد سبق وأخبرتك بأن الأمر ليس بهذه البساطة. ربما يتعين عليك العودة في وقت آخر، ربما بعد عدة سنين، فقد تكون أكثر استعداداً حينذاك». ونظف فيشنو يديه من بقايا كسر الجوز.

ثار شيء ما بداخل السيد جلال. «ومن تظن نفسك؟ من أنت لتقرّر؟ فلم أحضر هنا للاستماع إليك، أيها السكير الأحمق. ومن طلب منك شيئا في الأصل؟»

«لن يؤثر في مثل هذا الغضب، ولن يعمل إلا على تعتيم رؤيتك»، ثم واصل فيما يشبه الهمهمة: «على الرغم من أن ذلك سيكون خسارة كبيرة، إنّ كنت بهذا الغضب ولم تلحظ شيئاً». وبدأ يفحص الجوز في الوعاء مقلباً بعضه مثل بائع فاكهة يرتب بضاعته لتظهر غير المعطوبة منها في الواجهة.

«وماذا تريدني أن ألاحظ؟ هل ستطلعني على أمر ما؟ كرامة ربما؟ أنت من السماوات العلا أليس كذلك؟ وقد أتيت لتوزيع ثمار الجوز السحرية؟».

«التزم الهدوء. اهدأ وانتبه، أو يفوتك ما أتيت من أجله».

«لن أهدأ، ولن أسكت»، ثم انتصب واقفاً، «هذا هو رأيي في كرامتك.» وركل وعاء الجوز فأرسله متطايراً في الهواء. «هذا ما أظنه بك وبجوزاتك». اصطدم الوعاء بالجدار وانقلب، مفرغاً محتوياته على البسطة. فانتشرت حبات الجوز على الأرضية، وسقطت أسفل الدرج محدثة قعقعة.

«لا أرغب في أي كرامات بعد الآن، ولا في دين، لا أريد المزيد من هذه الترهات فكل شيء مجرد خدعة. خدعة كبيرة وهائلة.» رفع قبضة فوق رأسه وهزها في الهواء، «سرتُ وراء هذا الأمر لشهور ولم أر شيئاً. وأنا أقول إنها مجرد خدعة كبيرة وهائلة ضد بني البشر».

«أحمد».

لبعض الوقت لم يعرف السيد جلال مصدر الصوت. ثم اكتشف أن فيشنو انتصب واقفا أيضاً، ووقف قبالته وجهاً لوجه.

«انظر يا أحمد»، قال ممسكاً بحبة جوز في يده، «هذه هي الأخيرة، التي سأكسرها من أجلك».

كان ذلك غريباً، بل غاية في الغرابة أن يسمع فيشنو يناديه باسمه الأول مجرداً. هل نسي مكانته بالكامل؟ بالتأكيد لن يسمح بمثل هذه الحميمية أن تمر دون تأنيب. كان يفكر فيما سيردّ به عندما أدنى منه فيشنو حبة الجوز إلى أن صارت تلمس منتصف جبهته. وتساءل في نفسه ماذا يعتقد هذا الأحمق أنه فاعل الآن. كان يريد أن يقول، «أبعدّها عني على الفور»، لكن قبل أن يتمكن من إخراج الكلمات، تبيّن حركة غير واضحة له عندما ارتفعت قبضة فيشنو في الهواء، وهشّم الجوزة داخل جمجمته.

«والآن تطلعْ إليّ وشاهدني على حقيقتي».

أول ما خطر له أن فيشنو قد جنّ. فأي نوع من الناس هذا الذي يدفع بقشر الجوز داخل دماغ شخص آخر؟ ثم اكتشف أن حبة الجوز فتحت ثقباً في جبهته، ثقب أشبه بعين ثالثة كان يرى من خلالها نوراً مبهراً. رأى الشمس تخرج من خلف فيشنو وفوجئ بقدرته على النظر مباشرة إلى مركزها الأبيض المتوهج. وبينما هو ينظر شاهد شمسين، ثمّ أربعاً، ثم ثمانياً، ثم ست عشرة شمساً. أخذت الشموس في التضاعف والصعود في الجو إلى أن أصبحت السماء مغطاة بها، ولم يعد بالإمكان مشاهدة زرقتها، ولا يوجد إلا بريق دوائر المصابيح المتوهجة يمتد من الأفق حتى الأفق، تدلقُ إشراقها عليه.

عندما تحوّل بنظره عن السماء، كان جسم فيشنو يمر بعملية تحوّل صارخة إلى مادة سائلة ونيّرة امتصّت الضوء من الجو، وأطلقته مجدّداً في صورة طاقة مكثّفة. بدأت أطرافٌ تظهر من كل محيط فيشنو، وفي نهاياتها رأى محاراً منقوشاً بدقة متناهية، وصولجانات ملبّسة بالجواهر، وكانت بعض الأيدي التي ظهرت عليه تحمل زهور اللوتس التي تفتحت لتبدي مآبر هائلة منتصبة في وسطها. استمرت الأطراف في الظهور، واستمر فيشنو في التمدّد إلى أن لامس الشموس من فوقه، ولم يعرف السيد جلال أين بدأ وإلى أين انتهى. وامتلأ الجو من حوله برائحة لطيفة تشبه عبق البخور، لكنه كان يعرف أنها لا تشبه رائحة أي زهرة.

عند نقاط اتصاله بالشمس بدأت تظهر رؤوس تمتد إلى تحت لعدة أميال وترتدي الشموس كأغطية لها. تفتحت عيون مهولة الاتساع في الرؤوس، فارتد إلى الوراء في وجل عندما أخذت ترمش في توافق وتنظر إليه من علٍ. ثم انفتحت الأفواه وأمكنه أن يرى بداخلها أسناناً، وأنياباً، وخيوطاً طويلة من اللهب المندفع، اندفع بعضها إلى الخارج وسفع الأرض عند أقدامه بحرارته. أما داخل تلك الأفواه فهناك ثعابين، وجماجم أيضاً، وأمكنه مشاهدة أجسام بشرية يجري سحقها بين تلك الأسنان.

بينما أخذ في التحديق، استمر فيشنو في التمدد، وتولدت له رؤوس وزيادات أخرى من داخله، وأخذ سطحه الخارجي في الغليان. وصارت أشكال أصغر تنفصل ثم تعود للالتحام بمحيطه، مثل ألسنة اللهب على حواشي النيران.

«من أنت؟» قال متلعثماً. «أخبرني عمن تكون، وأنت في هذه الهيئة الفظيعة؟»

«أنا ما تتذوقه في ماءك، وأنا ما تراه في الجوّ. أنا النفس في كل زهرة، وأنا الحياة في كل مخلوق. أنا كل المخلوقات، وأنا الخلق بذاته. انظر إلي وسترى العالم بأكمله في جسمي».

انفتح فمٌ، وأطبق على الهواء بالقرب من رأس السيد جلال، وبرزت منه أنياب ضخمة تنفخ النار في وجهه، فأحس بشعر حاجبيه ينسفع.

«أنا من أضُم في داخلي آلهة الشمس والقمر والرياح وآكلة النار في كل العالم. أنا هو الأبدي، مبتدأ الكون ونهايته. عند نهاية كل يوم تُدمَّر كل المخلوقات، وتعاد من جديد في داخلي».

رأى بعد ذلك أشكالاً تتحول إلى شياطين وتنفصل عن محيط فيشنو. كشرت الشياطين عن أنيابها في وجهه قبل أن يحجبها عنه البخار الذي تنفثه من مناخيرها.

«ومن أين أتيت؟» سأله بصوت مرتعش.

«كنت هنا منذ الأزل، وسأظل هنا إلى الأبد - أنا في كل مكان، وكل شيء في الوقت ذاته. في كل خلية حية لكل مخلوق ستجدني، ومحظوظون أولئك الذين أتجلى لهم، فرؤيتي لا تتم من خلال التفكير العميق، وليس من خلال ممارسة الطقوس».

تضاعفت الرؤوس الآن وأخذت شكل روافع هائلة تحيط به من الاتجاهات كافة. كان يرى سيلاً من الآلهة والأشباح والشياطين تتنقل من فم مفتوح لآخر، غير هيّابة لمرأى الجماجم والأجساد المتدلية بين الأسنان. والجو مثقل بالحرارة إلى الحد الذي أحس معه بصدره يحترق من الداخل.

«وماذا تريد مني؟» أخرج صوته مجهداً كالصفير.

«محظوظون من يقرون بوجودي، ومباركون من يعترفون بي ويعبدوني. أخبر من هم تحت بالاعتراف بوجودي كما أنا. ولن أطيل الانتظار كثيراً، قبل أن يصبح الوقت متأخراً كثيراً للناس كافة، لأنني أتيت لإنقاذ الكون وتدميره».

ثم بينما هو ينظر نحوه، شاهده يتمدد أكثر من السابق، إلى أن ملأ كل الفراغ وغطى كل الوقت. أحس بنفسه يتوحدُ مع فيشنو، ليس في هذا المجال فقط، ولكن في جميع مراحل كينونته السابقة أيضاً. آخر ما جال بخاطره كان شظايا قشرة الجوز الساكنة في جبهته، ثم تغشّاهُ إحساس بالتوحّد، فقد انتهت كل حواس اللمس والشعور، وتلاشت الأفكار والعاطفة، فغمره عمق رؤيته بأجواء سناها وعظمتها. وما إن تغلف بها حتى نزلت عليه سكينة غير متوقعة، وهدوء، وتوحّدٌ، وسكون التأمل، ثم في النهاية أتاه النعاس، صافياً، وهادئاً عميقاً على غير العادة. وهو ما صحا منه السيد جلال بعد ساعات.

الثامن

وضعت غاناغ القصيرة الحليب أرضاً، فعلى الرغم من أن بإمكانها نقل الزجاجات الثماني من كشك بيع الحليب إلى البناية دون توقف، فإن تسلق سلالمها مسألة مختلفة، ولهذا فهي غالباً ما تأخذ استراحة على مرحلتين، الأولى قبل أن تبدأ، والثانية عند البسطة أمام عائلة جلال. كانت تحتاط كي لا توقظ (الرجل النائم) أسفل درجات السلالم. ولم يكن سبب ذلك اهتمامها بعدم إزعاج نومته، بقدر ما أنه دائماً ما يحاول النظر خلال ساريها عندما تمر بجانبه إن كان مستيقظاً. فرغم ارتدائها للساري بطريقة المهاراشتريين، وهو ما يجعل النظر من تحته مستحيلاً، فإنها ظلت تشعر بعدم الراحة تجاه محاولاته. وكادت تتمنى معاكسته لها بشكل مختلف وبطريقة ملموسة، لتسلط علية السغائر وله فيوسعه ضرباً.

عملية توزيع حليب الصباح هي أكثر جزء محموم من اليوم. فعليها أولاً الوقوف في طابور للحصول على الحليب من كشك توزيع مخصصات التموين، مستخدمة البطاقات التي تعطيها لها كل عائلة، ثم يبدأ السباق لتوزيع كل الكمية على سكان البناية قبل أن تفسده حرارة الجو. ويعدّ إبريل أحد أكثر الشهور حرارة بعد مايو، وتذمّر في هذا الأسبوع اثنان من زبائنها حول تسلمهم الحليب فاسداً، وعندما يحدث مثل هذا الأمر تكون الخسارة قاسية عليها، لأن ثمن زجاجة منه يعادل تقريباً ما تحصل علية من أجر لقاء توزيعها مدة أسبوع لبيت واحد. في الغالب حين يطالبها بعضهم أن تدفع له ثمن الحليب الفاسد، تتوقف عن التوزيع لذلك العنوان - ولو أن عدداً مناسباً من الغاناغات يتخذن الإجراء نفسه، فلن تتمكن ربات البيوت من ممارسة مثل هذا الطغيان عليهن.

بعد انتهاء استراحتها، رفعت الحاويتين المعدنيتين وبدأت تسلق الدرج. لم تحصل اليوم إلا على الزجاجات المغطاة بالألمونيوم الأحمر، التي تحوي الحليب المخفف، وهو ما سيعني حدوث مشاكل بالتأكيد، وبالأخص مع عائلتي باتاك وآسراني. كانت تعرف أنهم سيتهمونها ببيع حليبهم الجيد للزبائن الذين لا يملكون بطاقات تموين، واستبدال حصتهم بنوعية أرخص. وهو ما تقوم به أحياناً، لكن القضية أنها لم تفعل ذلك هذا اليوم.

ليحاولوا ذلك اليوم فهذه الحرارة تجعلها ميالة للشجار، ستتهمهم بتسميم فيشنو وذلك كفيل بإسكاتهم. وعلى كل فليس ذلك ببعيد عن الحقيقة ـ بعد أن أخبرها السفائر وله أن العائلتين لم تقبلا دفع تكاليف المستشفى رغم حضور عربة الإسعاف لنقله. «كل تلك السنين التي خدمكم خلالها»، كانت تتدرب على ما ستواجههم به. «وهكذا تكافئونه؟ أشنع من ميتة كلب؟»

وصلت غاناغ القصيرة إلى المرحلة التي لم تعد تهتم فيها بانقطاع الخدمة في عدة بيوت. وعلى كل حال فخسارة الأجر الذي تناله من مكان واحد لا يعني لها الكثير. وإن أراد أحدهم الاستغناء عنها لحديثها بصراحة فليكن. ستريهم ـ ستضعهم على القائمة السوداء عند الغاناغات اللاتي تعرفهن، وعندها سيعرفون عواقب طردها والإقلال من قيمة قدراتها. غاناغ القصيرة، بالفعل! لو لم يكن لأجل خاطر السيد تانيغا في الطابق الثالث، لألفت هذه البناية من قائمة خدماتها منذ زمن طويل.

مسكين هذا السيد تانيغا. يبدو أنه لا يترك شقته أبداً ـ لم يعتمد عليها في جلب الحليب فحسب، وإنما تأتيه بالطعام في كل عشية أيضاً. لقد أخبرها البان وله قصة حزينة حول وفاة زوجته منذ سنين عديدة. «يا لها من امرأة،» قال وهو يمسّد شاربه، «كان لا بد أن تحصل على حصتها من البان الحلو يومياً، مهما كانت الظروف». وبعد وفاة زوجته صار ينعزل تدريجياً، فأخذ سكان البناية ينظرون إليه كشخصية غامضة. كان السيد جلال يقول لغاناغ القصيرة: «أخبري السيد تانيغا بأنه أندر من هلال العيد». وكان هو الوحيد الذي يقيم اتصالاً منتظماً معه، ويرسل إليه أحياناً كمية من البان كتحية منه مع البائع الذي مايزال يكن عاطفة لذكرى زوجه الراحلة.

ربما كان عليها أن تخبر السيد تانيغا عن فيشنو، فعلّه يقوم بشيء ما، ولأن الرجل لا يخرج من بيته قط، فربما لم يعلم عن مرض فيشنو شيئاً.

كادت تصل إلى بسطة فيشنو عندما جالت بخاطرها فكرة مفاجئة. ماذا لو وجدت فيشنو ميتاً؟ سيكون ذلك أمراً مزعجاً ـ قد تضطر حتى لتقديم تقرير للشرطة، وربما التعرض للتحقيق أيضاً. عليها الآن التحقق من بقائه على قيد الحياة، وحتى لو لم يكن

كذلك، فستخبر السيدة باتاك بأنه مازال يتنفس، فلا مبرر للتورط في تعقيدات غير ضرورية. بالإضافة إلى أن تلك غلطة فيشنو في جميع الأحوال ـ فهو لا يتناول أي طعام، يعاقر الخمر دائماً، ولا يتناول أي أدوية حتى وهو يعرف أن حالته تسوء.

بان عليها الجانب العلوي من ملاءته، ثم ما تبقى منها، ثم شكل الجسم من تحتها، وأطلقت شهقة عندما رأته يتحرك. إنه مازال حياً وربما في تحسن أيضاً. فكان أن تركت زجاجات الحليب على الجانب، وصعدت الدرجتين المتبقيتين للوصول إلى البسطة، ثم تسمّرت في مكانها.

رأت جسدين هناك، أحدهما فيشنو الذي يضطجع قريباً من الحائط، وكان جسده غير مغطى وساكناً. أما الملاءة فملتفة حول الجسم الثاني الذي كان لرجل ما، لكنه حيّ لأن شخيره يُسمع من تحت القماش. رأت كذلك وشاحاً باللونين الأحمر والأخضر يلتوي ويتداخل مع الملاءة، ويلتف حول رأس الرجل.

ماذا عليها أن تفعل؟ تصرفها الفريزي الأول ألح عليها لمعرفة من يكون، بل وحتى إيقاظه. لكنها تساءلت ـ ماذا لو كان الراديو وله؟ قد يصحو من نومه فجأة حتى لو حاولت استراق النظر تحت الوشاح، فالرجل مخبول بعض الشيء ولم يغفر لها قط فقده لمغلفات الراديو، ماذا لو قتلها حينذاك في المكان نفسه ؟ كلا، فالتصرف الآمَنُ هو الصعود لإحضار السيد باتاك.

نسيت أمر الحليب الموجود درجتين إلى الأسفل، وهرولت أعلى الدرج نحو بسطة الطابق الأول، ثم دقت الجرس، وكانت السيدة باتاك هي من فتح الباب.

قررت غاناغ القصيرة ألا وقت لديها لتضيعه معها، وأن المهمة تتطلب رجلاً، فسألتها بجدّية: «السيد باتاك موجود؟»

رغم معرفته بموقع بسطة فيشنو، فإنه سار في أثر غاناغ القصيرة وهي تهبط الدرج، كأنها تقودهما إلى طريق كنز اكتُشف حديثاً. تموضعت السيدة باتاك خلف الطابور فيما يبدو أن تجهيزٌ لاستخدام جسم زوجها كدرع إن بدأت المشاكل، ولكن بإمكانها في الوقت نفسه مغادرة حقل الأمان في تحركات مفاجئة لتقديم النصح أو التشجيع.

«ما انفك هذا الأمر يزداد غرابة»، قالت السيدة باتاك دون وجود ضرورة لذلك، «والآن سنذهب لرؤية هذا السيد الغامض، الذي عرج على المكان للنوم فيه».

أسكتت غاناغ القصيرة السيدة باتاك التي وضعت إصبعها فوق شفتيها في امتثال لأوامرها، على الرغم من أن ذلك يعد إجراء غير ضروري، لأنهم ذاهبون أصلاً لإيقاظ هذا الرجل الغامض.

وقفوا فوق الهيئة المغطاة بالملاءة والوشاح، «انظروا إليه، لقد استولى على ملاءتي من المسكين فيشنو - ياله من رجل غامض وزيادة، كي يسرق الغطاء من شخص يحتضر»، أعلنت السيدة باتاك بقوّة ثم انحنت لإلقاء نظرة أقرب، «وهذا الوشاح - رأيته من قبل - من يرتدى هذا اللون من الثياب ؟ هل هي السيدة آسراني، أم السيدة جلال»؟

التفتت غاناغ نحو السيد باتاك الذي تنحنح وأعطى تعليماته، مشمئزاً من القيام بالمهمة بنفسه: «بإمكانك نزع الملاءة عنه وستعرفين من هو».

فكرت في الاحتجاج، لكن جانباً منها كان مستثاراً لأنها هي من سيكشف لغز الرجل الغامض. بالإضافة إلى أنه في حال قام الراديو وله بمهاجمتها، فسيكون لديها الدليل، في وجود الزوجين كشاهدين، كي يمثل أمام السغائر وله. مدت يدًا لطرف الملاءة، لكن قبل أن تلمسها تحرك الشخص من تحتها، ثم انتصب جالساً ومازال وجهه مغطى.

تراجعت إلى الخلف، وندت عن السيدة باتاك صرخة خوف. حتى صوت السيد باتاك ارتجف وهو يحاول السيطرة على رباطة جأشه قدر الإمكان. « من أنت؟» سأله.

«فيشنو؟ هل هذا أنت؟ من تكون؟ لم لا يمكنني رؤية أحد؟ ما هذا الذي فوق رأسي؟»

«جلال صاحب؟ ماذا تفعل هنا؟ غاناغ، هل يمكنك مساعدة السيد جلال لنزع القماش من فوق وجهه»؟ قال السيد باتاك وهو مازال متردداً في لمس أي شيء بنفسه. «ماذا حدث، هل سقطت في الظلام»؟

نزعت غاناغ الوشاح عن وجهه، وصار يرمش في ضوء البسطة، ويبدو مرتبكاً مثل حشرة تتحول من طور الخادرة.

«هل سقطتُ؟» كرّر ببلادة كأنه يوجه السؤال لنفسه، وفجأة تذكر وجلس في استقامة قائلاً: «فيشنو! لن تصدقوا ما شاهدته. لقد رأيت فيشنو على هيئة إله.»

«ربما سقط بالفعل»، اقترحت غاناغ القصيرة ثم عضدت أنفها بسبب رائحة الفضلات والفينول التي تنبعث من فيشنو، وتحوم الآن مثل سحابة فوق رأس السيد جلال أيضاً.

«لا يمكنكم تخيل كيف كان منظره، فمجرد التفكير في الأمر يبدو لي مخيفاً».

«ما الذي تتحدث عنه يا سيد جلال؟»

«مكنني من رؤيته، لقد رأيته. مئات العيون والأذرع والسيقان. بدا اللهب المنبعث من فمه بطول الأنهار، والجثث تتسحق بين أسنانه. وقال إنه إله وإنه لن ينتظر طويلاً إلا إذا اعترفتم به، وهذا ما كلفني أن أقوله لكم. وألا تعملوا على إغضابه».

حملق السيد باتاك في زوجته.

«سيد جلال، هل تراني؟» قالت السيدة باتاك.

«نعم، بالطبع يمكنني رؤيتك».

«هل تعرفني، يا سيد جلال؟».

«نعم، نعم، أعرفك بالطبع، انظروا، ليس لدي وقت لمثل هذا الأمور».

«من أخبرك بأن فيشنو إله؟».

«هو من أخبرني بالطبع، فيشنو، هل يصعب تصديق ذلك؟»

«لكن فيشنو لم يقل شيئاً منذ أيام»، أعلنت السيدة باتاك، مزهوّة ببساطة منطقها، «وقد يكون ميتاً الآن، هل فحصت نبضه؟».

« لست بحاجة إلى ذلك، فقد تحدثت إليه لتوّي. ألم تسمعوا ما قلت؟ يمكنكم فحص نبضه إن أردتم ولم تصدقوا ما قلت».

التفتت إلى زوجها، والتفت بدوره إلى غاناغ القصيرة، التي ردت بنظرة متحدية. فليس هناك شيء يقنعها بتفتيش أطراف فيشنو لمعرفة نبضه.

«أقول لكم إنه لم يمت، فقد تحدث معي لتوّه. لم يتحدث في الواقع - بل أوحى إلي وهو ما تقوم به الآلهة عندما ترغب في قول شيء ما. إنها توحي».

«وماذا أوحى لك بالضبط؟»

«لقد أخبرتكم، فقد تجلى لي، إنه يشبه تلك الآلهة التي نراها في التقويمات الدينية - مثل التي يحتفظ بها السفائر وله في دكانه. بل إن له عدداً أكثر من الأيدي، والأفواه، والأسنان، لو أمكنكم تخيل الأمر».

توقف السيد جلال قليلاً وهو يفحص الجو المحيط، وكأن ظهور فيشنو غير المتوقع مازال يحوم من حولهم. «كان يقف قبالتي هنا، قبل أن يبتلع كل واحد، وكل شيء».

تبادلت غاناغ القصيرة نظرة مع السيد باتاك الذي تنهد على أثرها: «تعال معي يا سيد جلال، لقد مررت بليلة صعبة وربما من الأفضل الصعود إلى بيتك».

«نعم، فلا بد أن زوجتك قلقة عليك»، أضافت زوجه.

همست غاناغ القصيرة: «تقمصته روح ما، ودخلت من خلال منفذ ما تركه مفتوحاً، ثم صعدت إلى رأسه. من المؤكد أنها روح، وأنها دخلت من أحد المنافذ»، ثم تفحصته بريبة تاركة نظرتها تستقر على أذنيه، وفمه، وحتى إليتيه.

أسكتتها السيدة باتاك: «هيا يا سيد جلال، سنساعدك للوصول إلى شقتك. غاناغ، هل يمكنك تخليص الملاءة من فوق قدميه؟».

نظر إليهم شارد الذهن، في حين كانت غاناغ تسحب الملاءة المشتبكة على قدمه اليسرى، ثم اليمنى. ولفت انتباهه المنظر المرسوم على القماش، فالزهور التي بدت له برتقالية في ضوء البسطة في ليلة الأمس، هي في الحقيقة صفراء. وتاه عجباً بذلك، فالأصفر لونٌ ميمون، والزهور الصفراء مثل شموس صغيرة ترمز إلى النور، وإلى الطاقة. مال إلى الأمام وانتزع الملاءة من يديها، في حين كانت على وشك طيها.

«هذه الملاءة تخص فيشنو، ولا بد أن نأتي بوسادة لنضعها تحت رأسه.» أعلن وهو يسوّيها فوق جسد فيشنو.

بينما كان الزوجان يساعدانه ليخطو أولى الدرجات، أمسك فجأة بذراعيهما قائلاً وهو يسحبهما بالقرب منه ويمعن النظر فيهما واحداً بعد الآخر، «أخيراً حدث الأمر، أليس كذلك؟»

رنّت أساور السيدة باتاك في احتجاج وهي تحاول تخليص نفسها منه، لكن قبضته كانت شديدة.

«لا يمكنني تصديق ذلك، فقد حدث هذا الأمر حتى لي»، قال وهو يجول بنظره لتأكيد الأمر، على وجه السيد باتاك في البداية، ثم على زوجته التي لم يتبين تماماً مدى غضبها لأن يداً غير يد زوجها تمسك بها.

«أمرٌ مذهل أن تظهر لي كرامة»، استمر في حديثه غافلاً عن السيدة باتاك وحالة القلق الذي أخذ ينتشر أيضاً فوق وجه غاناغ القصيرة.

لحسن الحظ، وعند الحد الذي بات فيه انطلاق صرخة السيدة باتاك أمراً محتوماً (وعندما كانت غاناغ القصيرة تستعد للهرولة والاستنجاد بالسغائر وله، والسيد باتاك يتساءل عن الطريقة التي يتدخل بها)، أرخى السيد جلال من قبضته وسمح لنفسه بأن يُقاد أعلى الدرج إلى شقته.

تبدو البسطة مهجورة من جديد، وما نزل على السيد جلال من إلهام صار ينساب فوق الدرج في صمت.

هل يمكن أن يكون ذلك حقيقة ؟

أن يكون هو فيشنو.

هل يمكن الوثوق في رؤيا السيد جلال؟ وهل يعي فعلاً ما يقوله؟

وأنه إلـه بالفعل.

هل يفسّر ذلك لماذا أصبح منعدم الوزن؟ وهل ذلك هو كيف يتحرك من درجة إلى أخرى بمجرد الإرادة؟

إنه فيشنو.

نعم، لا بد أن تلك هي الحقيقة، وإلا كيف يمكن أن يكون سمْعُه بهذه الرهافة بحيث يلتقط موسيقى الراديو وله. وأنّ رؤياه بهذه الحدة ليمكنه النظر من خلال الجدران؟

إنه الإله فيشنو.

أليس ذلك ما كانت أمه تخبره به دائماً؟ وأليس ذلك السبب في إعطائه مثل هذا الاسم؟ وماهو ذلك المثل الذي تجعله أمه يردده دائماً؟

أنا فيشنو، يقول. لم يقل ذلك منذ أيام طفولته.

أنا فيشنو، يأخذ في التدرّب على النطق به. ويبدو له صحيحاً.

لكن ما الذي جعل منه إلهاً بشكل مفاجئ. وماذا تغير بعد كل هذه السنين من الحياة كإنسان؟ أم أنه كان إلهاً طوال الوقت، لكنه لم يعرف مدى قوته؟ وهل انتظرت هذه القوة بداخله كل هذا الوقت كي يطلق عنانها لو أراد ذلك؟

أنا فيشنو حارس هذا الكون، وحارس الشمس.

إن كان إلهاً، أليس من الأجدر أن يعاشر غيره من الآلهة فقط؟ أليست منزلته أرفع من عامة البشر - ممن في هذه البناية، وفي الشارع؟ لقد سمع السيد جلال يطالبهم بالانصياع له وتبجيله. ماذا لو لم يفعلوا - فكيف سيعاقبهم؟ وكيف يتعامل مع من أخطؤوا في حقه في الماضي، والذين سيجرؤون على نكرانه في المستقبل؟

من دوني ليس إلا الظلام.

هل بإمكانه أن يذهب بالشمس، والقمر؟ وهل باستطاعته أن يسدل على الكون ظلاماً دامساً؟ وهل كل كائن حي، يعيش في محيط نوره؟ وهل تجب تلبية كل رغباته، والانصياع لنزواته كافة؟

لكن ما الذي يريده؟ ما الذي يفترض أن ترغب فيه الآلهة؟

أنا فيشنو، يقول لنفسه. وهو متلهف لمعرفة الأساليب والطرق الجديدة عليه.

حلت الساعة التاسعة قبل أن تدخل السيدة آسراني غرفة كافيتا، وجرت العادة على ترك ابنتها تنام لفترة أطول في أيام الأحد، وأحياناً حتى الظهر. ولكن في ضوء إجابتها «أعتقد أنني ربما أوافق»، التي سمعتها البارحة، لم تكن الأم متأكدة من مقدرتها على كتمان الأمر أكثر من ذلك. وعليه، سعت إلى ابنتها لسماع تأكيد منها. كانت في منتهى الإثارة طوال الصباح، ولم تكد تلقي بالاً لثرثرة غاناغ القصيرة حول العثور على السيد جلال نائماً على بسطة فيشنو، وعن محاولته الاعتداء على السيدة باتاك. لكنها فوجئت الآن عندما وجدت سرير كافيتا مرتباً، لأن ابنتها نادراً ما تفعل ذلك. وفوجئت أكثر عندما لم تجدها في الحمام، وهي التي اعتادت أن تشغله لساعات كل صباح.

«هل رأيتم كافيتا»؟ ونظر كل من شيامو وزوجها إليها من حيث يجلسان على طاولة الإفطار. «هل غادرت البيت؟»

هز السيد آسراني رأسه. «لم يغادر أحد، منذ أن حصلتُ على الصحيفة».

«سأجدها لكم،» عرض عليهم شيامو، « كافيتااااااااااا... »

ليس من جواب. «غير موجودة، وأظن أنها هربت في النهاية مع ابن عائلة جلال، مما يعني أننا سنعيش في سعادة إلى الأبد».

بالتأكيد كان من الخطأ التفوّه بمثل هذا الكلام، وكانت الصفعة التي دشنت بها السيدة آسراني اليوم حيوية للغاية، فانفجر الصبي باكياً. «ادخل إلى غرفتك»، أمرته وهي تسحب من أمامه شطيرة المربى المأكول نصفها.

استمر شيامو في البكاء على الطاولة فأعاد له أبوه الشطيرة، وأخذ يضع أجزاءً منها في فمه بين كل زفرة وأخرى. «ليكن الله في عونك إن فرّت مع ذلك الصرصار، وليكن الله في عونك بلسانك الأسود هذا»، دمدمت في وجهه، «وأنت يا محترم؟» محوّلة اهتمامها إلى السيد آسراني: «هل ستكتفي بالجلوس هنا ورشف الشاي، أم ستحاول العثور على ابنتك الصغيرة الواعدة بالخير»؟

قال وقد شعر براحة التخلص من محيط هيمنتها: «سأذهب لألقي نظرة على غرفتها، وأتأكد إن كانت أغراضها ماتزال هناك.»

ثم عاد بعد دقائق، «كل شيء على حاله، كل الأغراض موجودة، وحتى حقيبتها ماتزال في الخزانة، لا بد أنها خرجت ولم أرها ـ ستعود قريباً.»

«إجابتها لنا بالموافقة وما إلى ذلك، كنت أعرف أنّ الأمر أروع من أن يكون حقيقياً. ماذا سنفعل الآن وما الذي سأقوله للسيدة لالواني؟» ندبت حظها وقد خفف القنوط مؤقتاً من غضبها.

«اهدئي يا آرونا، لم يحدث شيء وستعود كافيتا».

غاصت في مخزن غضبها من جديد مزمجرة في وجهه، «أنتَ، كل هذا بسببك. منذ متى وأنا أتنبأ بمثل هذا الأمر وكل ما تقوله هو: اهدئي يا آرونا، اهدئي يا آرونا، والآن هل ترى نتيجة ترك ابنتك تركب فوق رأسك؟»

لزم الصمت فهو يعرف بحكم التجربة أنّ أكثر الطرق أمناً عندما تصل الأمور إلى هذه المرحلة هو إبداء الأسف العميق، مثل ذلك المتوقع من تلميذ مشاغب. وجلس إلى الطاولة محاولاً أن يبدو في مثل بؤس شيامو.

«وعلام أنت ساكنٌ هكذا؟ هل ستظهر لك جنية من كوب الشاي لترشدك إلى مكانها»؟

لم يرفع السيد آسراني عينيه، في حين لايزال شيامو يرشف أنفه، لكنه لم يعد يرغب في تناول شطيرته، فبدأ يكسر الخبز إلى قطع ويسحلها في طبقه.

قلبت بصرها بين زوجها وابنها ثم عادت به إلى الأول. وفجأة لم تعد تدري ما كانت تنوي فعله، لكن من الواضح أنها قد وقعت عليه، فسحبت نفساً عميقاً.

«والآن لينصت الجميع، وهذا يعنيك أنت بالذات يا شيامو. إن عادت بعد قليل فهذا أمرٌ حسن، ولكن حتى يتم ذلك فلا أريدكما أن تخبرا أياً كان عن الأمر - وأعني أياً كان - وبالأخص جيراننا الأقربون. من يعرف فربما هم من أصابوها بالعين»، ثم ألقت نظرة لوم نحو شقة عائلة باتاك.

«وإن كانت كافيتتنا لا سمح الله، قد هربت مع هذا الصرصار، فما علينا إلا الانتظار. ننتظر حتى يعود إليها رشدها، وننتظر حتى تعود إلينا؛ أي لن ننبس ببنت شفة حتى ذلك الوقت، فسيكون أمراً مدمّراً لو أن الناس عرفوا بما حدث.»

«مفهـوم»؟

سوّى شيامو ما تبقى من الشطيرة وأخذ يراقب المربى يتسرب منه.

«شيامو، أنا أتحدث إليك ، مفهوم»؟

بنظرة تقطر بؤساً وندماً، هز الفتى رأسه بأنه قد فهم.

* *

استلقى السيد جلال في سريره وحاول أن يجعل التشنجات المؤلمة في ظهره تختفي. تجمعت لديه آلام عدة شهور الآن ويلزمه العمل عليها. الآن وبعد أن أثمرت مجهوداته، وبعد أن تحصل على كرامته التي كان ينشدها فليس هناك سبب لحرمان نفسه من

المتع الصغيرة مثل أن يتمكن من العودة للنوم على السرير. ضغط عضلات رقبته على الفراش، ثم عضلات ظهره وأحس بالحشوة القطنية تتمعج لاستيعاب تكورات جسمه. آه، فهذه النعومة في منتهى المتعة والانحطاط، ولا غرو ألا يأتي الإلهام للناس عند نومهم كل ليلة فوق فرشهم ووسائدهم الناعمة. انطلق شيء في عموده الفقري محدثاً صوتاً، وكاد الشعور بالراحة الذي أحس به يغمر ذهنه أن يفقده الوعي.

وهو ينتظر عريفة لتمكنه من الدخول لم يكن هناك سوى أمر واحد ملح في ذهنه، وهي الوصايا التي كلفه بها فيشنو. عليه الآن أن ينشر الخبر ويبلغ الناس ليقنعهم بأن فيشنو ليس إلا إلهاً. تهيأ عند عتبة الباب مثل رياضي على وشك أن يبدأ السباق. سينطلق مباشرة إلى جهاز الهاتف للاتصال بكل من يعرفهم، ويتصل حتى بصحيفة التايمس أوف إنديا.

لكن نوعاً من التشويش سيطر على كيانه فلا يبدو أن كلماته توصل معناها. لقد أصر على أن، «المعرفة لا تأتي من خلال ثمرة جوز». وانسل بعدها السيد باتاك وزوجته خارجين. ثم أعلن لها بأنه رأى «آلاف الأيدي والأقدام»، وكان يشير بيديه ليقلد أطراف فيشنو، وتحوّل التعبير على وجه عريفة من الاضطراب إلى الفزع، وفي النهاية سمح لنفسه بأن يُقاد إلى غرفة نومه لنيل قسط من الراحة.

أيقن أن الأمر لن يكون سهلاً، فلا أحد يصدقه من آل باتاك ولا غاناغ القصيرة، والآن يحدث الأمر نفسه مع عريفة ـ وهم في الحقيقة غير ملومين ـ فما رآه غاية في الروعة، وانتابه شعور طاغ بالإثارة فلم يبد تحفظه حيال الأمر. لكن إن لم يتمكن من إقناع زوجته، فما هي فرصته لإقناع الآخرين.

ترى كيف تمكن بوذا من نشر رسالته؟ وكذلك المسيح، وبقية الرسل؟ بل وحتى المبشرون في هذا العصر. تذكر مشاهدته لستايا ساي بابا في التلفزيون وهو ينزل من حيث يتربع إلى منصة محاطة ببحر من مريديه. تدافعت إلى المنصة أمواج من المخلصين الباكين الصائحين وهم يحاولون لمس ردائه الزعفراني. لكن الساي بابا سار في طريقه دون اضطراب ويداه مرفوعتان في مباركة، في حين ترتسم على وجهه ابتسامة سعيدة. كان

من الصعب رؤية وجهه على شاشة التلفزيون، وما تركه من تأثير على المشاهدين، مثل رؤية شخص ينزلق فوق الماء.

تخيّل نفسه واقفاً في شرفة بيته يلبس أردية بلون الزعفران، والطريق من تحته يغص بالمحتشدين هناك للاستماع إلى رسالته، بينما العربات تطلق مزاميرها في محاولة يائسة لتمر من الحشد، ثم يعم الصمت فجأة عندما يرفع كلتا يديه مثلما فعل البابا. سيحدق في أكبر عدد يمكنه من الوجوه التي ترنو إليه ـ هذا البحر المتلاطم، بحر من مريديه، وجميع العيون مركزة عليه، وكل تلك الآذان تنتظر سماع الكلمات الدامغة التي ستخرج من فمه.

لكن ماذا ستكون تلك الكلمات بالضبط؟ هذه الكلمات التي ستفرقع في الجو مثل البرق ومثل التيار الكهربائي فتشحن الحاضرين كافة؟ من أين سيأتي بالقوة لشد انتباه مثل هذا الجمع الهائل؟ وأن يلهمهم ويحثهم، ويجعل منهم تابعين له إلى الأبد؟

أحس بظهره يتيبس من جديد ورغب في الاسترخاء. لقد تنبأ بما سيحدث له، والمهم الآن أنه قد ولج إلى الحلقة وتم تدشينه، لقد فتح عقله بما يكفي لاستقبال الرؤيا، فشاهد كل تلك الأفواه الضخمة، وألسنة النيران، والبخار والدخان؛ إن الكرامة التي كان في انتظارها قد أتته. حاول أن يضغط عموده الفقري في الفراش مرة أخرى فسمع طقطقات واهنة، لكنها لم تكن بإمتاع الأولى نفسه.

هل حدث ذلك الشيء بالفعل؟ ما الدليل الملموس لديه؟ أم أنه في منتهى السذاجة؟ أليس ممكناً أن كل هذا الأمر ـ الرؤوس، والألسنة، والنار ـ مجرد حلم؟ فقد مرّ بأحلام من قبل ـ هل تناسى كم تبدو بعض الأحلام مقاربة للحقيقة؟ أليس هذا التفسير أكثر عقلانية؟ وأنه لا يشتمل على كرامات، أو إلهام، أو حتى أفكار خيالية؟ وفي الحقيقة أليس هو التفسير المنطقي الوحيد، الذي يتطلب اهتمامه، وقبوله التام؟

تعرف على (المنطق)؛ صديقه القديم، يعود إلى الوعي من جديد متلهفاً لاحتلال موقعه المستحق. ربما صحا من خدره في اللحظة التي عاد ينام فيها فوق فراشه من

جديد. وربما تنشّق حالة الخدر التي يتعرض لها جسمه في الفراش. بدأ يشعر به فعلياً يقرصه هنا وهناك بشكل متردد في اختبار لمتانة رؤياه.

عليه مغادرة الفراش فوراً ولا يجب أن يتأخر ثانية واحدة. هز جسمه فوق الفراش، ثم تقلب إلى أن وصل الحافة، ومرت خلال عموده الفقري طرقعة مزعجة بينما رأسه يرتطم بالأرضية، ورأى أن هذا أمرٌ جيد لأنه سيُحبطُ صديقه المتطفل. ثم رفع رأسه وتركه يرتطم بالأرض عدة مرات فربما سيرسل هذا بالعقل ليئنّ في كهفه من جديد.

استلقى على الأرض وأغلق عينيه. بإمكانه الآن الإحساس بالصلابة المعتادة للبلاط تضغط على ظهره، وبتدفّق الألم إلى مقدمة رأسه منطلقاً من قاعدة جمجمته، فعرف أن عليه تركيز أفكاره؛ يركزُ ليعود بالأمور إلى سابق عهدها.

عاد المشهد إليه مثل لوحة ترفع فوق سطح مياه غير صافية. ظهرت له السيوف في بداية الأمر وكانت حدودها تلمع في أثناء شقها للهواء، ثم ظهرت الأذرع التي تحملها، ثم الأفواه، فالعيون، والوجوه. ثم رأى فيشنو يعلو فوق ذلك بكل فخامته وبشاعته.

«لماذا لم تمتثل لما أمرتك؟» زمجر فيشنو، وشمّ السيد جلال رائحة عرق جسمه المحترق.

فتح عينيه، فعرف أنه وحده في الغرفة، وتناهى إليه ضوء الشمس وضوضاء الشارع من الباب الذي يقود إلى الشرفة. كانت عريفة تتحدث هاتفياً من الغرفة المجاورة إلى شخص ما، وشم رائحة طبيخ اللحم يُطهى في مكان ما من البناية.

تساءل ما الحقيقي وما الحلم في هذه الرؤيا؟ ألا يقول الهندوس إن الحقيقة ليست إلا وهماً؟ وأن كل شيء عبارة عن (مايا) كما يطلقون عليها - كل وجود عبارة عن خداع مؤقت - ألم يقبل حتى بوذا نفسه بهذا المنطق، وكذلك الناس في الغرب - أليس هناك رأي حول عدم وجود هذا العالم في الواقع، وإنما مجرد تصوّر ذهني له؟ هل هو كانط الذي قال ذلك؟ أم نيتشه؟ كلا، إنه شخص غيرهم أقل شهرة - من هو؟ ربما كان بيكرلي؟ وللحظة انشغل باله بمكان وجود كتبه الخاصة بالفلسفة، وأمِل ألا تكون عريفة قد تخلصت منها.

ربما هناك بعض الأشياء التي لا يمكن تفسيرها ولا تُدركُ إلا بخوض التجربة. ربما لا يكون المنطق هو الإجابة التي تفسر كل حقيقة في هذا الكون. أحس برؤيا البارحة كما يحس بملمس القميص على جلده الآن، ولكن بالتأكيد لا يمكن تفحّص نسيج تلك الرؤيا لمعرفة العيوب فيها. أُجهدت أليافها حتى انتسلت، ومع ذلك أحس بأنها تكسو مركز كينونته، وتبدّلُ من الطريقة التي يرى بها العالم، فهو لا يستطيع ولن يستطيع التخلي عن حقيقة التجربة التي مرّ بها.

لكن كيف سيتمكن من نقل هذه الحقيقة للآخرين؟ ودون تمتعه بفائدة المنطق والحجة، كيف يُفترضُ أن يسيطر على عقول الناس؟ إنّ كل ما أعطي له كرامة عليه أن يتسلح بها ويخرج ليغيّر العالم، وافترض أن هذا هو جوهر الإيمان. ليس هناك علمٌ يحكمه ولا حساب تفاضل يحرّكه، إنما هي قوّة إقناعه الذاتية فقط. وسيعتمد مدى نجاحه من عدمه على مقارعته للشك الذي داخله هو، ولدى الآخرين.

والنجاح أمر ضروري. عادت إليه كلمات فيشنو ووعوده بإنقاذ الكون أو تدميره. يجب الاعتراف به قبل أن يصبح فوات الأوان «فوات الأوان للجميع»، فليس بإمكانهم تحمل نتائج تجاهل تحذيره لهم. تخيلَ غاناغ القصيرة وهي تُرسلُ مولولة إلى أنياب فيشنو، ثم السغائر وله والبان وله، وآل باتاك وآسراني، وأجساد الجميع معجونة سوية على شكل كومة دموية واحدة، ووجوههم المصدومة تظهر وتنفجر ثم تحولهم كتل من النار إلى رماد على الفور. ومن مكان ما يأتيه صوت عريفة الشاكي متوسلة للإبقاء على حياتها.

لكن عليه العودة أولاً إلى بسطة فيشنو. وأن يحمل معه حلوى، أو فاكهة، أو أي من أشكال القربان، فهو يعرف أنّ هذه هي الطريقة المثلى التي يطلب فيها المرء مباركة إلهٍ هندوسي.

*

أمعنت السيدة جلال النظر في الرسالة التي كتبها سليم. ماذا حدث للعالم اليوم؟ أولاً أحمد الذي يهذي حول جوز الهند وحول الآلهة، وهو يقادُ على الدرج من قبل آل باتاك، وغاناغ القصيرة من بين كل الناس. كيف ستعيشُ لتشهد هذا العار؟ أن يُكتشف بالقرب من فيشنو على تلك الحال - والوشاح ملفوف على رأسه، ليس مرة فقط بل ثلاث لفات كما أشارت السيدة باتاك - يا لجرأة تلك المرأة. على الأقل كان لدى زوجها الأدب لأن يحّزر بأنّ أحمد ربما وقع وفقد الوعي جرّاء اصطدام رأسه بالأرض. ولحسن حظها أسعفتها الذاكرة بأن تخبرهم أنها طالما حذرت أحمد من القيام بجولته الليلية فوق الدرج المظلم.

والآن يحدث هذا الأمر، بكل بساطة يكتب لها سليم بأنه سيتركهم لعدة أسابيع. لماذا لم يبلغ أحداً؟ وما هذا المكان الذي يمكن أن يكون قد ذهب إليه ولا يستطيع إبلاغها مقدماً عنه. فوجئت من كل ملابسه التي اختفت - وهو ما يُنبئها بأنه قرار مخطط له مسبقاً. ولكن مخطط من أجل ماذا؟ لا شيء يبدو لها منطقياً - لا شيء في هذا اليوم المشؤوم.

لا فائدة من إبلاغ أحمد عن هذه الرسالة - ليس قبل عودته إلى رشده، ففكرت في استدعاء طبيب، ورُوّعت بإمكانية اقتراح إجراء تقييم نفساني له، أو ربما حتى إدخاله المصحة، لكنها لم ترغب في أن يكون أحمد نزيلاً في مصحة نفسية، أو الأسوأ من ذلك أن ينتهي به المطاف في مكان مثل الذي ذهبت إليه أم أمينة. وإذا انتشرت هذه الأخبار فلن تتمكن من احتوائها، وعليه يجب أن تكون حذرة مما تقوم به.

في هذه اللحظة دلف أحمد إلى الغرفة.

«كيف تشعر الآن؟» حاولت أن تبدو مرحة وفجأة لاحظت الرائحة الكريهة المنبعثة منه «هل أعد لك الماء للاستحمام»؟

هز رأسه وكان يمسك بشيء خلف ظهره، ثم دارت عيناه في محيط الغرفة في تقدير

للمسافات والزوايا من حيث مكان وقوفه، إلى حيث تقف زوجته وإلى الباب الخارجي.

حاولت معرفة الشيء الذي يمسك به، لكنه استخدم جسمه لإخفائه عنها، وأخيراً سألته: «أحمد، ما هذا الذي وراء ظهرك»؟

بتردد أظهره لها. كانت إحدى ثمار المانغو التي وضعتها في الثلاجة ليلة البارحة، تبدو باردة بطريقة لطيفة، إذ يلمع الندى على قشرتها الذهبية. ولكن لماذا يحاول إخفاءها؟

«هل تريدني أن أشقها لك؟»

ردّ بخجل: «ليست لي، كنت سآخذها تحت كقربان لفيشنو.»

«قربان؟ ماذا تعني بقربان؟»

«على المرء إن يقدم القرابين للآلهة كي تأكل، وهذا ما يفعلونه في المعابد».

فجأة غاب الضوء عن الغرفة ورأت الظلال تزحف على الجدران. فأحمد لم يتعاف، ومازال يعاني من آثار الوهم الذي حل به ليلة البارحة. كانت تعرف منذ رأت ذلك النذير المشؤوم داخل الضريح أنها لا يجب أن تدعه يغيب عن بصرها. ألم يكن بمقدورها البقاء مستيقظة على الأرضية ليلة واحدة لرعايته؟

«لا أعتقد أن فيشنو في حالة جيدة تسمح له بتناول المانغو»، قالت محاولة المحافظة على ثبات صوتها، «فثمار المانغو تنتجُ الكثير من الحرارة وقد تؤثر على معدته».

« كنت سأحمل له موزاً لكنني لم أجد منه شيئاً. كان يوجد الكثير منه على المائدة بالأمس ـ وفاجأني أنك أكلته كله».

تصلبت حنجرتها، لقد أجبرت نفسها بشكل ما ليلة البارحة على التهام آخر موزة منها، على الرغم من أنها تعدّت مرحلة النضج. وحاولت منع دموعها من غمر عينيها، لكنها لم تجد لذلك سبيلاً.

«لا تبك يا عريفة، لم تبكين؟ هل بسبب المانغو؟ خذيها، وبإمكانك الاحتفاظ بها ـ سأجدُ شيئا مختلفاً».

نظرت إلى ثمرة المانغو التي يقدمها لها زوجها ورأت خلوّ وجهه من المكر وكأنها فاكهة مسحورة ستوقف جريان دموعها، وكأن قضمة من لبها السحري سيحملها بعيداً عن مشاكلها. وتساءلت في نفسها أين مكمن الخطأ، وما الذي فعل به هذا؟ أحست بالعجز التام، فماذا يمكنها أن تفعل ليتعافى من جديد؟ «لا أهتم لأمر المانغو»، قالت مشيحة وجهها.

«تعالي معي إذاً»، قال ممسكاً بيدها، «تعالي، لنقدم هذا القربان سوية ونطلب مباركته».

«نطلب مباركة من؟ ليس من فيشنو! هل جننت»؟ افتكت يدها من قبضته، وعلى الفور افتقدت الحس بالأمان الذي كانت تبثه يده فيها مهما كان ضئيلاً.

«سيكون لذهابنا معاً تأثير أكبر بكثير. تعالي معي يا عريفة وكوني شريكة لي فلا يمكنني القيام بهذه المهمة بمفردي».

« ما الذي تقوله يا أحمد؟ توقف ـ توقف عن كل هذا أرجوك».

« اسمعيني يا عريفة، لقد تغيرت، وأنت من فعل ذلك، بعد كل ذلك الجدل حول الدين. أنا الآن مثلك تماماً، فقد سمحت لنفسي بأن أتأثر بشيء ما ـ بالكرامات، وبالإيمان». أمسك بيد زوجته من جديد ثم عصرها وكأن إيمانه الجديد سينتقل منه إليها كإثبات على ذلك.

«لا تعرفين كم جاهدتُ لأفتح عقلي وأحرّره. كل ذلك الصوم والنوم على الأرض. رأيت بنفسك البارحة كم كانت أرضية غرفة نومنا صلبة. فقط حاولي القيام بذلك لمدة شهر، وبعدها سترين».

هذا إذاً هو تفسير الأمر. كانت تعرف بالطبع أنه يكذب، لكن ذلك لم يمنع الدم الفائر في عروقها من لسع وجنتيها. كل تلك الليالي التي أمضتها وحيدة في فراشها، وكل تلك المرات التي استعطفت فيها أحمد لإخبارها بما يجري. والآن هذا؟ هذا كل ما في الأمر؟

«أخيراً حدث الأمر ليلة البارحة ورأيتُ مئات الشموس تملأ السماء، وزهوراً غاية في الغرابة. لا يمكنني شرح الأمر، كانت جواهر غاية في الروعة لن تصدقي أنها موجودة. ثم ظهر لي فيشنو. فيشنونا. نعم، ولم أصدق ذلك أيضاً لكن طوله كان خمسين، كلا، بل خمسمائة قدم مع نار ودخان، والكثير من الرؤوس، أكثر مما يمكنني عدّها. كان الأمر مرعباً لكنه رائع أيضاً».

فتحت فمها لكن زوجها أخذ في الحديث بشكل أسرع لمنعها من التلفظ بشيء. «أخبرني بأنني رسوله وإنه سيدمرنا جميعاً إن لم نعترف بألوهيته. أعرف ما تفكرين به ـ لماذا يختارني بالذات؟ لكن ذلك ليس أمراً مفاجئاً، أليس كذلك؟ بعد كل هذا المجهود الذي بذلته. وعلى كل حال من نكون لنجادل في هذا الأمر يا عريفة؟ وإذا أرادني فيشنو أن أكون رسوله، فهذا ما سيحدث».

أحست بقشعريرة بين كتفيها، فما الذي يقوله أحمد؟ هذا الحديث حول ألوهية فيشنو، وأحمد رسوله؟ ثم هذيانهُ هذا الصباح وهو في الحالة التي كان عليها، أما وهي تنظر في عينيه الآن فقد شاهدت نُذراً أخافتها. ألا يعرف أن ما يقوله الآن هو محض كفر وتجديف؟

«أحتاج لدعمك يا عريفة. أعطني الفرصة فقط حتى لو كان هذا أكثر مما أطمح إليه، وأنك لا تقبلين كل ما شاهدته.»

« توقف عما تقول يا أحمد، توقف وأصغ لي. ما رأيته كان حلماً، كابوساً. وأكثر حيوية من أغلبها ولكن ليس أكثر من ذلك. هل تفهم؟ فيشنو ليس إلهاً. وأنت لست رسوله. ولا يجب أن تسمي نفسك رسولاً. لم يعد هناك أنبياء وقد ورد ذلك في القرآن».

«مهما قلت، أو قال أي شخص فلم يكن ما شاهدته حلماً». واستقر العناد على زوايا فمه. «لا أحد يمكنه أن يخبرني بأنني لم أر ما رأيت. أما بالنسبة إلى القرآن، ألا يقول إن على المرأة أن تطيع زوجها؟»

«استمعْ فقط إلى ما تقوله يا أسَّ العقلانية. أهذا أفضل ما يمكن أن تأتي به؟ أهذا ما تدعو إليه؟ أن نجلس جميعاً، ونعلن البيعة لحلمك؟»

«إنها رؤيا. ألم أخبرك للتو إنها رؤيا؟ أعلمُ أن من الصعب عليك قبول ذلك لكن ما الفائدة إن كنت لا تحاولين؟»

« أنت محق فمن الصعب علي قبول أن زوجي فقد عقله، وفقد كل حسّ وكل منطق. ويقول إن ثمة سكيراً قد أصبح إلـهاً. تحلّ بشيء من الإدراك يا أحمد، وببعض الخجل.»

«اعتقدتُ أنك ستكونين سعيدة لأنني وجدت أخيراً شيئاً يجمعني بك، وهو الإيمان والدين أو مهما تكن تسميتك له. ألا ترين؟ فهي كرامة أسبغت علي، أم أن الأمر لم يعد يهمك فجأة؟»

«تريدني أن أبتهج؟ بأنك تسمي نفسك رسولاً؟ وأنك تنادي بأن بشراً ما قد أصبح إلهاً؟ كل هذه السنين وأنا أتوسل إليك أن تأتي معي إلى المسجد، وهذا كل ما لديك؟ ممارسة التجديف؟ أنت لم تكتشف شيئاً يا أحمد بل فقدت أشياء. فقدت احترامي وفقدت دينك عندما أدرت ظهرك لكل مبادئه».

«لكنني لم أتخلّ عن أي شيء فنحن جميعاً نكتشف إلهنا الخاص. وقد بدأت لتوّي في تحديد شكل إلهي. فكري في كل الناس الذين يمكنني إرشادهم لفيشنو، وفكري في كل الناس الذين قد يجدون فيه إلههم».

« لا إله إلا الله»، صرخت في وجهه، «ألا تفهم؟ لا تقل المزيد يا أحمد، لأنني لا أسمع حديثك».

*

أنصتوا لما يقول الرجل، أنا فيشنو. أنصتوا لما يقول، نعم، فقد أتيت لإنقاذكم أو تدميركم. شاهدوني وأنا أهبط إلى الأرض في تجسداتي المختلفة، ماتسيا، وكورما، وفاراها، وغيرها.

إنها تجلسُ الآن بالقرب من الموضع المقدس داخلَ الكوخ. ينهمر المطر في الخارج ويتلاعب وميض البرق فوق قسمات وجهها، وتهز عود البخور نحو الصنم، في حين يراقبها من فوق فراشه وينتظر. ثم تبدأ في الغناء: «متى سأصبح في الجنة يا كريشنا لأستمع إلى عذوبة نايك الساحر».

الآن هي بجانبه تهز شعرها المفكوك فوق كتفيها. بإمكانه أن يشم رائحة زيت جوز الهند حين تمر بأصابعها بين جدائلها، تلتقط شعرها المفكوك من خلف رأسها وتربطه مجدداً، فيشاهد العرق وقد قتّم ذلك الجزء من قميصها عند إبطيها. إنها رائحتها التي يعرفها جيداً، العرق الممزوج بزيت الجوز.

«يا فيشنو الصغير»، تقول أمه. «ما التجسد الذي جاء فيه فيشنويّ اليوم»؟

المطر في الخارج عبارة عن طبل يدق في تسارع، وتهب رياح خلال الكوخ فيهتز لهب مصباح الزيت.

يطلق قهقهة ويدس وجهه في الفراش، ثمّ يتظاهر بإجابتها متمتماً شيئاً يعرف أنها لن تتبينه.

«لنرَ. ماذا يكون؟ أم م م م ـ فأن يدفن رأسه بهذه الكيفية ـ ويلتف على نفسه هكذا ـ فإنه يبدو لي مثل سلحفاة، وقد يكون مختبئاً داخل صدفته».

يهز رأسه، نافياً أن يكون سلحفاة هذه الليلة.

«ليس سلحفاة، ومع ذلك فهو محدودب، هل يمكن أن يكون قزماً، إذاً فهو الصغير فارمانا ينتظر مواجهة بالي».

يهز رأسه من جديد، ويحرك ذراعيه فوق الفراش كما لو أنه يسبح، فهذه الليلة له مزاج في تجسد مائي.

«أهـا، المطر. بالطبع فهذا هو الحوت ماتسايا. هل سيحدث فيضان إذاً»؟

يومئ برأسه، «إذاً، عليك أن تضعيني في البحر حيث أنتمي.»

«وإن لم أفعل؟ »

«عندها سأنمو خارجاً، وأنمو أمام عينيك، وأصبح من الضخامة بحيث تحارين فيما ستفعلينه بي»، ثم ينفخ شدقيه في أثناء حديثه ويتمدد من وضعه الكروي السابق.

«كلا ، كلا يا ماتساجي، سأحملك إلى البحر. هل يناسبك شاطئ جوهو أم نذهب إلى شاوباتي؟»

«إلى بوابة الهند، وأسرعي فأنا الآن في ضعف حجمك وعما قريب لن تتمكني من حملي».

ترفعه أمه وتضعه في حجرها، «يا ويلي فأنت سمكة كبيرة. كم ستجعل صياداً ما سعيداً عندما يمسك مثل هذه السمكة في شباكه».

«كيف تجرؤين على المزاح معي، فالشبكة التي تستطيع الإمساك بماتسيا لم تصنع بعد، والآن ضعيني في البحر وافعلي ما أقوله لك، إلا إذا كنت تريدين أن أنجرف مثل البقية. لأنك الآن تتحدثين مع فيشنو، فيشنو الذي هبط شخصياً من الجنة لينقذك من الطوفان».

«اغفر لي يا سيدي فيشنو فلم أكن أعرف. قل لي ماذا يتوجب عليّ فعله؟»

«أولاً لا بد أن تصنعي قارباً، ثم تذهبين للغابة وتجمعين بذور كل نبتة وشجرة ترينها. وعندما يأتي الطوفان اربطي القارب إلى قرني وسأجرك لبر الأمان».

«أي قرن تعني، يا ماتسيا العظيم؟ كل ما أراه هو هذا»، ثم تعصر أنفه فيقهقه.

«عندما يأتي الطوفان سينمو قرني.» يخبرها وقد بدأ النعاس يغالبه.

«عندما يأتي الطوفان»، يسمع همس أمه وهي تضع الغطاء على جسمه المضطجع.

خارج الكوخ ينهمر المطر من المزاريب ويكوّن سيْلاً، ثم سيولاً تجري في مسارب غير مضاءة لتندمج سوية بطريقة ماكرة في الظلام. يرتفع الماء خلسة ويحفر تحت جدران الصفيح ويثقب الألواح الكرتونية ليرفع الأشياء عن الأرض بصمت، ثم يتسلل للأعلى ليحيط بفراشه، ويرتطم بجسمه بكل رفق.

«فيشنو»، تنادي أمه، لكنه عثر على زعانفه، فيسبح خلال الأبواب المشرعة إلى النهر المنتظر في الخارج. تصعد فقاعات من الوجوه المقلوبة التي مازالت نائمة في قاع النهر. وبينما يصعد هو مع الماء تمر عليه أكواخ وبيوت ثم بنايات. ويطفو بهدوء من حوله توهج إضاءات الشوارع المنبعث من الأعمدة المغمورة.

«فيشنو»، يسمع نداء أمه مرة أخرى. إنها تقف الآن فوق قمة بوابة الهند محاطة بالأعمدة المزخرفة الأربعة، وتحت أقدامها تنغمد الحجارة على هيئة أقواس ضخمة لتصل إلى البلازا البعيدة عنها إلى الأسفل، وهناك يركض الأطفال ويتريث الكبار لحظات أمام البناء التذكاري، فهم لا يرون جدار الماء الذي يرتفع خلف الخليج.

يشعر بقرنه ينمو، وبالجلد يتفجّر عند جبهته، ويندفع الجزء الخلفي منه للخارج. بإمكانه رؤيته من خلال الماء، يزدادُ سمكاً وصلابة في أثناء ظهوره.

يبدأ جدارُ الماء في الهبوط، ويندفع البحر لمعانقة الأرض. ويطير الأطفال في الهواء ويختفون في رغوة المياه وترتج المباني وتتمايل ثم تذعن بجلال. «فيشنو»، تصرخ أمه عندما يندفع الماء تحت قدميها.

يغطس رأسه تحت الماء. يرى أمامه أقواس البوابة والأسماك تدخل وتخرج من خلالها. الآن أصبح جسمه أكبر من أن يمر خلال الأقواس الجانبية، فيسبح نصف المسافة خلال الأقواس الرئيسية واضعاً جسمه تحت مركزها، ثم يبدأ في الصعود والدفع للأعلى.

يخترق قرنه سطح الماء أولاً ثم يليه رأسه. يلتفت وينظر إلى أمه التي ما زالت واقفة فوق القمة فترمي بحبل حول قرنه وتومئ برأسها.

يدير وجهته نحو البحر جاراً العربة، وخلال تلك الأمواج يركبُ متجهاً نحو الشمس، تاركاً وراءه المدينة المدمّرة.

التاسع

أمال السيد جلال رأسه فوق حاجز الدرج ليتأكد من عدم وجود أحد فوق البسطة. كان فيشنو يرتمي متمدداً كما تركه هذا الصباح، عندما كانت الشموس تشرق عند قدميه في الضوء المنسرب من الخارج. وعند رؤيته لجسده الهامد تكوّن لديه اعتقاد غريب بأنه قاتلٌ يتسللُ إلى مكان الجريمة، فهز رأسه لطرد هذا الفكرة ـ ماذا لو أنّ بإمكان فيشنو قراءة أفكاره؟

كم يبدو فيشنو ضعيفاً على هذه الصورة، ومن الصعب تخيل أن هذا الجسد يمكن أن يتحول إلى شيء في منتهى الرعب. هل كل ما حدث مجرد خطأ؟ ألم يكن مجرد حلم؟ لكن مهلاً، أليس ما يظهر على وجه فيشنو هو تكشيرة استهزاء؟ هل من الممكن أنه يسخر من حماقات هؤلاء البشر الذين من عيوبهم دائماً النظر إلى المظهر، والمقدّر عليهم استحالة فهم جوهر الأشياء؟

همس مختلساً النظر من حوله: «امنحني القوة لأكون رسولك». مرت سنوات طوال ـ وربما عقود ـ منذ أن قام بأي نوع من الصلوات، بحيث شعر بالخجل لتفوّهه بتلك الكلمات رغم خلوّ المكان من الناس. وضع ثمرة المانغو عند رأس فيشنو وتساءل إن كانت هناك خطوات أخرى يجب القيام بها، مثل نثر الورود، وإشعال البخور ـ ما الطقوس الضرورية لجعل القربان مكتملاً؟

حاول تذكر كيفية أداء ذلك في معبد ماهالاكشمي من خلال المرة الوحيدة التي زار فيها معبداً هندوسياً ـ وكان قد مر عليه بعض الوقت يقرأ كتب (أكبر) الذي قد يكون الحاكم المسلم الوحيد الذي يدخل معبداً ـ وهو الذي كان يزور كل أماكن العبادة متنكراً ليختلط برعاياه.

وبينما كان يقتفي أثر مجموعات الناس صاعداً الدرج إلى معبد ماهالاكشمي أحس بأنه في وضع تنكّر. دقّ قلبه بعنف في أثناء سيره حافياً فوق حجارة الأرضية التي تقود إلى الموضع المقدس، وقال لنفسه: هذه هي الطريقة التي كان سيتبعها أكبر. وبجسارة دقّ

أحد الأجراس المعلقة من السقف المزخرف، ثم اصطف متململاً في طابور منتظراً المرور على الأوثان. لم يكن شكله ولا ملابسه تختلف عن بقية الناس، ومع ذلك أحس بالقلق ـ هل يمكن أن يكتشفوا أنه مسلم؟ هل يستطيعون الإحساس بجهله، وارتباكه؟

كانت المرأة التي أمامه تحمل قرباناً معدّاً بعناية فوق سفرة معدنية ملمّعة. عدة موزات وثمرة مانغو وقرنا من الأذيرون، وتوّجت كل ذلك بزهرة لوتس كبيرة. أمعن النظر في صبغ الزنجفور القرمزي المرشوش فوق ذلك كله، متجمعاً بكثافة حول الحواشي. وتساءل عن دلالة هذا اللون الأحمر البراق؟ هل هو اللون نفسه الذي تلوّن به نساء الهندوس المتزوجات مفارق شعورهن لتبدو جماجمهن وكأنها قد فتحت لتوها على امتداد الخطوط الحمراء؟ هل يكون للأحمر علاقة بالدم، مثل دماء القرابين، مثل دم المسيح؟ على الرغم من أنهم لم يعودوا يضحّون بالحيوانات ـ ربما كان هذا أثر من طقوس موغلة في القدم؟

كان يحاول معرفة أيّ من كتبه التي قد تحوي إجابة عن هذه المسألة، عندما رأى المرأة تقدم سفرتها واكتشف أنهم موجودون الآن في حرم المكان المقدس، وأنه يقف خاوي اليدين أمام الأوثان. سيطر عليه الرعب عندما مدّ الكاهن له يده، ومن وراء الكاهن كانت التماثيل الثلاثة للاكشمي ترمقه بريبة من خلال عيونها الست المتسائلة... كان قد بدأ يتلعثم للخروج بعذر ما عندما وضع الكاهن قرصاً في راحته، ثم تحرك الصف ووجد نفسه حرّاً خارج المكان يرمش بعينيه في ضوء الشمس. ثم فتح راحته ونظر إلى القرص المستقر فيها، فوجده دائرياً وذهبياً مثل فاكهة محرمة. كان المتعبدون من حوله يضعون أقراصهم في أفواههم بتوقير تام، لكنه تردد في القيام بذلك. ورغم نظرته إلى الأديان كافة على أنها تتساوى في عدم الأهمية، فإنه لم يمارس من قبل قط أي شعائر تخص ديانة أخرى. فما الذي ستقوله عريفة إذا شاهدته في هذه اللحظة ممسكاً بين أصابعه بطعام باركته لاكشمي، يستعد لرفعه إلى فمه؟ لكن باستطاعته الآن أن يشم رائحة الزهور في قرص البيدا، ثم يحس به يتداعى بين أسنانه، ثم حلاوة مذاقه الحليبي على لسانه وهي حلاوة آثمة انتشرت بقوة أسفل حلقه وتسللت إلى كامل كيانه.

شق طريقه إلى الحجارة من خلف المعبد ونزل إلى حافة الماء. كان المدّ قد بدأ واضطر إلى تعقب آثار خطاه للوصول إلى صخرة أعلى لتجنب التعرض للرذاذ، ثم نظر إلى وسط الخليج حيث يبدو وكأن مسجد حاجي علي يبرز من الماء، فغالباً ما رافقته أمه عبر الممر الحجري الذي يمكن العبور منه إلى المسجد في أوقات الجزر. وها هو الآن يراقب الأمواج في أثناء تكسرها على الحجارة وغمرها لقواعد أعمدة الإنارة المنتصبة على طول الطريق، أما الممر فلا يمكن استخدامه قبل مرور عدة ساعات. وتخيّل الإمبراطور أكبر جالساً حيث يجلس هو، ملقياً نظرة فاحصة على التركيبة الدينية لمملكته، فالمعبد يقع فوق الربوة من خلفه والمسجد محاط بالمياه من أمامه.

ترى ألم يجرّب الإمبراطور أكبر أيضاً رؤيا مشابهة لرؤياه بشكل ما؟ وجد نفسه يقف في الظلال التي تعم بسطة فيشنو، محاولاً تذكر ما قرأه. كان أكبر يصطاد النمور في الغابات عندما وقع ما وقع، وعثر عليه جنده يرقص ضاحكاً بين الأشجار وهو ينتف شعر رأسه. وتساءلوا هل من الجائز أن تكون هذه طريقة جديدة لممارسة دين جديد اخترعه؟ دينِه الإلهي، وتجربته الهائلة الحكيمة، للتوفيق بين الفلسفات المختلفة، وتوحيد رعاياه من الهندوس مع إخوتهم المسلمين؟

وفجأة وقف شعر ذراعي السيد جلال. أليس من الجائز أن يكون هو، أحمد جلال، على وشك أن يبدأ شيئاً عظيماً مماثلاً؟ ماذا لو يصبح الموحّد العظيم بعد أكبر، الذي أعده القدر لتغيير هذه البلاد؟ هل كانت تلك الكرامة التي نالها، والرسالة التي تلقاها هما ما سيجمع الناس في هذه البلاد؟ في النهاية ألم يولد مسلماً مثل أكبر - هل يجوز أن ذلك هو سبب اختيار فيشنو له؟.

حدّق في فيشنو. نعم فتلك هي ابتسامة الاعتراف به مرتسمة على وجهه؛ ابتسامة التشجيع، وابتسامة تشير إلى أن أشياء عظيمة في طريقها للوقوع. إن فيشنو يسبغ عليه مباركته التي أتى من أجلها قائلاً له أن يسير في طريقه لمعالجة هذا العالم. ربما عليه أن ينزل إلى الشارع هذه الساعة، ويبدأ دعوته بالسغائر وله، والبان وله، ويطرق كل باب يقابله، يتوقف عند المحلات في البنايات المجاورة، ويذهب إلى الكنيسة عبر الشارع،

وإلى ماهالاكشمي، وإلى حاجي علي. لكن عليه أن يحاول مرة أخرى مع عريفة فهي زوجته وسليم ابنه، وعليه إنقاذهما قبل أي شخص غيرهما.

نظر إلى حبة المانغو عند رأس فيشنو. يبدو أن القربان قد أعجب فيشنو ولا ضرورة للزهور أو البخور.

يفكرُ فيشنو... ثمار المانغو في أتم اكتمال، بالغة اللذة، وفي أزكى رائحة بألوان ضوء الشمس البرتقالية والصفراء. إذاً هذا هو الطعام الذي يقدمونه للآلهة، آه من المانغو.

من بين ضباب البستان تظهر عليه. إلهة المانغو التي تزدهر يداها بأوراق المانغو، في حين تشق طريقها في ظلال الأشجار. تقف أمام فيشنو وتترك رداءها من الأوراق الخضراء يسقط عنها، فيظهر له جسدها معبأً بالفواكه في سخاء. وكانت ثمار المانغو الناضجة المنكّهة تنمو على صدرها، وتتأرجح من ذراعيها، كما تتدلى بكثرة من فخديها.

يقترب بوجهه من عنقها وينهل من عبيرها. ثم يتلمّس حبات المانغو الملتصقة بصدرها ويتحسس استدارتها الناعمة. تتريث أصابعه عند منبت إحداها فيشعر بها متضخمة وتستسلم للمسته، فيغلق يده عليها وترتجف عندما يمزق قشرتها، ثم تنساب العصارة من خلال الفتحة. فيضع شفتيه على صدرها ليوقف النزيف وتلف ذراعاها من حوله لتسمح له بتذوق روحها.

ترشده إلى ثمرة غيرها في مكان مختلف ، فيتحسسها ويشدها نحوه، فتظهر حالة من الترقب فوق شفتيها. يقطف ثمرة المانغو، فينطبع الألم فوق صفحة وجهها، ثم تنز العصارة مرة أخرى من موضع القطف، لكنها أكثر غزارة وخصوبة هذه المرة، فيملأ فمه من عصارتها الأنثوية.

يأخذ في قطف الثمار عن جسدها واحدة تلو الأخرى، وعندما ينتهي من ذلك تقف أمامه عارية، لا تغطيها إلا آثار ندوب قطف محصولها. فيفرش رداء من أوراق المانغو على الأرض وتستلقي عليه، ويركع بجانبها لتقبيل الندوب التي ماتزال ندية بفعل العصارة. وفي أثناء ذلك تبلل الدموع عينيها، وتمد عنقها نحو الشمس الغاربة.

يلفها بالرداء فيما بعد ويراقبها تتحسس طريقها إلى بستانها خلال الغسق. ويعرف أن آثار السفع تحت رداء الأوراق قد بدأت شطأها، وأن براعم الفواكه التي ظهرت لا تكاد تُرى، فواكه ستنمو وتنضج في شمس يوم الغد.

ينظر إلى الفواكه التي خلفتها وراءها مبعثرة على الأرض، فهي ستمد كل مخلوقاته بأسباب الحياة، بل ستمد الكون بأكمله بالحياة حتى عودتها من جديد.

لم يعجب فيشنو بطريقة الآلهة في التعامل مع المانغو. ماذا عن عملية الأكل نفسها التي اعتاد البشر القيام بها؟ ماذا عن روح ثمار المانغو وطعمها والإحساس بملمسها؟ وماذا عن اللذة في فصل اللب عن القشرة بواسطة كشط قطع منها بين الأسنان. ثم تساءل إن كان مسموحا للآلهة التمتع بالنعم السماوية فقط، وأن اللذات الأرضية بعيدة عن متناول أيديها.

يرى نفسه يستلقي عارياً مع بادميني تحت الأغطية. كان ذلك في الصيف الذي أرسل فيه أخوه سلة من المانغو له، وأتي بها إلى بادميني التي دعته للدخول.

تنقلب على بطنها لتدني بالسلة إلى السرير. «كمية كبيرة من المانغو»، تحملق في السلة ثم ترفع نظرها إليه: «متأكد أنها لي كلها؟»

«كل حبة منها»، وقد أبهجه بريق الطمع في عينيها وأحس بلوعة توقه المصاحب له. فكم سلة يلزمه أن يأتي بها لتكون له إلى الأبد.

تدحرجُ حبة المانغو بين راحتيها لتليين جوفها. «تقول لاجوو بأن الممصاحب الأجانب يستخدمون السكين لتناول المانغو، فهل تتخيل ذلك؟» ثم تضحك: «ربما هذا ما يجب أن أفعله كي أصبح ممصاحبك الإنجليزية». تربت على رموشها وتكور فمها في قبلة مبالغ فيها.

«نعم ربما عليك ذلك»، ويتمنى أن يغادره هذا التوق فيتخلى عن فكرة امتلاكها، ويقتنع بأن يرضى بما تمنحه إياه.

«ولمَ ذلك، أليس بياض بشرتي كافياً بالنسبة إليك؟» تقول في استياء وتعود لتستلقي على الوسادة من جديد. تقرّب الثمرة من فمها وتنزع قشرتها بأسنانها، «كان لدينا الكثير من أشجار المانغو في راتناغيري.» ويتسرب العصير في أثناء مصها للمانغو، فينساب من ذقنها ليتجمع تحت رقبتها.

يريد تتبع أثر العصير، وأن ينشفه عن جلدها بلسانه قطرة بعد الأخرى. هذا ما روّض نفسه على القبول به ـ ما يقدمه له جسدها من متع عندما تسمح به ولا شيء غير ذلك. ويؤمنُ حينئذ أن زيارته هذه ستستمر إلى الأبد، وأن صفّاً من الأضواء يلمع بريقها على كامل مستقبله.

تهصر بادميني الثمرة لتدفع إلى الخارج بالمزيد من اللب، لكنها تضغط بقوة أكثر من اللازم فتنزلق البذرة للخارج بكاملها ـ تقع على ذقنها، ثم تنزلق إلى صدرها، فتجفل وتحاول الإمساك بها لكنها ماتزال مغطاة بطبقة لزجة من اللب فتنزلق من قبضتها. تأخذ في الضحك في أثناء مطاردته للبذرة فوق جسدها، وحين أمسكها في نهاية المطاف عندما وصلت إلى وسطها.

«اعطنيها!» يقول وهو يفرك بها بطنها وكأنها قطعة صابون فيترك نتفاً من اللب تلمع فوق جلدها.

«في كل مكان» تأمره، فينصاع لها.

« أنت مليكة مانغوي!» يقول عندما تستهلكُ الثمرة بالكامل. صار جسمها مبللاً، وتلتصق نتف من اللب الأصفر إلى صدرها، وبطنها، وساقيها. ويتذوق نتيفات الثمرة مبتدئا بالعنق التي صارت حلوة المذاق من المانغو، وممحلة من العرق، فيسعى لالتقاط تلك النتف المالحة المعطرة، كأنها قد اختلطت بطعم لاذع من الأرض التي انبثق منها.

نعم، هناك العديد من الطرق لتناول المانغو، ويكره فيشنو التخلي عنها.

في البداية عندما شاهدت غاناغ القصيرة حبة المانغو أحست بإغراء لالتقاطها، فقد رأتها كاملة النضج وغاية في اللذة، وبدت لها من تلك الأصناف الراقية وليست من الأنواع العادية التي تقدر على شرائها.

لكنها تساءلت بعد ذلك عمّن تركها هناك بالقرب من فيشنو تماماً، ولماذا؟ كانت على علم بالسحر، والعين الشريرة التي يدسها الناس في قطع الفاكهة، العين التي يمكن أن تصيبك حتى لمجرد لمسك إياها. وهي تعرف أنّ حبات الليمون بالذات أكثرها خطورة، ولهذا دائماً ما تغير مسارها عندما ترى إحداها في طريقها. لكن المانغو قد تكون مضرة أيضاً، ومن الجائز ألا يكون التحديق في هذه الثمرة لمدة طويلة فكرة صائبة. بدأ جلدها يتنملُ وهي تقف هناك فوق البسطة، فقد بدأ الأمر بالروح التي لبست السيد جلال، والآن هذا الشيء. هناك أمر غير طبيعي كامن في هذه البسطة - ربما هي الروح التي تنتظر أن تأخذ فيشنو بعيداً، وارتجفت غاناغ القصيرة تحت ساريها، ثم أمسكت بحقيبة الطعام في يدها وتسلقت الدرج ركضاً.

كانت الدرجات الأخيرة هي الأصعب كالعادة. مسحت حاجبيها في أثناء تسلقها متخطية بسطة الطابق الثاني بجهد كبير. حاولت ألا تفكر في فيشنو أو المانغو، وعوضاً عن ذلك ركزت في علبة طعام السيد تانيفا التي تقبع بجانبها، ويزداد ثقلها مع كل خطوة تخطوها ممتصة ثقلها من الهواء مثل قطعة نشاف تمرر خلال مادة سائلة، وهو أمر متوقع بالطبع - وعادي أيضاً - إنه قانون الطبيعة، وقاعدة فيزيائية استنبطتها بنفسها.

يزداد وزن الأشياء بازدياد ارتفاعها عن سطح الأرض.

كانت فخورة بهذا الاكتشاف، وملكت هذه المعرفة عليها كيانها طوال الأسابيع الماضية. جال هذا الأمر بخاطرها ذات يوم حين كانت تشق طريقها صاعدة درج العمارة التي يقطنها آل ماكيجاني، التي كان لها مصعدٌ لكن لا يُسمح للخدم باستعماله. عندما كانت على مستوى الطابق الأرضي أحست بأن وزن علبة الطعام التي تحملها خفيفة جداً بحيث

تساءلت إن كانت الحافظات التي داخلها فارغة من الطعام، وما إذا كان محتواها كافياً للزوجين. لكن ما إن وصلت إلى الطابق الثالث، حتى أصبحت العلبة ثقيلة إلى الحد الذي أخذت تلعن فيه آل ماكيجاني، وتلعن ما يتصف به الأغنياء من نهم، بحيث تترك علب طعامهم علامات حمراء حين يحزّ مقبض العلبة في أصابعها. وعندما كانت بصدد تبديلها من يد إلى الأخرى، فاجأتها المعرفة التي نزلت عليها وهي أنّ وزن العلبة قد **ازداد**، من الغطاء إلى الحافظات بالداخل، إلى الطعام الموجود داخلها، حتى مقبض العلبة. فصار كل شيء أثقل وزناً.. وأنه يزداد أكثر فأكثر.

سرت الارتعاشات خلال جسم غاناغ القصيرة بعدما أحست بالإثارة لاكتشافها العلمي الأول. كيف لم تلحظ الأمر من قبل؟ رغم كل تلك السنين التي قضتها في حمل الأشياء، وكل تلك المرات التي لهثت فيها وأجهدت نفسها وهي لا تكاد تصل إلى الطابق العلوي. لطالما لامت نفسها بأنها هي التي أصبحت متعبة، لكن كم كان هذا التفسير الجديد أكثر بداهة ومنطقية عندما عرفت بأن (الوزن) هو الملومُ هنا، لأن الارتفاع يضيف لحمولتها كيلوجراماً بعد الآخر في أثناء صعود الدرج.

استيقظ فضول عميق في أعماقها ووجدت نفسها مدفوعة لإجراء الاختبارات المختلفة. ففي كل يوم تقوم بتقدير وزن علب الطعام التي تحملها، على كل من مستوى الأرض، وفي الطابق العلوي لكل بناية تصعد إليها، كما أجرت الاختبار نفسه مع زجاجات الحليب. بل استعارت ذات يوم كتلة وزن من فئة العشرة كيلوجرامات من البقال، وتحملت مشقة السير بها عدة طوابق من أجل تجاربها العلمية.

وافقت كل تجربة قامت بها حدسها وأصبحت كل أداة جربتها أكثر وزناً ـ فكلما صعدت أكثر ازداد وزن الأشياء. لكن تجاربها تركتها مستاءة ومتعطشة لإجراء المزيد منها، وقد رغبت في تحقيق دقة أكثر، وفي حساب مقدار الوزن المضاف، كما حاولت الحصول على معدات الوزن من البقال لكنه رفض.

عند هذه النقطة وُوجهت باستثناءٍ لنظريتها يتعلق بقطع الستايروفوم الثمينة التي تحتفظ بها. ففي أحد الأيام أخذت تلك القطع التي تدسها بين ثنايا مجموعة السواري في خزانتها الحديدية. ثمّ حملتها إلى الطابق الثاني من بناية الماكهيجاني، فلم تلاحظ زيادة في وزنها، وصعدت إلى الطابق الثالث ثم الرابع ثم الخامس لكنها لم تشعر بأي اختلاف في الوزن. فمهما كان الارتفاع الذي تأخذها إليه، فإنها ترفض أن يزداد وزنها.

سيطرت عليها حالة من الإحباط لبعض الوقت بسبب هذا العائق، لكنها بعد ذلك تعاملت مع الأمر من منظور واقعي، فمن ناحية لديها هذا الكم الهائل من الإثباتات السابقة التي تمكنت من جمعها، ومن ناحية أخرى وُوجهت بهذا الشذوذ الوحيد عن القاعدة. فلم لا تتجاوز أمر الستايروفوم؟ فهو مسروق على أي حال - وربما هذا ما سبّب غرابة النتيجة التي أتى بها.

ثم كان أن قررت أن الوقت قد حان لإعلان نتائج تجاربها، لكن من الذي ستفضي إليه بهذا الأمر؟ فهي لا تتوقع من بقية الخدم تقدير مثل هذه الأفكار الراقية، بالإضافة إلى ضرورة توخيها الحذر، فما الذي سيحدث إن حاول أحدهم سرقة اكتشافها، وادعائه لنفسه؟ كما قد يكون هناك بعض المال الذي تستحقه لتحقيقها هذا التقدم العلمي. ربما توجد جهة حكومية ما يمكنها أن تقدّم إليها طلبها، فلن يفيدها أن تضع ثقتها في إحدى هذه الغاناغات. كلا لا بد أن يكون شخصاً مختلفاً وأن يكون ذا معرفة وموثوقاً به فلا يستغلها. ربما السيد تانيغا مثلاً.

لم تستغرق وقتاً طويلاً ليقع عليه اختيارها فهو أحب الزبائن إلى قلبها. زبون مثله عوّضها عن بناية بأكملها تعج بالباتاكيين والآسرانيين. نظرت إلى أعلى الدرج أمامها، وكان علوّ الدرجات كبيراً إلى الحد الذي تواجه فيه صعوبة في الصعود عليها. كانت تصعد ثلاثة طوابق منها يومياً لتؤكد حصول السيد تانيغا على غدائه، فشدت من طولها في الدرجات الأخيرة، وتوقفت لبعض الوقت عند بابه لالتقاط أنفاسها.

ترددت يدها عند جرس الباب، فقد كانت التعليمات لديها أن تترك الطعام فوق البسطة. لكنها تقوم بقرع الجرس أحياناً لمجرد تبادل كلمة معه وللتأكد من عدم انقضاء أيام طويلة دون أن يراه أحد. لم يبد السيد تانيغا أي استياء من استدعائه للباب بهذه الطريقة، بل على العكس، فهي من شعرت بأنها تتطفل عليه. لقد توفيت زوجته قبل مجيئها للبناية بسنين، لكن الناس مازالوا يتصرفون وكأن مأساته وقعت لتوها ولا يذكر اسمه إلا همساً، والتعامل معه يجب أن يكون على أساس أنه شخص بالغ الرقة. لطالما تساءلت عن سبب هذه المعاملة ـ ما الأمر المتعلق به الذي يحتم ردة الفعل هذه؟ ربما هو الإحساس الذي يتولد لدى المرء عند النظر في عينيه، أو عند الحديث معه بأنه ليس معك بالكامل، وأن جانباً منه يطوف في مكان ما مختلف، وأنه تائه في بحر من أفكاره الخاصة. وهي أيضاً لم تمنع نفسها من معاملته بالرعاية المخصصة لكبار السن أو شديدي المرض.

مازالت في محاورة مع نفسها حول قرع الجرس عندما سمعت الأغنية. تنامى في أذنيها صوت الموسيقى على شكل موجات، وجاءتها الكلمات محمّلة فوق قممها. وتخيلته واقفاً بجانب مدوّر الإسطوانات، وحيداً في غرفته. كانت تعرف هذه الأغنية وتعرف من المعنيّ بها فقررت أن هذا ليس باليوم الذي تقرع فيه بابه.

تركت علبة الطعام قريباً من الباب، وسارت نحو الدرج في صمت.

أنصت فينود تانيغا إلى كلمات الأغنية:

سيأتي الليل ويبرّد أجسامنا، وسيهطل المطر ليرشنا برذاذه

في ليلة اتحادنا الأول هذه، سأصبح أنا وأنت شخصاً واحداً.

لسنوات بعد رحيل شيتال، كان يستمع إلى هذه الأغنية في التوقيت نفسه يوماً بعد آخر، وكان يقف أحياناً بجانب مدوّر الإسطوانات، لكنه غالباً ما يذهب إلى الشرفة ويترك الموسيقى تتبعه، في حين ينظر إلى السيارات والحافلات الموجودة تحته بثلاثة طوابق.

ستتفتح الزهور لتغني لنا، وتخرخر القطط وتموء في آذاننا

عندها سأصبح أنا وأنت، من ليلة اتحادنا الأول هذه شخصاً

واحداً إلى الأبد،

لم يعرف عندما استمع إلى هذه الكلمات البسيطة، أن كل كلمة وكل نبرة فيها ستصبح على مر السنين جزءاً منه يتعذر محوه. كانت تلك أغنية شيتال المفضلة من آخر فيلم سينمائي شاهداه سوية، وقد توجه إلى دكان الموسيقي لشراء الأغنية بعد وفاتها بعدة أسابيع. ينظر إلى الإسطوانة الآن بعلامتها الحمراء في وسطها التي بهتت قليلا مع مرور الزمن، لكن صورة الجرو والغرامافون ماتزال ظاهرة بوضوح، أما سطحها فلم يطله الخدش، مثل اليوم الذي أدارها فيه للمرة الأولى منذ عشرين سنة. طبعاً لانت الأخاديد قليلاً، لكن الصوت ظل على وضوحه بشكل يدعو للإثارة.

ستغيب الشمس من السماء إلى المحيط، وينعق البوم فوق الشجر.

سنغدو سوية فوق رمال الزمن، وهذا، هو يوم اتحادنا الأول.

كانت الإسطوانة سجلاً دقيقاً لتتبع تماثله للشفاء بعد موت شيتال. فيوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى كان يقيس نبضه العاطفي وهو ينصت إليها. لم يكن هناك أي نبض في البداية، فهو يقوم بكل حركة مدفوعاً بحس الواجب: رفعُ الإبرة ووضعُ الاسطوانة على القرص الدوّار، ثم تركيزُ الإبرة من جديد واستقبالُ النغمات. لكن هذه الحركات لم تضف شيئاً لخبرة الإنصات للأغنية ومرت بعض الأسابيع قبل أن يحس بالموسيقى، ووقت أطول قبل أن يستمع إلى الكلمات. وذات يوم حدث كل شيء ـ فجأة أصبح بإمكانه رؤية ديليب كومار، ومينا كوماري على شاشة سينما السكوب، ويحس بيد شيتال تقبع تحت يده وسط برودة ظلام قاعة العرض. ذلك حين بدأ في البكاء وانهالت دموعه بغزارة مما اضطره إلى وضع غطاء الجهاز خوفاً من سقوطها على الإسطوانة. ولعدة شهور لم يستطع الاستماع إلا لمقطع فقط من الأغنية قبل أن يجهش بالبكاء.

بعد عام لم يعد يحس إلا بالكرب كلما استمع إلى الأغنية. وهو من نوع الكرب الجسماني العميق الذي يخترق الكيان، أشبه بما يسببه طبيب الأسنان في أثناء حفره جذر السن. مع مرور الوقت، وبالتدريج صار الألم غير واضح، وترك وراءه ذكرى الألم فقط؛ خدراً هادئاً يكاد يكون عذب الوقع، ويستقر في الفجوة التي قضي فيها على الألم. أما الآن فحتى هذا الخدر بدأ في التلاشي.

شاهدي القمر، و كيف يبتسم من السماء؛
انظري للنجوم؛ وكيف تغمز من العلا.
سنلوح لها من على الأرض هنا؛ في ليلة اتحادنا الأول هذه.

هذا المقطع عند النهاية هو الذي طالما شدّه إلى الماضي عبر أيام وليال ولت، وكانت مملوءة بسعادة وألم لا يكاد يتذكرهما؛ يشدانه إلى الماضي عبر مسارب جانبية يمر منها وحيداً، ويداً بيد صحبة شيتال؛ وإلى الماضي عبر خريطة الوجود المستلبة، مع النجوم التي رسمتها وتشتعل في الأعالي بابتهاج المنتصر. يحدق فينود في الإسطوانة منتظراً رؤيتها، وينظر إلى سوادها الدوّار منتظراً أن يَبْرز له خيالها.

في اليوم الذي اجتاز فيه امتحانات بكالوريوس التجارة، أعلن أبوه أنه قد وجد له عروساً مناسبة. هل يمانع في الزواج من شيتال؛ ابنة أخت زوجة عمه التي حضرت في حفل عيد ميلاد بابولا الأسبوع الماضي؟

تذكر فينود مشاهدتها هناك. لم يمنحها أي اهتمام خاص أو يحاول تبادل الحديث معها، رغم يقينه أنه حيّاها ذات مرة في أثناء تجمع عائلي سابق. لم تكن أجمل امرأة وقعت عليها عيناه، لكن من ناحية أخرى فهو لا يتذكر أنه رأى فيها أي عيوب جسمانية ظاهرة. وبعد ليلة من التفكير في الأمر لم يأت بسبب محدّد للرفض أو الموافقة على العرض. وهكذا تم الاتفاق على الزواج في ذلك الأسبوع نفسه.

بعد أيام عدة وجد نفسه في بيت حمويّ المستقبل. أحضرت أم شيتال أطقم المجوهرات التي سترافق العروس ووضعتها أمامهم لتفقدها من قبل العائلة، فلبست أمه نظارات القراءة، وأخذت ترفع القطع من صناديقها المبطنة بالمخمل الأحمر لتفتشها بالقطعة. راقب فينود سير العملية لبعض الوقت، وبعد ذلك وجد نفسه لا يقوم بشيء فالتقط عقداً ووضعه فوق راحته.

كان يحاول تتبع نقطة ضوء في أثناء انزلاقها من حجر لآخر، عندما التقت عيناه بعيني شيتال. فاجأته نظرة الازدراء فيهما وكانت من الحدة بحيث اضطر للإشاحة بنظره. ترك العقد من يده على الفور ثم حاول اصطياد عينيها من جديد، لكنها لم ترفع نظرها وحافظت على وجهها في مستوى منخفض طوال بقية اللقاء.

قابلها مرة أخرى خلال حفل خطوبتهما بعد عدة أسابيع من ذلك اللقاء، وكان يرغب في الحديث معها لكن عيونهما لم تلتق مرة واحدة طوال فترة الاحتفال. وحتى في أثناء تقديمه حلوى اللادو لها لم ترفع شيتال رأسها، لكنها انتظرته ليأتي بها إلى فمها، وتأخذ منها قضمة خفيفة.

خيمت حالة ضبابية على الفترة بين خطوبتهما والزواج، حيث كان يمضي الأشهر في عمله الجديد في المصرف، أما الأماسي فيقضيها كما في السابق حيث يجتمع مع الأصدقاء على المقهى بالقرب من تشرشغيت. كانوا كثيري التندر حول زواجه القادم، لكنه تمكن بشكل ما من الامتناع عن التفكير في التغير الذي سيحدث في حياته. وتصوّر دائماً أنّ الزواج لا يبعد سوى أيام فقط وشغل فينود ساعاته دون أن يترك الموضوع يشغل باله.

لم يعرف جدّية الأمر وحتميته إلا عندما رأى ملابسه تربطُ إلى ملابسها في أثناء مراسم الزفاف. كان يجرى تزويجه لكنه لا يعرف لماذا، أو لمن. رفع ناظريه إلى المعازيم والأقارب من حوله وسمع همسهم ورأى ابتساماتهم. وفجأة أحس برغبته في الاحتجاج - لقد حدث خطأ ما ولم يقتنع بالفكرة بعد لأنه لم يجد الوقت الكافي للتفكير في الأمر فالترتيبات جرت على عجل. رأى النار في وسط الجمع والكاهن يسكب السمن على

اللهب، وكان البخار المنبعث شديد القوة بحيث يمكنه تذوقه. أحس بشدّ خفيف على ملابسه وعرف أن الدورات السبع قد بدأت حين يخيم الصمت ويترك النار عن شماله على الدوام، في حين يرمي الكاهن بالكافور على اللهب، وشيتال من خلفه مربوطة إليه بساريها، ومقدر لها أن تتبعه إلى الأبد. بدا له سعير النار يزداد قوة مع كل دورة، واللهب يتطاير منها إلى هواء الليل، فتساءل إن كان اللهب سيقفز ويحرق العقدة التي تربطه إليها. تأرجحت وتفككت أمام ناظريه براعم بيضاء عندما كانت غلالة الزهور المعلقة في صفوف إلى عمامته تتمايل أمام وجهه، وتمنى لو أن تلك الغلالة لا تتخللها الفجوات كي لا يرى المناظر التي أمامه، وكي لا يحس بالنار التي يتخيلها تلسع وجهه، أو يستمع إلى سيل اللغة السنسكريتية التي تعلو تدريجياً وتصمّ أذنيه. استمرت الدورات وتتابعت - ثلاث، أربع، خمس - وتساءل إن كان سيتوقف قبل إتمام السابعة، أو أنه سيركض بين الضيوف ويقفز فوق المنصة إلى الحرية، ولكن حينذاك كانت قدماه قد عبرتا العلامة للمرة السابعة، وكذلك فعلت قدما شيتال المخضبتان بالحناء.

رأى نفسه بعد ذلك يدخل غرفة الزفاف ويغلق الباب من خلفه؛ ترك في الخارج أصوات القهقهات وكانت عروسه تجلس على السرير المغطى بتويجات الورود. لقد رأى هذا المشهد عديد المرات من قبل - راج كابور ونرجس، غورو دوت ووحيدة رحمان، ديليب كومار ومادهوبالا، ودائماً ما ترتدي البطلات الحرير المطرّز، والعريس يرتدى اللون الأبيض الناصع. وعندما يرفع البطل خمار البطلة فإنها لا تفتح عينيها. مد يدًا مرتعشة لرفع الخمار، فماذا لو أن عيني شيتال ترمقانه بتلك النظرة التي رآها في اليوم الأول؟ لكن لا بد وأن زوجته شاهدت الفيلم نفسه لأنه عندما نظر تحت القماش كانت عيونها مغلقة والنقاط المرسومة باللون الأبيض الخاص بالطقوس تكوّن قوساً رائعاً فوق حاجبيها. وقد شك لوهلة إن كان يتوجب عليه أن ينطلق بالغناء كما يفعلون في الأفلام. ولكن عوضاً عن ذلك رفع رأسها ببطء وطلب منها أن تفتح عينيها.

خلال نظرته الأولى المباشرة في عيني الإنسانة المفترض أن يمضي معها بقية حياته، أحس بالراحة لأنه لم يجد فيها نظرة تحدّ بل فضول، وليس الازدراء بل عدم الألفة. ليس المحبة ولكن ليست الكراهية أيضاً.

سنغني لحن الروح الجديد، سيصدح المزمار وترن القيثارة.

نحن الآن اثنان فقط، لكن سرعان ما سنصبح ثلاثة،
منذ ليلة اتحادنا الأول هذه.

جلسا هناك متقاربين، وكانت طبقات الملابس والحلي التي يرتديانها تهوّل من الموقف ولا تسمح بتبادل الحديث، ناهيك عن الألفة. الأكثر تثبيطاً للهمة هو حقيقة أنهما لم يلتقيا إلا مرتين منذ خطوبتهما، وحتى هذا تم تحت الإشراف والمراقبة. كان الصمت من حولهما في مثل طغيان الحرارة والرطوبة في الجوّ.

سرّح فينود حنجرته في استعداد لقول شيء ما، لكن لم يجل بخاطره أي موضوع مناسب للحديث. فحدّق في الخاتم الجديد الذي يزين إصبعه، كيف إذاً سيملآن كل الدقائق وكل الساعات من الآن وحتى نهاية حياتهما معاً؟

تناهت إليهما همسات من خلف الباب، ثم صوت ضحكات مكتومة. وفجأة ارتفع صوت الراديو لأعلى درجة وامتلأت الغرفة بصوت الفرقة التي تغني النشيد الوطني، فرفعت شيتال نظرها مضطربة وللحظة تخيل أنها ستقف في وضع استعداد للنشيد بجانب السرير. سمع ضحكاً من ناحية الممر الخارجي وصوت أقدام تركض، ثمّ صوت أمه الناهر. وقد أغلق جهاز الراديو قبل خروج الجملة الأخيرة: «النصر لكم».

وسمع فينود صوت تسلل أمه بعيداً على رؤوس أصابعها.

«هل تعرفين كل كلمات النشيد؟».

«بالطبع، فالجميع يتعلمونه في المدرسة، وأنت، ألم تحفظه هناك؟»

«بلى، ولكن لم أتمكن من حفظه عن ظهر قلب بالكامل قط.» لم ترد شيتال عليه، فأضاف، «لا بد أنهم انتظروا حتى الحادية عشرة والنصف كي تقفل المحطة ويذاع النشيد. كان يجب أن أركض إلى الباب وأستولي على الراديو منهم، كان بإمكاننا سماع بعض الموسيقى».

«لكنك قلت إن المحطة قد أقفلت».

«المحطات الأجنبية تعمل طوال الليل، وبمقدورنا سماع موسيقى الجاز، هل تستمعين إليه قط؟»

«كلا».

«وأنا أيضاً لا أسمعه كثيراً، إلا في آخر الليل، وعدا ذلك فغالباً ما أنصتُ لراديو سيلان، فهم يذيعون أغاني الأفلام الجديدة كافة قبل إذاعتها في برنامج فيفدي بهاراتي. هل تحبين مشاهدة الأفلام»؟

فأومأت برأسها.

«هل شاهدت فيلم عالم المغول؟»

«نعم وقد كرهته، فأنا لا أحب مادهوبالا».

«كيف يمكن أن تكرهي مادهوبالا؟»

«إنّ لها وجهَ فيل».

«لكنها ليست حتى سمينة».

«ليس جسمها، بل الوجه فقط، وبالأخص أنفها».

«أنت لا تعرفين ما تقولينه، فأنفها جميل».

«بل هي فيل، ولن أرافقك لمشاهدة أي أفلام تمثل فيها مادهوبالا».

تجادلا حول راج كابور، وديليب كومار، مينا كوماريا وفيجايانكومالا. وتحدثا عن أفلامهما المفضلة فبينت شيتال أنها غالبا ما أحبت ليس حفظ الأغنيات فحسب، وإنما مقاطع من الحوار الذي تتأثر به أيضاً. وتوضيحاً لذلك تلت عليه الجمل المفضلة لديها من فيلم حب في روما.

«هل تذكرين المشهد في المطعم حين يأكلان كل تلك الكمية من الطعام الإيطالي؟» قال فينود ضاحكاً، «وماذا كان ذلك الطعام، إخطبوط، أو ما شابهه»؟

اظلمّ وجهها وأعلنت على الفور، «لا تتوقع مني أن أطبخ لك طعاماً غير نباتي».

صُعق فينود لتصريحها.

«لكن عائلتك ليست نباتية، وأنت بنفسك كنت تأكلين تندوري الدجاج الليلة في الحفل».

«أحب أكله ولكن لن أقوم بطهوه. فالطهو أكثر خطيئة من الأكل بمقدار مائة مرة».

«لكن لم يذكر أحد هذا الأمر قبل الزواج، فكيف سنتناول اللحوم عندما نبدأ في العيش وحدنا إن لن تطبخيه؟»

«وماذا لو علمتك كيف تعدّه؟»

«لكن أنا الزوج ولا يفترض بي أن أطبخ، بالإضافة إلى أنني لو فعلت فستنزل كل الآثام على رأسي».

«وباعتبارك زوجي، ستنزل على رأسي أيضاً». وصمتت لبعض الوقت، ثم أضافت: «أعتقد أننا لن نتناول اللحوم على أي حال».

نظرا إلى بعضهما بعبوس. فلم تكد الحياة الزوجية تبدأ، ويبدو أن التقشف سيكون هو السائد في المستقبل.

أدى الحديث عن الطبخ إلى إحساسه بالجوع، وعليه اقترح عليها التسلل خارج الغرفة للبحث عن حلوى العرس، فترددت شيتال في البداية لكنها وافقت أخيراً، فقد شعرت بالجوع أيضاً. ثم نزعا عنهما ما أمكنهما من الحلي، وأكدت هي نزعَ خلاخيلها لما قد تحدثه من ضوضاء، وتخلى فينود عن حُلة عرسه اليابسة التي كانت تخنقه طوال المساء، ثم لفت ساريها الاحتفالي حول كتفيها ودسّت نهايته في حزام وسطها، وتسللا حفاة نحو الباب.

فتح الباب قليلاً فاندفع إلى الغرفة عدد وافر من أصوات الشخير، ثم أخرج رأسه فوجد العشرات من ضيوف العرس المضطجعين أمام الباب وعلى كامل الأرضية، وبدا المشهد كما لو أن إعصاراً قد هب خلال الممر.

وصلا إلى المطبخ عبر متاهة الأجسام المستلقية، واصطدمت شيتال مصادفة بإحدى بنات عمومتها، فأمسك كل منهما بأنفاسه لكن الفتاة تمتمت بشيء ما ثم عادت إلى النوم.

عند وصولهما للمطبخ لم يتمكنا من العثور على الحلويات، لكن وجدا في البراد طبقاً من دجاج التندوري، فنظرا إلى بعضهما ثم قالت هامسة: «لنبحث عن بعض البصل والمخللات ونتناولها معه».

أخليت أرضية المطبخ أيضاً لاستيعاب المزيد من الضيوف النائمين، وتسلل فينود وشيتال من فوقهم إلى مائدة الطعام التي تم تحريكها إلى أقصى الجانب. ولأن الكراسي كدست في الممر فقد جلسا القرفصاء فوق الطاولة نفسها، وصحن الدجاج بينهما.

«ماذا تفضلين، الورك أم الصدر؟»

«أحب الرجْل الصغيرة المتصلة بالصدر، فهي المفضلة لدي».

«لكنها صغيرة للغاية.»

«غالباً ما أتناول القطعتين، فهو الجزء الوحيد الذي أحبه بالفعل على الرغم من أن بإمكاني أن آكل الرجْل الكبيرة عند الضرورة».

نزع فينود الجناحين عن قطعتي الصدر وقدمهما لها: «إليك بهما، ويمكنك أكل الأرجل الصغيرة في كل مرة نتناول فيها الدجاج».

«أشكرك»، وابتسمت خجلاً في أثناء قبولها القطع منه. «وإليك بعض البصل فلم أعثر على مخلل المانغو».

جلسا في الظلام وتناولا الدجاج، وكان الضوء الوحيد الذي يصل إليهما عبر نافذة صغيرة في الجدار المقابل منبعثاً من عمود نور في الخارج. كان الجو شديد الحرارة وبإمكان فينود سماع طنين بعوضة بالقرب من أذنه، فنظر إلى زوجته، شيتال، التي كانت تقضم غضروف مفصل الجناح وقد التصقت بشفتيها بقع حمراء من بهار التندوري، فبدت له في هذا الضوء الخافت أصغر حتى من التسعة عشر ربيعاً وهو عمرها المعلن، وتخيل شعرها مضفراً على شكل ذيل حصان، وقد لفته وربطته خلف أذنيها مثل تلميذة مدرسة. من تكون هذه المرأة؟ وما الذي تريده من الحياة؟ ثمّ اختارت شيتال من الصحن بصلة حمراء مخللة وقضمت جزءاً منها، وعلى نحو أخرق وغير متقن أمال فينود رأسه بالقرب من وجهها محاولاً تقبيلها، فتراجعت إلى الخلف: « ماذا تفعل؟ هل جننت ـ وبوجود كل هؤلاء الناس من حولنا؟».

«لكنهم نائمون»، احتج بدوره.

«لا يهم ذلك، فهم موجودون هنا.» واستمرت في مضغ بصلتها.

نظر إلى النائمين، فرأى العم برامود وزوجته يستلقيان ملتصقين. تُرى كم مضى عليهما من الزمن سوية؟ وتساءل إن كان فم العمة مانيشا يعبق برائحة البصل والكمّون عندما قبلها للمرة الأولى. ثم نظر إلى شيتال من جديد فوجد أنها قد فرغت من تناول دجاجها، ولسانها يلعق شفتيها لتنظيفهما، تاركاً خلفه أثر لعاب يلمع بحيث بيّن حدود فمها في هذا الضوء الفضي. لم يقبل فتاة من قبل وهو مصمم على القيام بذلك هذه الليلة، في هذا المطبخ، وعلى هذه الطاولة.

أزاح الصحن عن طريقه واقترب منها. بإمكانه أن يحس بتصلبها ويمكنه حتى سماع تزايد نبضات قلبها، وببطء وضع يده حول رقبتها ثم وتر عضلاته استعداداً للمقاومة إن هي حاولت الفرار. جلست في مكانها راسخة إلى الخشب ومحلقة أمامها مباشرة، فقام مسرعاً بوضع فمه على فمها وأحس بمؤخرة عنقها تلين، كما أحس بلعابها على شفتيه مبللاً لزجاً ومثيراً بطريقة غريبة. واحتفظ بشفتيه هناك للحظات وهو يستنشق عبير فمها المفعم بالتوابل، ثم لم يعد واثقاً مما يجب عليه أن يفعل، فترك فمها وسحب رأسه للخلف.

أشاحت بنظرها بعيداً عن عينيه ورفعت يدها لتمسح شفتيها، لكنها توقفت وأنزلتها بوعي منها. وجلست بالقرب من الصحن والبصل، ممسكة بعظم الدجاج في يدها.

عادا إلى غرفتهما، وبعصبية فكت شيتال ساريها، واستلقت على الفراش مسرعة، كانت ترتجف رغم أن الحر في الغرفة لا يطاق، وجذبت إليها الملاءة مغطية نفسها حتى حافة القميص، ثم نزع قميصه لكنه أبقى على سرواله التحتي، ودلف إلى الفراش بالقرب منها.

أمعنا النظر في زينة العرس المربوطة حول السرير، وكان صوت البعوض المنقض بين علامات الزينة قد امتزج مع الشخير المتسرب من تحت ضلفة الباب، فيما استقر بالون بوضعية مائلة على السقف وتدلى خيطه حتى وصل إلى الأرضية، وفي الشارع سُمع نباح كلب، وفي مكان أبعد سمعا صوت تدوير محرك سيارة. بإمكانه الإحساس بجسدها في الظلام يتنفس بالقرب منه، وفكر في صدرها تحت القميص، وفي القماش الأحمر يرتفع ويهبط مع كل نفس منها. عندما كان في الصف السادس أطلعه صديق له على أول صورة يراها لامرأة عارية، وحاول تخيل تلك الصورة تحت قميصها وتخيل تعرجات صدرها، ورأى نفسه يقبل عنقها، ويهبط بفمه فيبلل قماش قميصها هناك.

«أنت نائمة؟» همس لها.

«كلا، كنت أفكر».

«فيم تفكرين؟ » وخرج صوته أجش.

التفتت شيتال نحوه وقد ارتسم على وجهها تعبير القلق: «كنت أقول أنه ربما لن تعدّ خطيئة كبرى إن نحن طبخنا الدجاج بين الفينة والأخرى؟».

العاشر

استحق شيامو الضرب الذي تلقاه من أمه في تلك العشية بسبب ما قام به في نصف الساعة التي سبقته. حتى السيد آسراني كان سيوافق على استحقاقه لذلك لو قدمت إليه الإثباتات، ولا يعني ذلك أنه أعطي أصلاً فرصة للفصل في النزاع. أما شيامو فحاول بالطبع إنكار كل شيء وهو الأمر الذي لا يعد من الحكمة في شيء، لأنه لم يزد أمه إلا غضباً، لكن لم يعهد عن شيامو اتخاذه لخيارات حكيمة كما يبدو من تصرفاته.

ما حدث هو أن شيامو كان يمارس لعبة الطائرات مع راجان، الابن الأصغر لآل باتاك. أحضر الصغيران بعض علب القشدة والزيت الفارغة من المطبخ ورتباها لتمثيل شكل الممر الأوسط لطائرة ركاب، وكانا يتناوبان قيادة الطائرة للقيام بهبوط تحطيمي. قام راجان بأول هبوط وكانت النتيجة بعثرة العلب في كل مكان وقتل جميع الركاب، ثم جاء دور شيامو الذي لم يقتل الركاب فحسب، وإنما قتل بعض المساكين الموجودين على الأرض أيضاً. ثم قام راجان بدور الخاطف، ومرة أخرى كان ضياع الأرواح شاملاً، وبعض الميتات التي حدثت بين علب دهن الطبخ كانت شنيعة.

كانت غاناغ القصيرة قد تركت الوشاح الذي وُجد هذا الصباح معلقاً بوضوح فوق حجر شحذ السكاكين خارج المطبخ، فلقد طلبت منها السيدة باتاك وضعه هناك وهي التي لم تشأ لمسه خوفاً من العدوى، كما اعتقدت أيضاً أن مفتاح لغز السيد جلال يكمن في ذلك الوشاح، فوضعته تحت مراقبة لصيقة لترى إن كانت السيدة آسراني، أو السيدة جلال ستأخذه.

تحولت اللعبة الآن إلى طيارين أشرار يطاردون ويقتلون قرويين مرعوبين خلال وهاد الجبال. والنتيجة مقتل دستة من القرويين بالتقريب لكل منهما، على الرغم من أن نقاط راجان كانت أكثر لقيامه بالقضاء على قطيع من البقر أيضاً. ثم جاء دور شيامو الذي أتته الفكرة، بأن يلقيا بالوشاح فوق بعض العلب لتمثيل دور جميلة إحدى القرى (مثل الدور الذي تؤديه رتشما في أفلامها)، ثم يقومان بعد ذلك بإمطارها بالرصاص.

لعدم وجود المزيد من العلب الفارغة، قاما بجر حافظتي أرز وكدّساهما فوق بعضهما، وغطياهما بالوشاح ليجعلا منهما امرأة فاتنة إلى حد ما. ثم ركب شيامو في قمرة طائرته وأخذ يمطر كل شيء بوابل من رصاص مدفع رشاش خيالي، أما راجان فأوقع الحسناء أرضاً بعد إصابتها بعدة رصاصات.

كانت اللعبة بالغة الإمتاع، وهكذا قرر شيامو أن الحسناء ستكون كافيتا لأن الوشاح يخصها على كل حال، وسيكون راجان هو سليم على الرغم من ضرورة تقبيله للحسناء لإضفاء واقعية أكثر على المشهد. سيمثلان دور الهاربين من البيت، وسيمثل شيامو دور شرطي يسعى إلى القبض عليهما من الطائرة أحياء، أو ربما من الأفضل أن يكونا ميتين.

بدأت اللعبة، لكن راجان امتنع عن تقبيل كافيتا، وحتى حاوية الأرز والوشاح الذي يمثلها. في النهاية تم إقناعه للقيام بذلك، وبينما كان يحضنها اقتربت طائرة شيامو الذي صاح فيهما، «اهربْ سليم، واهربي يا كافيتا، أو ستقبض الشرطة عليكما». رُوّعت السيدة باتاك التي نظرت في تلك اللحظة بالذات لترى إن كان الوشاح مايزال في مكانه، من منظر ابنها يقبل الوشاح ويتلقى فمه ما حواه من جراثيم لا يعلم أنواعها إلا الله. واندفعت راكضة للخارج في اللحظة نفسها التي كان شيامو يصيح فيها: «اهرب يا سليم، اهربي يا كافيتا»، ويستخدم قاذفة قنابله اليدوية الجديدة ضد أخته، فيفجرها إلى شظايا بعد إصابتها بعلبتي قشدة فارغتين. ربما لم يقدّر شيامو قوة تأثير القنابل لأن الحسناء كافيتا طارت وتشظت في أنحاء المكان، فانفصل عنها رأسها وتبعثر الأرز على راجان وشيامو والسيدة باتاك وعلى البسطة.

عندما أوقظت السيدة آسراني من نومتها الصباحية المزعجة، التي لم يكن مخططاً لها، وجدت قبل كل شيء أن أرزها البيسماتي المفضل منثوراً على كامل الطابق الأول خارج المطبخ، ووجدت أيضاً أن شيامو في محاولة منه لشرح لعبته للسيدة باتاك لم يخبرها أن الوشاح يخص كافيتا فحسب، وإنما قال بأن أخته مفقودة وأنها قد تكون هربت مع سليم.

«هل تلقيتم أي أخبار بعد؟» سألتها بصوت يقطر تعاطفاً، لكنه لا يكاد يخفي مناكفته لها.

«أي أخبار؟ لا حاجة لنا بالأخبار. لا تصدقي كل ما يقوله شيامو فكافيتا ذهبت لزيارة صديقة لها.»

«بلى، لا بد وأن الأمر كذلك، فالسيد جلال يقول إن سليم قد ذهب هو الآخر لزيارة صديق له وأتساءل عما يعنيه كل ذلك». دسّت كذبتها الصغيرة لترى ردة فعل السيدة آسراني التي لم تخيب أملها.

«السيد جلال قال ذلك؟ ومتى قاله؟» كان فكّ السيدة آسراني يبدو في وضعية سيئة للغاية.

«في الحقيقة، كان يقول أشياء مختلفة هذا الصباح. شيء ما عن ثمرة جوز هند، وإن فيشنو هو تجسيد للإله وقد هبط إلى الأرض. من يعرف كل ما قاله - فلم يكن متوازناً. ثم مسألة ارتدائه لهذا الوشاح - هل تعرفين أنه حاول مهاجمتي؟».

«نعم، نعم، ولكن ماذا قال عن سليم؟».

«تحدث عن أمر يتعلق بزيارة صديق ما»، قالت بغموض، «تحدث عن مائتي موضوع وكان يجب أن تسمعيه، بدا وكأنه قد شاهد بالفعل شيئاً ما. اصطحبناه إلى فوق وسأله زوجي، يا سيد جلال كم غريب منك أن تتحدث عن آلهة الهندوس وأنت المسلم. وهل تعرفين بماذا أجابه - قال بأنه إذا لم يعقل أناس مثلنا متى يهبط إله ما إلى الأرض فهم بحاجة إلى شخص مثله ليفتح أعينهم. تخيلي - السيد جلال رسول!»

«وقلت لي أنه كان يرتدي وشاح كافيتا؟»

«كان ملتفاً حول رأسه».

«كم غريب هذا الأمر، كمْ هو غريب».

«إن كان هناك ما يمكنني القيام به، فأنا أعرف كم صعبة هذه الأوقات بالنسبة إليك، وإن كان هناك أي شيء... »

لكن السيدة آسراني كانت تستدير نحو شقتها في محاولة منها لتقرير ما الذي يجب أن تقوم به أولاً، للمة الأرز أم تسويط شيامو.

بعد سنين، وأنت ما تزالين شابة، وعندما سينتج هذا الاتحاد طفلاً لنا،
سننظر سوية إلى الأيام الفائتة ونغني، عن هذه الليلة،
عن الليلة الأولى لاتحادنا.

لم تحدث الليلة الفعلية إلا بعد أسبوع. وحينذاك كان فينود قد سرّى عن نفسه بحقيقة

أن أسنان زوجته تطقطق في أثناء نومها. وعندما ذكر لها ذلك، تذمرت من شخيره في كل ليلة معللة بأن هذا يعتبر أكثر سوءاً من طقطقة أسنانها بكثير، وهو ناتج عن خلل في تناسق فكيها، وأنه لا يحدث سوى في بعض الليالي فقط، وهو في الواقع ليس بالعلو نفسه أو الصعوبة في ضبطه مثلما عليه أمر الشخير.

تأخرت الرياح الموسمية مرة أخرى هذه السنة، وكانت الحرارة تتزايد ليلة بعد الأخرى في غرفتهما. نزع فينود عنه قميصه وبعد تردد نزع سرواله أيضاً، «الجو شديد الحرارة هنا»، شرح معتذراً وهو يدلف إلى السرير، «الحرارة عالية ولا يمكنني ارتداء منامتي». لم ترد شيتال التي كانت ترتدي قميص نومها. «لم لا تنزعيه أيضاً؟»

«ماذا ، وأبقى عارية؟»

«ستشعرين بالانتعاش أكثر».

لزمت الصمت للحظات ثم همست «أوكي، لكن لا تنظر ناحيتي».

أحس بها تغادر السرير، وبعد عودتها تغطت بالملاءة حتى مستوى رقبتها.

«وما الفائدة إن كنت ستغطين نفسك بالملاءة ؟ ستعرقين أكثر مما لو كنت مرتدية قميص النوم».

«لا بد أن أرتدي شيئاً، فأنا عارية تماماً، في حين أنك ترتدي ملابسك الداخلية».

«حسناً، سأخلعها».

«مازلت غير عار، وماذا عن هذا؟» مشيرة بذقنها إلى سرواله التحتي.

«انظري بعيداً وسأخلعه».

«هل رأيت، فأنت خجلان أيضاً».

«لا توجد مقارنة، فالأمر مختلف عند الرجال».

«لا تتوقع مني نزع ملابسي، وأنت لم تخلع سروالك بعد».

«أوه، حقاً، إذاً ...» وبحركة سريعة حاول نزعه فوصل إلى قدميه، واشتبك فيهما هناك.

ندت عنها صرخة وغطت عينيها بيديها، ثم نظرت من خلال أصابعها وأخذت في القهقهة، وهي تراه يحاول تغطية نفسه بوضع ساق فوق الأخرى.

تمكن بعد ذلك من التركيز على وجهها فأحس بالخجل للارتباك الذي غطاه.

«في المرة القادمة، ستكون الأمور أفضل»، قال غير قادر على إجبار نفسه ليرى إذا ما أخلى الارتباك مكانه لحالة فهم، أو لخيبة أمل.

«لا عليك..» نهضت من السرير، وارتدت منامتها.

«ليلة سعيدة»، قالت عند دخولها الفراش، ثم التفتت لمواجهة النافذة.

«ليلة سعيدة»، أجابها، وهو يتمعن في الجزء الصغير من ظهرها، وغير قادر على مد يده لطمأنتها، وفيما انقضت الدقائق، حدق في تعرجات جسمها الساكنة، وظل في انتظار نباح كلب، أو أزيز بعوضة، أو صوت سيارة ليكسر الصمت الذي خيم على الغرفة.

*

عندما فتحت السيدة جلال الباب وشاهدت سحنة السيدة آسراني أيقنت أن الحديث بينهما لن يكون ساراً.

«هل يمكنني الحديث مع سليم؟» سألتها بأدب، ولكن حدة الصوت انطلقت مثل رنين وتر سيتارٍ.

«آه، إنه ليس هنا الآن.»

«أوه، وهل يمكن أن أسأل أين يكون؟»

«لا أعرف، ذهب بعيداً لبعض الوقت.»

« هل من عادة أبنائك الذهاب بعيداً دون إبلاغك بذلك؟»

«ابني راشد وبإمكانه أن يذهب ويأتي حيث يشاء، ولا أصر من ناحيتي على السيطرة على تحركات الجميع كما يفعل بعضهم».

«حسنٌ، ربما كان يجب أن تفعلي إلا إذا اعتقدت أن كون المرء راشداً يسمح له بأخذ بنات الناس بعيداً معه».

«ليست لدي فكرة عما تقولينه».

«سمعتِ ما قلته لك، أن يأخذهن بعيداً في أنصاف الليالي مثل أي فرد من عصابة، ويتم الأمر في الظلام عندما يكون الجميع نياماً».

«أرجو أن تخفضي صوتك، فزوجي ليس على ما يرام».

«إذاً ربما يرغب زوجك أن يشرح ما الذي كان يفعله ووشاح ابنتي يلتف حول رأسه؟»

«لا أعرف ما تعنين بذلك».

«بلى تعرفين. تعرفين ماذا فعلتم، فقد أخذتم كافيتتي مني بمجرد علمكم بأنها قبلت عرضاً مناسباً للزواج من عائلة أكثر احتراماً. خطفتموها، الأب والابن والأم مجتمعين. هل هذا هو ما أتيتم إلى هذا المكان من أجله، أن تسرقوا منا بناتنا على مرأى منا»؟

أغلقت السيدة جلال الباب في وجهها. وجاءها قرع جرس الباب غاضباً أشد ما يكون الغضب، ثم تلاه صوت قبضات تهوى على الباب. «افتحي الباب أيتها الجبانة، افتحي يا ابنة الخنازير وأجيبي عن أسئلتي».

نظرت إلى الباب وهي تتراجع مبتعدة عنه، كأنه سينفتح عنوة في أية لحظة. ماذا ستفعل وأحمد لا فائدة ترجى منه؟ ماذا لو تمكنت المرأة من فتح الباب عنوة؟ بدت لها فاقدة لعقلها ومن يعرف ما الذي يمكن لهؤلاء الهندوس القيام به؟ تذكرت كل تلك الليالي في دونغري خلال فترة الانفصال، حين كان تختبئ تحت السرير مع نفيسة، في حين كانت عصابات الهندوس تجوب الشوارع في الخارج. وبالأمس فقط قرأت خبراً في الصحيفة حول القضاء على قرية مسلمة بأسرها في بهار. ربما يجب عليها استدعاء الشرطة.

فجأة توقف الطرق على الباب، وسمعت صوت أقدام تهبط الدرج.

إذاً حدث ما تخشاه وهرب سليم مع كافيتا. مع كل تلك الزيارات للمسجد طوال سنوات عدة، ومع كل النصائح حول ما هو صحيح وما هو خاطئ، هذا ما آلت إليه الأمور؛ أن يقوم ابنها الوحيد بمثل هذا الفعل. ما الذنب الذي اقترفته يا ترى؟

ماذا عن الوشاح أيضاً؟ وما الذي كان أحمد بصدده؟ لم تعرف تفسيراً للأمر عندما أخبروها هذا الصباح، والأمر أصعب الآن بعد أن تبين أنه وشاح كافيتا.

عليها الحديث مع أحمد سواء كان متزناً أم غير ذلك، وأن تعرف منه ما كان يجري. ورأته يصعد من جديد ويعود إلى غرفة نومهما، فطرقت الباب ثم فتحته ودلفت إلى الداخل.

*

في أول صباح عاد فيه فينود إلى العمل، كانت شيتال تنتظر عند الباب وعلبة طعامه معبأة وجاهزة. رغب أن يقبلها مودعاً لكنه لم يتمكن لأن أمه كانت ترقبهما. وفي ذلك المساء عاد مسرعاً ليكون معها على الرغم من أنه لم يقابل أصدقاءه على المقهى طوال أسبوعين. لم يطل به الوقت قبل أن يمقت هذا البرنامج المعتاد، لكنه اضطر لتذكير نفسه بأن شيتال تبقى محبوسة مع أمه في البيت طوال اليوم؛ ولم يبدُ أن الحياة تحت سقف واحد يمكن أن تساعد على نموّ علاقة المحبة التي تخيلها بينهما. فنادراً ما تمر أيام قبل أن تأتي أمه بانتقاد حاد لشيتال لإعطاء نكهة إضافية لوجبة العشاء.

كانوا على وشك الانتهاء من إفطارهم ذات صباح عندما لاحظ أن أمه لم تمسّ صحن البيض المخفوق أمامها، وسألها إن كان أمراً ما قد حدث.

«أضافت إليه البصل»، ردت بحزن وهمَس أمكن لشيتال الواقفة عند حوض الغسيل سماعه. «وهي تعرف أنني لا أتناول البصل يوم الأربعاء، بسبب الصيام».

«لماذا لم تذكرني بالأمر؟» سألت شيتال من مكانها دون أن تلتفت. «وأي نوع من الصيام هذا، حين يمكن للمرء أن يتناول اللحم والبيض، لكن ليس البصل؟»

«هل ترى الطريقة التي تتحدث بها إلي؟ هكذا أُعاملُ يوميا عندما تكون بعيداً». ترقرقت عينا أمه بالدموع، وهددت إحداها بالانحدار على خدها.

«أخبرها ألا تبالغ في الادعاء، فهذا العرض من أجلك فقط. لقد رأيت بنفسك شكل لسانها - بإمكانه أن يصنع ثقوباً في قطعة قماش».

«شيتال!» صاح فينود وهو يترك كرسيه، في حين انطلقت أمه في تشنجات باكية.

«تعبت من محاولات إرضائها. فهي لا تسعد بأي شيء أقوم به. أخبرني لماذا لا تطبخ البيض بنفسها، إذا لم تكن راضية عما أقوم به؟»

علت تشنجات أمه وتحولت إلى عويل، ووجد نفسه يخطو مسرعاً إلى حيث تقف شيتال. أحس بلسعة في أصابع يمناه وشاهد ومضة عدم تصديق تضيء عيني زوجته، ثم وهي تطأطئ رأسها وتغادر الغرفة ضاغطة بيدها على خدها المحمرّ، ومن خلف ظهره مخطت أمه أنفها في منديل.

بعد ذلك، غادر إلى العمل كعادته، وجلس إلى مكتبه طوال الصباح ورأسه يشتعل، كأنما حل به مرض شديد. عاد إلى البيت مبكراً وأحضر معه كوبين من البوظة بنكهة الجوز والفستق التي تفضلها شيتال كثيراً. وكانت أمه تغفو في غرفة المعيشة فتسلل بجانبها كي لا يوقظها. لكن شيتال لم تكن في غرفة النوم، وشاهد مجموعة من ملابسه المكوية والمطوية بعناية فوق السرير.

وضع العلبتين فوق طاولة الزينة، وتوجه إلى المطبخ بحثاً عنها.

«لقد رحلت»، قالت أمه التي استيقظت ثم جلست على الأريكة تعدّ نفسها لمضغ البان، «أتوقع أن تكون قد ذهبت إلى أمها».

«لكن لماذا لم تمنعيها؟».

«ومن أكون، هل تظنني مجنونة لأقحم أنفي بين رجل وزوجته؟ لا تقلق، ستعود بعد أن تهدأ نفسها ـ فهي لم تأخذ معها إلا القليل من الملابس»، ثم هشمت قشرة جوزة التنبول بين شفرات آلة تكسير الجوز، «كم عصبيات هن ومتغطرسات فتيات هذه الأيام، فقد علمونا أن نلمس أقدام أزواجنا وأن نشكرهم إذا رأوا أن من المناسب تلقيننا درساً ما»، ثم لفت ورقة البان على الجوزة وقذفت بها في فمها.

في وقت ما من المساء تذكر البوظة التي أحضرها، ووجدها قد ذابت فوضعها في المجمدة.

مرت سبعة أيام ولم تعد شيتال. واستمرت أمه في طمأنته بأنها ستعود وأنه لم يفعل إلا الشيء الصحيح.

قالت له: «من الأفضل دائماً أن تجعل الأمور واضحة من البداية، وبهذه الطريقة لن تفلت من يدك.» أمّن على كلامها لكن ضعف نفسه كان يتزايد كلما توجه إلى غرفة النوم الخالية.

بعد الصفعة بأسبوع اصطحبها أبوها عائداً بها ذات مساء. فاستقبلتهما أمه في غرفة المعيشة كأي ضيفين، وتحدث أبوه مع والد شيتال عن أسعار النفط لكن لم يقبل والدها دعوة البقاء لتناول العشاء، ثم حضنها وغادر حوالي الساعة الثامنة دون التطرق لأمر الصفعة.

ساد العشاء جوّ من الهدوء والتوتر، ولم ترفع شيتال عينيها مرة واحدة إذ استمرت في الأكل وعيناها مركزتان على طبقها. ثمّ بدأت أمه تقول شيئاً ما مرة أو اثنتين، لكن نظرة التحذير في عيني فينود كانت تدفعها للصمت. بعد ذلك غادر والداه الغرفة أبكر مما اعتادا، وحملت شيتال الصحون إلى الحوض وشرعت في تنظيف بقايا الطعام عنها.

«لا ضرورة للقيام بهذا»، قال فينود وجاء خلفها، «ستقوم به غاناغ في الصباح».

لم تلتفت شيتال، وإنما فتحت الصنبور وبدأت في غسل أحد الصحون.

«دعيها وتعالي معي»، قال وهو يطوقها بذراعيه.

«دعني أغسل الصحون أولاً، في النهاية أليس هذا ما تزوجتني من أجله؟» التفتت نحوه، وكان الاتهام قوياً في عينيها مما اضطره لأن يشيح بعيداً ببصره.

«أليس كذلك؟»

«أنا آسف»، تمتم نحوها ثم كرّر من جديد، «آسف بحق. افتقدتك ولن أدع هذا الأمر يحدث ثانية. أرجو أن تسامحيني».

«أرجوك، سامحيني»، كرّر القول وبدا صوته غاية في الضعف، فتساءل إن كان على وشك البكاء. «لقد مررت بأصعب أسبوع في حياتي».

رقت تجاهه لكنها لم تغفر له. ليس مباشرة على الأقل، وعندما أحضر علبتي البوظة أكلت التي بنكهة الفستق أولاً، ثم أجهزت على بوظة الجوز دون أن تشركه معها، ولم تبتسم عندما مازحها حول تحول البوظة إلى شكل بلوري بسبب إعادة تجميدها. هذه الليلة حافظت على مسافة ابتعاد منه فوق الفراش، وكانت تجفل مبتعدة كلما لمسها حتى لو كان ذلك مصادفة.

استمرت فترة الحظر شهراً من الزمان، وذات يوم بعدها مباشرة ألقت بنفسها في أحضانه قائلة: «لنبحث عن بيت خاص بنا».

ما إن انتقلا إلى الشقة فوق عائلة جلال حتى لاحظ فينود أن رقة ما بدأت تزهر في شخصية شيتال.

يوماً بعد آخر وليلة بعد الأخرى أصبحت أكثر تحرراً من التوتر العصبي، وحتى أكثر حسية في الفراش، تاركة نفسها تقاد أحياناً إلى غرفة النوم قبل أن يتناولا عشاءهما. بدأ أثرٌ من لون طفيف يظهر على وجنتيها، وازداد وزنها قليلاً على الرغم من أن فينود لايزال قلقاً لأنها تبدو هزيلة للغاية. بدأت علاقتها بأمه تتخذ طابعاً ودياً، وتكاد تكون علاقة محبة عدا المرات التي تثير فيها الأم أسئلة عن سبب انقضاء كل هذه المدة دون أن ينجبا لها حفيداً.

أحبت شيتال الشقة رغم الطوابق الثلاثة التي يجب صعودها للوصول إليها. ورغم وجود الكنيسة المواجهة لبنايتهم مانعة عنهم منظر البحر الذي كان يمكن لرؤيته أن تصبح متاحة لهم. وكانت الشقة قريبة من مكان عمله، فغدا باستطاعته الحضور لتناول الغداء يومياً. وفي بعض العشيات تعدّ الطعام في الحافظات المخصصة وتحمله تحت ليأكلاه في ظل شجرة التين الضخمة، التي تنشر ظلالها على كامل حديقة الكنيسة. كانا يتطلعان إلى أيام الأربعاء بلهفة حين تأتي غاناغ الطويلة أبكر من المعتاد، حاملة إليهم دجاجة مذبوحة لتوها، وتقوم بطهيها بالكاري تحت إشراف شيتال.

أخذ فينود يتساءل أحياناً عن كيفية تمضية شيتال لفترة النهار، فهي تتسوق وتعد الطعام ويعرف أنها تتحدث إلى السيدة جلال القاطنة تحتهما، وتستمع إلى برنامج فيفيدي بهاراتي بعد الظهيرة، وترفع الستائر وتغير أغطية السرير وتسقي الزهور في الشرفة. لكن هل يعد هذا كافياً بالنسبة إليها ؟ هل هو كاف ليشغلها ويجعلها تشعر بالسعادة، حتى إنه تجرأ على السؤال إن كان في هذا ما يحقق إشباعاً لها؟

عندما طرق الموضوع ذات مساء أجابته: «لدي بيت أتدبر أموره، لا مجرد بيت ألعاب لفتاة صغيرة، وليس هذا بالشيء الهيّن».

أمضيا هناك سبع سنين سعيدة، وأمام إصرار أمه توجها إلى المستشفى بالقرب من بناية ضريبة الدخل لمعرفة سبب عدم تمكنها من الحمل حتى الآن. في ذلك الوقت كما شرح لهما الأخصائي من بنغالور، كان انتشار السرطان قد تعدى حدود الرحم فأجريت لها عملية استئصال للرحم، وتلقت عدداً من أنواع العلاج المختلفة، وعندما انتهى الأطباء من معالجتها سمحوا لها بالعودة إلى بيتها وقضاء شهورها الستة الأخيرة هناك.

كان مرضها غير متوقع إلى الحدّ الذي شعر فيه فينود لبعض الوقت أنه يعيش أجواء أحد تلك الأفلام المثيرة المدرّة للدموع، التي تحصل دائماً على الجائزة الفضية في دور عرض مثل روكسي أو بيت الأوبرا. وفجأة أصبحت حياته عبارة عن موجة طويلة من الزيارات للصيدلي، أو المعبد، وساعات يقضيها في العمل غائب الفكر، وليال يمضيها في مراقبة وجه زوجته في أثناء فترات استراحتها. ثم قبل أن يعدّ نفسه تماماً، وصل أسلوب الحياة هذا إلى نهايته - فقد أخليت طاولة الزينة مما كان فوقها من وصفات طبية، ونقلت الأغطية الإضافية بعيداً، ولم يتبق من شيتال سوى صورة لها معلقة على الجدار زُيّن إطارها بجديلة منفردة من القطيفة.

لفترة طويلة بعد رحيلها بدا وكأنها مازالت معه، وكأنها كانت معه في الغرفة منذ دقيقة مضت، وأنها نزلت لتوها إلى المتجر. لم تكن تحب التسوّق وعادة ما تنتظر قدومه من العمل بدلاً من الذهاب إلى السوق بنفسها حتى ولو أن كل ما تحتاجه هو بعض الكزبرة

لاستعمالها في وجبة العشاء. وتقول في أثناء ذلك: «احضر لي شيئاً من البان أيضاً، ما دمت ستنزل في كل الأحوال».

كانت مغرمة بالبان، ولكن ليس من النوع العادي بل الأنواع السكرية منه مع كثير من جوز الهند، وجوزة التنبول المغلفة بالسكر، وكل المعاجين بنكهة النعناع والمكونات المختلفة التي يحتفظ بها البان وله في علبٍ فضية حول محيط سفرته. «نسيتَ أن تضع فيه شيئاً من هذا، على الأقل لا يجب أن تغش زبائنك المخلصين»، كانت تقول له في صرامة عندما تهبط لشراء البان بنفسها، وتظل تراقبه كي لا يخدعها بعدم إضافة الحلوى الفضية الصغيرة المفضلة لديها. أصبح البان وله مغرماً بها، ويسأل عنها يومياً عندما وقعت فريسة للمرض. وحتى في أيامها الأخيرة عندما أصبح من الصعب عليها المضغ أو البلع، فإنها أصرت على الحصول على شيء من البان قائلة: «يساعدني على الاسترخاء». وحين كان فينود يضع البان بكل رفق بين أسنانها، يصبح أثر صبغة البان البرتقالية المعتادة، لوهلة، مثل زهرة تتفتح على شفتيها، فيستنير وجهها.

«تذكر ما يجب أن تفعله بعد رحيلي يا فينود، تذكر ما وعدتني به ومهما حدث لا تنس هذا الأمر». كانت تشهق في أثناء محاولتها مضغ البان، في حين يقبع هو بجانبها يقبل يدها ويطمئنها بأنه سيبرّ بوعده، ويتساءل في الوقت نفسه كيف سيتمكن من ذلك.

ما أرادته شيتال، وما أصبحت مهووسة به في نصف السنة الأخيرة من حياتها، هو ظهور اسمها في موسوعة غينيس للأرقام القياسية.

فينود هو من اشترى نسخة من الكتاب كهدية لها للاحتفال بمغادرتها المستشفى. على الفور قرأته شيتال ومباشرة في ذلك المساء قررت أن اسمها سيدرج ضمن هذا الكتاب. لم تكن قط استثنائية في ممارسة أي نشاط، لكنها ستثبت للعالم الآن بأن شيتال تانيفا كانت في الواقع الأفضل في شيء ما. لكن ظل السؤال قائماً، ما هذا الشيء؟.

قرأت بنود الكتاب وأعادت قراءتها، لكنها لم تجد فيه شيئاً يمكن أن تأمل بتحقيق فوز فيه، ورأت أن فرصتها الوحيدة هي ابتداع مجال جديد. وفي صباح أحد الأيام أعلنت عن

قرارها بهذا الشأن: سيكون اشتراكها في مجال الحوار الذي كانت على الدوام موهوبة في حفظه. «ماذا لو حفظت عن ظهر قلب الحوار الذي يشمله الفيلم كله؟ بالتأكيد سيضطرون إلى وضع اسمي في الكتاب حينذاك». وطلبت منه أن يحضر لها صحيفة لمعرفة ما يعرض من أفلام في تلك الأيام، وسيذهبان في اليوم التالي مباشرة، فلم يعد هناك كثير من الوقت لإضاعته.

اختارت مشاهدة فيلم جيفان (الحياة)، فهناك نوع من المفارقة في هذا العنوان لأنه كذلك من بطولة مينا كوماري، التي تنتهي بالموت في أفضل أفلامها، فأي اختيار أفضل من هذا؟ طلبت منه استعارة مسجل كان أخوه قد اشتراه، وبإمكان فينود تسجيل الصوت في أثناء جلوسه بجانبها.

تطلّب منها ارتداءُ ملابسها ساعة كاملة، ولفت جسدها الهزيل بأكثر ساريها بهجة وحيوية، كما حاولت إخفاء الغور في وجهها مستخدمة أدوات الزينة، وتمكنت من تثبيت نفسها بشكل ما لتضع أحمر الشفاه وتضيف بقعة على جبينها. ثمّ طلبت من فينود أن يلبسها أقراطها، كما ارتدت عقداً وأساور ذهبية على الرغم من أنهما سيحضران عرضاً صباحياً.

عندما حان وقت مغادرة الشقة، لم تتمكن من النزول على الدرج. وفي النهاية جلست على أحد كراسي طاولة الأكل، وحملها كل من فيشنو والبان وله مثل ملكة فوق محفتها. اصطحب فينود الرجلين معه لمشاهدة العرض أيضاً، وكي يصعدا بها إلى شرفة دار العرض حيث أصرت على الجلوس هناك.

جلسا في الصف الأول خلف الحاجز مباشرة، وشاهدت شيتال معظم الفيلم، على الرغم من أنه عندما اختلس النظر إليها عدة مرات رأى عيونها مغلقة وكأنها قد غرقت في تفكير عميق. لم يسبق لكل من فيشنو أو البان وله أن حضرا في شرفة دار عرض، وقد ادّعى الأخير أكثر من مرة أنّ ليس الصوت وحده أكثر نقاء في هذا المكان وإنما الصورة أيضاً، وعلل ذلك بأن الشاشة مصممة لتبث كمية أكثر من الضوء نحو المقاعد الأكثر كلفة. تطلبت العملية استخدام ثلاثة أشرطة لتسجيل صوت الفيلم الذي استمر ساعتين

ونصف، وحرص فينود في أثناء ذلك على تبديلها خلال فترة الأغاني، كي لا يفقد شيئاً من الحوار.

في اليوم الذي تلاه تقدمت شيتال بطلب إلى دار غينيس وأخبرتهم عما هي بصدده. وحمل فينود الطلب لطباعته على الآلة، ثم وضع الرسالة في البريد مشدداً على قيام موظف البريد بالختم على الطوابع أمامه وفقاً لتعليمات شيتال كي لا يأخذها أحد ويستخدمها من جديد.

كانت شيتال تستلقي طوال الشهرين اللذين تليا بجانب المسجل لحفظ الحوار. وعندما تصبح الأمور مربكة بوجود الأدوار المختلفة تستعين أحياناً بغاناغ الطويلة لمساعدتها. «ألا تخجل من نفسك وأنت تعذب البنات هكذا»، كانت تعنف غاناغ الطويلة التي تجيبُ عن البطل بصوت بطيء تعوزه الرشاقة. وكان يعود إلى البيت ليَسْمعها تُردد: «عندما أكون معك يخفق قلبي دوك دوك - فلِمَ تظن هذا يحدث»؟ ثم يقبلها قبل النوم فتقول مباشرة: «حتى لو غفر لي الله فلن أغفر لنفسي، جراء ما فعلت». كانت تصاب بالحمى أحياناً، لكنها تقاوم حتى لو أن ذلك يعني حفظ بعض السطور فقط.

بعد شهرين من مشاهدة العرض قامت شيتال بمحاولتها الأولى. وقد دُعي أخ فينود وزوجته ليشهدا على ذلك فأحاط الجميع بسريرها لسماع استذكارها للحوار.

كانت المحاولة كارثية. واختلطت عليها الأدوار ونسيت مشاهد بأكملها، وغمرتها العاطفة فلم تتمكن من الاستمرار عندما أودع ديليب كومار رماد محبوبته في نهر الغانغا وشاهده يطفو مبتعداً عنه. «هذه هي ليلة اتحادنا الأول»، كان صوت محمد راڤي ينطلق حزيناً من المسجل، بينما كان فينود يطلب من الجميع مغادرة الغرفة.

قبل ثلاثة أسابيع من وفاتها أحضر ساعي البريد رسالة من بريطانيا عليها طابع كبير بلونيه الأزرق والبرتقالي. وكانت شيتال في منتهى الإثارة بحيث أجبرت نفسها على الجلوس في السرير وفينود يفتح الرسالة، ثم بدأ يقرأ بصوت عال: «عزيزتي السيدة

ثانيفا، نشكرك على مشاركتك الأخيرة المتعلقة باستحداث بند جديد يخص حفظ الحوار في الأفلام السينمائية عن ظهر قلب. وإننا نعتذر لإبلاغك بعدم إمكانية إدراج هذا النوع في موسوعتنا في الوقت الحالي، وفي جميع الأحوال نودُّ تهنئتك على إنجازك بالغ الأهمية في هذا المجال».

كانت الرسالة موقعة من «وليم واربي، المحرر المساعد لموسوعة غينيس للأرقام العالمية»، وأرفق بها نشرة إعلانية عن الطبعة المقبلة من الموسوعة.

بدت شيتال محطمة طوال اليوم، لكنها طلبت في اليوم التالي من فينود إعادة قراءة الرسالة وحثته على تكرار الكلمات الخاصة بالرفض عدة مرات.

«آهاا»، أعلنت مقاطعة، « قالوا لا يمكنهم إضافتها في الوقت الحالي، وهو ما يعني أنهم يزمعون النظر فيها مستقبلاً، وكذلك فمن يعرف كم سيستمر هذا الشخص؛ واربي، في موقعه، وبخاصة أنه يرفض مثل هذه الاقتراحات الجيدة؟ وإن رحل سيكون للشخص الجديد فرصة أخرى لتقرير هذا الأمر».

حينذاك تحصلت من فينود على الوعد. «حاول معهم إلى أن يتم إدراجي حتى لو قلت لهم إنني مت بسبب السرطان، وسيجعلهم هذا يلينون ولاسيما عندما يستلم الشخص الجديد». وفي الوقت نفسه جُهز للرسالة إطار وعُلقت فوق فراشها، وكانت تقوم في كل يوم بمد يدها ولمس الجزء الذي أثنى على «الإنجاز البالغ الأهمية».

في العام الذي تلا رحيلها أعاد فينود إرسال الطلب إلى موسوعة غينيس، وبعد شهور تلقى رسالة تكاد تشبه الأولى تهنئه على إنجاز زوجته بالغ الأهمية، ووقعت أيضاً من وليم واربي.

الحادي عشر

تجلسُ الجمدارني على البسطة في أثناء التهامها ثمرة المانغو؛ إنه المانغو الخاص به. ويبدو فمها ملطخاً بالأصفر في حين تلمع عيناها بمتعة غريزية، ثمّ تقوم بكشط اللب بالكامل، وتمرر أسنانها على البذرة للبحث عن أي نتف من اللب قد فاتتها.

أهذا ما تعنيه الألوهة؟ أول قربان يقدم له، وعلى الرغم من ذلك فليس هو من يستمتع به، وينظر إلى الجمدارني ـ التي تمرّ على البذرة مرة أخرى محاولة أن تمتص منها المزيد من النكهة.

ما الذي يجب أن يتنازل عنه أيضاً؟ كل ما تذوقه وشمّه في حياته؟ فقد حتى الآن مقدرته على اللمس ـ فهل سيفقد كل قوة التجربة أيضاً؟ هل يمكنه اختيار ألاّ يكون إلهاً؟

تطلق الجمدارني أنّة ارتياح، ثم ترمي القشور والبذرة في سلة القمامة.

يتذكر آخر عهده ببادميني. «ماذا لو أتيتَ يوماً ولم تجدني هنا؟» تسأله في أثناء جلوسها على السرير. «هل ستحاول البحث عني؟».

«بالطبع سأبحث عنك، لكن لم تقولين هذا الكلام؟».

«لا يوجد سبب، لكن هل تعرف أنك لن تعثر عليّ أبداً لو أنني قررت الرحيل».

وعندما ترى التعبير على وجهه تضحك، «لا تنزعج، فلست ذاهبة إلى أي مكان»، ثم تنظر من خلال النافذة، «كلا، فبادميني ستكون هنا على الدوام».

يتتبع مكان تحديقها خلف ستارة الحرير الأحمر التي تتسدل على النافذة، فيرى نساءً ضاحكات يقفن في شرفة المبنى المقابل، ينادين على الناس من تحتهن. يرغب في دسّ وجهه نحو رقبتها، وهصر جسدها إلى صدره، وأن يسمعها تعدهُ مرة أخرى بأنها لن تتركه أبداً، لن تذهب أبداً. كم قليل هو الجانب المتاح له معرفته منها ـ فالدقائق التي يسرقها منها ثمينة ولن يعرف ذلك أبداً. ثمّ يتناهى إلى مسامعه من الشارع صوت بائع متجول يعرض البهاجيا ـ الفلفل، والبصل، والبطاطس، والباذنجان.

لقد غادرت المكان، ولا تعرف صاحبة الماخور إلى أين ذهبت. تعرضَ عليه لاجوو بدلاً منها، أو جولابي، أو حتى رينا التي عادة ما تفرض سعراً أعلى، لكن فيشنو كان في حالة ذهول، وظل يبكي وينادي على بادميني، فهو لا يريد سواها، ثمّ يهيم على وجهه لأيام باحثاً عنها لكن توقعاته تثبت صحتها، فلا أثر لها.

لكنه إلهٌ الآن وبإمكانه إعادتها، فهو لا يحتاج إلا النظر من خلال الطبقة التي تغطي المدينة، ويلتقطها من الزاوية المظلمة التي تختبئ فيها. يقبلها، يحضنها، يحبها، ويرميها أرضاً لو أراد ذلك، ولا يتركها تغيب عن ناظريه أبداً.

لماذا لم تعد الفكرة تسيطر عليه؟ ولمَ صار ما يمنحه جسد بادميني من متع باهتاً وتحوّل إلى مجرد عبير ملطّف في ذاكرته؟ عبير مندمج مع رائحة المانغو، ورطوبة الماء، ونكهات الشاي. هل فقد رغبته، هل مُحيت تجربته، وهل تم فجأة شطب وإلغاء كل ما خبره في حياته من إدراك مادي؟

يتملكه شعور باللامبالاة ويتسرب من خلاله إلى مكمن الرغبة الملحة في جسده، فهو لم يشبع رغباته بعد، كلا، ومع ذلك لم يعد يريد شيئاً منها.

تلتقط الجمدارني سلتها وتبدأ في صعود الدرج، ويشعر فيشنو بالسعادة لأنها أكلت ثمرة المانغو. إنه لا يحمل لها أي ضغينة.

تنتشر الأخبار بسرعة في أنحاء البناية، وتشتعل في الطابق الأرضي مثل حريق هائل خارج السيطرة. أخبرت غاناغ القصيرة السفائر وله، الذي نقل الخبر بدوره للبان وله، الذي أخبر الكهربائي بالعثور على السيد جلال نائماً على درج البناية، وعندما صحا من نومه حاول الاعتداء على السيدة باتاك في حضور زوجها. أما المؤجر للدرجة السفلية فسمع الخبر من السفائر وله، الذي زاد عليه آخر إضافاته حول عيني السيد جلال الزائغتين، عندما نزل منذ قليل لشراء السفائر منه. وبدوره أبلغ نزيل الدرجة السفلى الجمدارني بأن عربة إسعاف المصحة العقلية حملت السيد جلال معها. لكن هذا الخبر

فندته الجمداراني التي سمعت من السيدة باتاك خبر هروب كافيتا مع سليم، والدور الغامض للسيد جلال في هذا الموضوع. وسرعان ما تحول هرب كافيتا إلى تصرّف لا إرادي بسبب الجنين التي حملت به سفاحًا، وتطور الأمر إلى عملية اختطاف مدبرة من قبل عائلة جلال. كما قيل إن السيد جلال خاض معركة مع فيشنو الذي تعافى من مرضه بأعجوبة في محاولة لإنقاذ كافيتا، لكنه تعرّض للضرب دون رحمة من جانب الأب والابن. وفي رواية أخرى قيل إن فيشنو تمكن من ضرب السيد جلال وإفقاده وعيه قبل أن يتم التغلب عليه، وإن كافيتا تركت وراءها وشاحها لتوريط المتهمين الحقيقيين. أفادت نظرية أخرى أن الوشاح نُزع عنها في محاولة لاغتصابها، وأنها اختُطفت لتصبح جزءاً من حريم لمهربٍ مسلمٍ شهير. ولم يبد أن أحداً كان على بينة ممّا قاله السيد جلال بالضبط حول فيشنو، على الرغم من أن الجمداراني ادعت أنه وصفه بشيطان هندوسي يستحق الموت.

أمعنت السيدة جلال النظر في زوجها النائم فوق السرير. فبالزاوية التي يضطجع بها، كان الضوء الذي ينساب من النافذة وينعكس على وجنتيه يخفي كل هزمات الجدري، ويشع وجهه دون عيوب مثل وجه طفل، وهي ترقد إلى جواره وتريح رأسه فوق ثنية مرفقها. هو ذا أحمدها المسكين، فكم بذل من الجهد، وكم عليه أن يبذل ليسمو فوق نفسه. فهي لم تر من قبل شخصاً بهذا الطموح، وهذه المبادئ؛ ومدت يدها لتزيح الشعر عن جبينه. ترى هل هناك شيء في وسعها القيام به أو قوله يمكن أن يوقف عملية المطاردة الغريبة التي يقوم بها؟

اندس أحمد مقترباً منها أكثر. «عريفة»، تمتم بعينين مغلقتين ثم أحاطها بذراعه وبدأ يمسّد على عنقها بظاهر أصابعه، «أشعر برغبة في النوم، ولكن لدي الكثير لأقوم به.»

«هسسسسس، فيما بعد»، ورفعت يداً فوق وجهه لتمنع عنه ضوء الشمس الذي بدأ يسقط على جفنيه، ومباشرة بانت لها علامات الجدري على سطح جلده، فنظرت إلى الهزيمات وتحسست عدم انتظامها تحت أطراف أصابعها متسائلة عن كيفية رؤيته لها، وكيف يشعر وهو يكبر بوجه مليء بالحفر هكذا. سألته عن هذا الأمر ذات مرة منذ زمن طويل لكنه لم يجبها. هل كان الأطفال في المدرسة يعيرونه بها؟ وهل تجنبه رفاقه في الفصل، الذين ربما أصبحوا أصدقاء له لو أن شكله كان مختلفاً؟ وهل خاض غمار الحياة وهو مدرك دائماً لهذا النقص لديه، اللافت للانتباه بوضوح بالغ القسوة، في أثناء اللقاءات الأولى.

أما هي فلم تهتم لهذه الهزيمات، بل إن أنانيتها جعلتها تسعدُ لوجودها، لأنها أدّت إلى توازن في إحساسها بالنقص. إنّ بشرة أحمد هي بشرة أحمد، وليست هذه إلا تنويعات فقط - تنويعات في التركيب وفي اللون، كانت واثقة من إيجاد تفسيرات لها وفقاً لعوامل البيولوجيا مثل الأعصاب، والأوردة الدموية، والخلايا الصبغية.

الشيء الذي كانت تجد صعوبة معه هو ما تحت جلده وداخل رأسه. لماذا لا تستطيع التفكير في أن هذه الاختلافات أيضاً هي تنويعات بيولوجية؟ سمعتُ في مكان ما بأنّ كل الفكر، بالإضافة إلى الشعور والاعتقاد تنتج عن سلسلة من التفاعلات الكيميائية والكهربية. فكيف يمكن لشيء علميّ بالكامل، ويخلو من العاطفة بشكل تام أن يسبب كل هذا الفوران؟ ولماذا رتبت المسارات في عقل أحمد نفسها على هذه الطريقة الشاذة، وبشكل مضاد ومعاكس تماماً لما علموها إياه؟

لكن الاستلقاء بجانبه على السرير جعل كل هذه الأشياء تصبح أقل أهمية. أدنت برأسها من رأسه، وطبعت قبلة على خده، فحافظ على عينيه مغلقة واستمرت أصابعه تدعك قفا عنقها، وذكرتها الاستكانة في دعة إلى جانبه بالمرات التي كانت تستلقي فيها بالقرب من العنز التي يأتي بها أبوها إلى البيت في كل عيد. كانت تحيط جسم العنز بذراعيها وتربت على رأسها، وتدفن وجهها في شعرها، وأحياناً تضع رأسها على صدرها وتنصت إلى نبضات قلبها.

كانت العنز تُربطُ أمام المطبخ مباشرة حيث يمكن تسمينها قليلاً بإطعامها سيلاً من بقايا الخضار. أما هي فكانت تحب القيام بهذه العمل وتراقبها وهي تقضم بخفة ما تقدمه لها من الجزر وأوراق الكرنب على الرغم من أنه سيكون في ذهنها على الدوام فكرة أن يوم العيد آتٍ لا محالة. تستلقي فوق سريرها ليلة العيد وتعرف أنها ستكون آخر مرة تنام على ثغائها في شرفة البيت، وخيالها يجنح بها فترى نفسها تطلق سراح العنز التي تعدو مسرعة خلال الطريق الحجري الضيق، ثم تركض خلال طريق السجن، وتقفز في أثناء مرورها بباعة الحليب على دراجاتهم، متجنبة سيارات الأجرة وحافلات بست في طريقها للحرية.

ذات عام وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام عملية ذبح الأضحية. كانت قد تتبعت أثر صوت عمها فعثرت على أبيها وأبناء عمها يتجمهرون حول أحد الأبواب، وأحست وهي تمرق بين الرجال بنعومة جلابيبهم القطنية البيضاء وشذا العطر الذي يفوح منها. شاهدت عمها بجبته المطرزة واقفاً بجانب الجزار وقد دلّي القماش الذي أمسك به بذراعين قائمتي الزاوية بالنظر إلى جسمه، ثم أنزل ذراعيه، ورأت وراءهما رأس العنز يتدلى بالقرب من السكين المقوّس، في حين ترتعش أجفانها وكأنها تصحو من نوم عميق، وشاهدت مجرى في الأرض به دم حالك السواد ولزج مثل القطران. كان البلاط المحيط ملوثاً باللون الأحمر، ولاحظت أن حذاء عمها ملطخ أيضاً. فأطلقت صرخة مدوية محاولة الاندفاع والتراجع عبر الرجال، لكنها وقعت بين ثنايا القماش الأبيض الخانق، فصرخت وصرخت، واللون الأبيض يحيطها من كل مكان إلى أن عثرت عليها ذراعا أبيها الذي انتشلها بعيداً.

جاء عمها ليراها فيما بعد، ولم تستطع النظر إليه في البداية خوفاً من رؤية قطرات من الدم على لحيته. وما إن حدقت في عينيه حتى وقعت في غياهب سكينتهما العميقة.

«هل تعرفين لماذا نقوم بذلك يا عريفة؟ لماذا نضحّي بالعنز؟»

نظرت إلى نعليه في صمت، وقد جف على حواشيهما الدم وصار لونه بنياً غامقاً.

«الأضحية هي لتذكيرنا بمدى نفاسة الحياة، ولتذكيرنا بأن كل من يضحون بعنز يجب أن يستعدوا ليضحوا بأنفسهم بالطريقة نفسها في سبيل الله».

لم تعن الكلمات لها شيئاً، لكنها هزت رأسها بالموافقة كي يشعر بأنها استوعبت الأمر، وهزت رأسها للهروب من الهدوء المنبعث من عينيه، الذي يدينها.

الآن، وبعد سنوات عديدة ترى بأن لكلمات عمها بداهة تبعث الرعب فيها، فأحمد قد عبر الخط بالفعل، والقرآن واضح في مسألة الكفر. هل سيُطلب منها التبرؤ منه؟ ينصح القرآن بالتطليق، ويعاقب بالقتل. فهل ستجد القدرة على طرده من حياتها؟

فتح أحمد عينيه فنظرت فيهما. كلا ، إنها لا تتمتع بالقوة الكافية ولا يمكنها التخلي عنه. لا تستطيع وضع سكين على رقبته، وستبقى إلى جانبه وتسانده مهما تكن النتيجة، وستجد وقتاً فيما بعد للتوبة وتسوية حساباتها مع الله.

«أخبرني يا أحمد. ماذا قال لك فيشنو البارحة؟»

أخذ الصخب يعلو من الطابق السفلي: «لا يمكن أن نسمح لهؤلاء المسلمين أن يأخذوا منا بناتنا.» و«من يعتقدون أنفسهم؟ يجب إعادتهم إلى وضعهم الصحيح.» و«يجب تلقينهم درساً قبل أن تصعب السيطرة عليهم».

عندما نزل السيد باتاك إلى السفائر وله، التفت حوله مجموعة من الناس وكأنه نجم سينمائي، وسألوه: «ماذا قال لك السيد جلال؟ هل أخبرك عن مكان اختباء سليم»؟

فوجئ بكل هذا الاهتمام، «سأجيب أسئلتكم كافة، والآن دعوني أحصل على سفائري». وبينما هو يدفع ثمن علبة شارمينار تخيل المراسلين يحوطونه والأضواء تلمع في وجهه، فأشار لسائليه أن يتبعوه ثم جلس على الدرجة الثالثة من سلالم المبنى.

أخرج السيد باتاك سيغارة شارمينار ونقرها بخفة على العلبة، ثم وضعها في فمه وشرع يبحث عن كبريته، لكن ولاعة ظهرت أمامه بأعجوبة لتشعل سيغارته. سحب نفساً عميقاً ثم

نفخه إلى الخارج وهو ينظر نحو السماء مثلما سبق وشاهد أناساً مهمين في السينما وهم يتحدثون عن أعمالهم، «يبدو أن السيد جلال رجل بالغ التعقيد»، بدأ يقول لهم.

لسوء الحظ غالى في تقدير شهية المتجمعين للتحليل. فالحقائق هي ما كانوا متعطشين إليه - أو إن لم تكن هذه متاحة، فالإشاعات هي أفضل شيء يليها، فضغطوا عليه: «هل اعترف السيد جلال؟» «هل تعرض فيشنو إلى ضرر كبير في أثناء العراك؟» «وهل شاهدت دما على الوشاح؟».

في معرض قلقه من فقد السيطرة على سامعيه، أخذ يجيب عن أسئلتهم كافة دفعة واحدة، بعضها بنصف الحقيقة، وبعضها الآخر بنعم أو لا بشكل عشوائي، وكان حريصاً طوال الوقت على زخرفة الأمور بقدر معين وتبهيرها.

«نعم هناك دم على الوشاح، لكن من الصعب عند هذه النقطة معرفة إن كان دم السيد جلال أم دم فيشنو عندما خاضا العراك، أو ربما هو دم كافيتا، إذا كان ذلك المجهول الذي لا يعلمه إلا الله قد حاول الاعتداء على شرفها».

«نعم أصيب فيشنو في العراك وهو الأمر المؤسف كثيراً، لأنه كان يتعافى بالأمس - فحتى أصحاب عربة الإسعاف لم يروا هناك ضرورة لنقله للمستشفى، لكنه مرمي هناك الآن يشرف على الموت».

«كلا،لم يعترف السيد جلال، ليس تماماً، رغم قوله بأنه إذا لم يكن الهندوس مستعدين لتزويج بناتهم، فليس أمام المسلمين إلا أخذهن عنوة».

بدت هذه الإجابات مناسبة للغاية، لأنها أزعجت الحاضرين، وسُمعت صيحات تنادي بحماية شرف الدم الهندوسي، ولإجبار السيد جلال على الاعتراف. «لا توجد حصانة تمكن أحداً من الإفلات من العقوبة».

بدأت تظهر عصبية السيد باتاك عندما وردت فكرة العنف. ربما زاد قليلاً في مسألة الهندوس ـ والمسلمين هذه، وربما عليه التراجع عنها. لكنه كره أن يترك موقع القيادة الذي وضعه الناس فيه، فحاول البحث عن طريق وسط، «دعونا نبلغ الشرطة»، قال مرتباً وضع نظارته فوق أرنبة أنفه، «لنذهب ونطلب منهم البحث عن كافيتا».

لكن الجمع لم يلق بالاً لهذا الرأي. «لا بد أن تدفع عائلة جلال ثمن ما قدمته أيديهم. من يظنون أنفسهم، وهم يقومون بهذا الأمر في وطن الهندوس؟»

عند هذا الحد أخذ العرق يسيل من السيد باتاك، فالوضع بدأ يفلت من يده وهو لم يخبر حتى زوجته بنزوله إلى الشارع. وبدأ التجمع يصبح أكثر عنفاً أمام عينيه ـ بإمكانه الآن رؤية عصا أو اثنتين من الخيزران تُرفعان في محيط الجمع. ماذا ستقول عنه زوجته لو علمت أنه شجع عصابة مسلحة بعصي الخيزران للصعود وضرب السيد جلال المسكين؟ «لنهدأ قليلاً»، حاول إخبارهم لكن جلبة الأصوات غطت عليه، ولأنهم أحسوا بضعفه، والتفت التجمع إلى السغائر وله الذي خرج من دكانه ممسكاً بخيزرانة في يده بإحكام.

«ما نريده هو تنفيذ العدالة من أجل كافيتا». صاح فيهم، وسمع منهم صيحات موافقة. ثم ضرب راحته على جبهته وعلى فخذه قائلاً: «دعنا نجلب المزيد من العصي وعدداً أكبر من الناس».

«انتظروا!» صاح فيهم السيد باتاك عندما بدؤوا ينفضُّون من حوله، ثم كرر صيحته: «انتظروا!» وكان يعلو وجهه الشحوب من خلف إطار نظارته الأسود، في الوقت الذي كان فيه السغائر وله يقود المجموعة إلى الفناء الواقع خلف البناية.

في البداية لم يلاحظها فيشنو. كرات من اللهب الصغيرة تشتعل عند قدميه، فهو يقف الآن عند باب عائلة جلال ولا شيء يمنعه من التقدم سوى فكرة وحيدة. إن كان هو فيشنو الذي عاد للحياة على الأرض، فأي من التجسدات العشرة التي يتقمصها الآن؟

يمر ذهنه مسرعاً بالأسماء التي علمتها له أمه في الأوقات كافة التي هبط فيها إلى الأرض لمقارعة الشر. ويتساءل إن كان سيصبح ناراسيمها؛ الرجل الأسد، الذي وثب من عمود ليقتل شيطاناً. أو فارمانا؛ القزم الذي لقن الطاغية بالي درساً. أو أحد التجسدات اللاحقة مثل بوذا أو كريشنا اللذين هبطا إلى الأرض في صورة البشر. لكنه يرى أيضاً أن ناراسيمها قد أتي ثم رحل، وكذلك فعل فارمانا، وراما، وكريشنا. فكيف يمكنه أن يكون تجسداً لشخصية قد تحققت فيها الحياة من قبل؟ تبدأ ألسنة اللهب في الارتفاع قليلاً، ترفع رؤوسها وتحدق في من حولها في فضول.

التجسد الوحيد الذي لم يهبط بعد، هو الأخير لفيشنو الذي يسمى كالكي، المقدر له أن يقطع حبل الزمن وينقي البشرية من أدرانها.

اكتشفت ألسنة اللهب مقدرتها على الحركة، فأخذت تنتشر على الأرضية وتلعق الجدران، مرتفعة حتى مستوى الحاجز اليدوي، ثم تتدلق أسفل الدرج.

كالكي الممتطي حصانه الأبيض، الذي يحمل نفس اسمه، ويمتشق سيفه المشتعل يضرب به الأرض فيشعل النار في العالم.

من خلال الدخان يشاهد أمه تجثو على أربع فوق أرضية الكوخ. كان يمتطي ظهرها ممسكاً عصاً في يده يلوح بها كأنها سيف.

«أخبريني من تكونين؟» يطالبها، وهي تحمله عبر أرضية الكوخ.

«أنا حصانك يا فيشنو العظيم، وكالكي هو اسمي أيضاً. معاً سنهبط إلى الأرض لمحاربة الشر - هيا، وتمسك جيداً بلبد رقبتي».

يشم رائحة الجوز في عرق أمه، ويتمايل جسمها يمنة ويسرة، يشعر بليونته من تحته، ويتمسك بأحسن ما يمكنه. يطيران من السماوات العلا ويحطان على السهول المنبسطة.

«أنا كالكي»، يقول ممسكاً بعصاه، «أتيتُ على ظهر حصاني لأنهي هذا العصر. سأعدو عبر الأرض لإنقاذ الخيّرين، وأشعل في الأشرار النار».

دبت الحياة في الجدران وأخذ السقف يرقص. يبدأ منزل جلال في الخلخلة، ويأخذ الجص في التساقط.

تصبحُ العصا سيفاً وينظر إليها متعجباً، ومن خلف الجدران المحترقة تأتيه أصوات الصياح وترتفع النيران أعلى فأعلى.

فجأة يجد نفسه ممتطياً حصاناً حقيقياً ناصع البياض. ويشعر بأن ظهره بات أكثر قوة تحت سرجه، وأجنابه أكثر بروزاً تحت ساقيه.

يتساءل من أين أتى الحصان، وماذا يريد منه؟ ويلتفت باحثاً عن أمه لكن رائحتها تلاشت بعيداً في الدخان فلا يقع نظره عليها.

يتلهف الحصان للانطلاق، فيصدر صهيلاً متحمساً ويضرب بحافريه في نفاد صبر على درجة السلم، ويشعر بتوتر جنبيه تحت فخديه.

ثمّ يتهدم الجدار أمامهما وتشتعل النيران في الكنيسة عبر الشارع، فيقفان سوية على حافة البسطة ليراقبا الأبنية من تحتهما تحترق.

ثم يتأهب الحصان للوثب، فيشعر بعضلاته تتقلص ويرغب في سحبه إلى الخلف وإبعاده عن الحافة، لكنه لا يجد له لجاماً أو شكّيمة.

يثبان في الهواء تاركين خلفهما هيكل المبنى المحترق، ويومض شعر الحصان الأبيض على خلفية سواد الليل من حولهما، ثم تبدأ ريح باردة في الهبوب فوق رأسه، فيتساءل في أثناء احتضانه جسم الحيوان وتعلقه إلى عنقه بقوة، من يكون هذا الحصان، وإلى أين يحملني؟

أنا كالكي؛ حصان فيشنو الأبيض، وتجسّده النهائي الذي يُعرف باسمي. أهبطُ من السماوات العلا لأعدو عبر الأيام البالية.

لأميال عديدة أحمله على ظهري، وتضغط ساقاه على جنبي. يدهن جلدي بعرقه وينزلق جسمه فوق ظهري.

أحياناً، عندما أستنشق رائحته التي تختلط برائحتي، وعندما يربت على شعري ويهمس في أذني، وعندما أراه يرتدي لباس المعركة أتمنى لو كانت لي أجنحة، أتمنى لو ملكتُ أجنحة لأطير معه بعيداً إلى جنة سماوية ما، قبل أن تحل نهاية الزمان.

ثم أتذكرُ المهمة التي هبطنا من السماء لأجلها، المهمة التي لن يقدر لها أن تُنجز أبداً ما لم أتمتع بالقوة. فالبلاد يسيطر عليها الهمجيون، والكفار يحكمون الأرض وقد تخلصوا من تعاليم فيدا، وسمموا الهواء بأفعالهم الغريبة.

يبدو فيشنو أقل غضباً لهذا التعدي فيقول: «الشر هو الشر، ينبع من داخل قلوب البشر، وليس بحاجة إلى مصدر خارجي كي يظهر. والأرض مدنسة لأن البشر مدنسون، لقد أصبحوا غير مهتمين وسمحوا لبذور الشر أن تنبت».

«نعم،» أقول له، «لكن من يغذي تلك البذور؟ ومن أين تأتي الرياح التي تنفخ السحاب لتسقي البراعم؟ إنها من أوطان بعيدة جداً لا تحمل الرطوبة فحسب، وإنما تحمل البذور نفسها».

«البذور دائماً موجودة يا صديقي»، يقول فيشنو مربتاً على رأسي. « إنها جزء لا يتجزأ من بني الإنسان، ويلزم الانتباه المستمر لإبقائها دائماً في طور السبات».

أذكّره فأقول، «لكن يا مولاي جاء في البورانس كتاب المعرفة المقدس بأن الهمجيين هم الملومون، وأنك ستمحقهم، وتعيد تعاليم الفيدا للأرض من جديد».

يبتسم فيشنو لكنه لا يجيبني. والمشكلة - كما أعتقد - أحياناً أنه يمتلئ برقة أبوية تجاه الناس. هل يعد هذا فضيلة، أم ضعفاً من جانبه؟

لأنني رأيت ما فعل الهمجيون، رأيتهم يحرقون المزارعين في حقولهم، ويقطعون رقاب الكهنة في معابدهم، ويقطعون رؤوس كل تمثال مقدس حتى التي تمثل فيشنو ذاته.

لحسن الحظ، أنا هنا للتشديد على تطبيق العدالة وإعادة القانون والنظام. لأنني أنا من أقرر أين سنقوم بمهمتنا، فالراكب لا يملك إلا أن يذهب إلى حيث يحمله جواده. أنظرُ إلى السماء وأستمعُ إلى صوت الرياح وأتتبعها إلى حيث يوجد الهمج، فالشعلة والسيف هما أساليب التطهير الوحيدة التي يعرفونها. وفي بعض الأحايين إذا ما تردد فيشنو، وإذا أنجز نصف العمل، مثل أن يترك همجياً نصف حي، عندها أتم أنا المهمة بنفسي. ووجب أن أذكر بأن كالكي ليس اسم فيشنو فقط، لكنه اسمي أيضاً.

نسير اليوم على ضفاف الغانغا، وعبر السهول المنبسطة التي تبدأ من حافة المياه وتفرش الأرض. فهنا وهناك يقطع انسياب الخضرة مشاهد لأكواخ مخربة في قرى تم الجلاء عنها، ومن خلفنا تبتعد بقايا مدينة قد محوناها لتوّنا، حيث يرتفع منها الدخان ويغطي عين الشمس. وينساب على جنبي سيف فيشنو خيط رفيع من الدم - سينتظر حتى حلول هذا المساء ليغسله في نهر الغانغا.

ثم نصل إلى قرية ترفرف في سمائها أعلام ملونة، يوجد كبارها في الحقول البعيدة، ولم يتبق فيها إلا الأطفال يمرحون في الفناء المركزي.

«إنهم همجيون»، أشاهد الأعلام، وأشير له برأسي، «أطفال الهمجيين».

«إنهم صغار في السن»، وعندها عرفتُ أنه سيتردد ثانية.

«أنت لا تقتل»، أقول لتذكيره، «بل ترسلهم إلى ولادة جديدة أقل خسّة، اضرب بسيفك واجعلهم يولدون من جديد».

«لا يمكنني ذلك. فأن تقتل شخصاً في هذا العمر؟ كيف يمكن لمثلي أن يقوم بمثل هذه الأفعال القاسية؟».

«سيكون أكثر قسوة لو تركتهم يعيشون، كي يكبروا ويصيروا همجاً أيضاً. فلمَ لا تمنحهم فرصة أخرى؟ هذا التصرف لا يسيء إليك يا فيشنو فحررهم من حياتهم التي فرضت عليهم».

لكنه لا يشهر سيفه، وبإمكاني رؤية مسحة من الشفقة تعلو ملامحه وتعمل على التأثير في أحكامه.

«هو واجبك المقدس، إنه الدهارما التي تتبعها وقانونك الأخلاقي كما ورد في أغني تعاليم البورانا المقدسة، أنْ تطهر هذه الأرض الظمأى من الهمجيين، فقد أهينت بما يكفي. أخمدْ نارها وارْوها. املأ أخاديدها القاحلة بالأحمر، وتقبل الدهارما التي يجب تنفيذها يا فيشنو العظيم، ليس هناك ما يجلب العار أكثر من إخفاقك في أداء واجبك المقدس».

أخيراً يشهر سيفه،

«هذه أرض تعاليم فيدا المقدسة، وهذا هو وطن نهر غانغا المقدس - طهّره لتعيده إلى عظمته السابقة. بكل فخر وفخر وفخر أيها الإله العظيم، قم بما يمليه عليك واجبك المقدس هذا اليوم».

يعرف في صميم قلبه أنني على حق ولهذا يفعل ما أشير عليه به. يلمع السيف في ضوء الشمس مرة ومرتين وأكثر، وأظل أرقب، في حين يرين الصمت على ساحة اللعب.

أحدق وراء الأكواخ ووراء الحقول نحو الخط الأزرق الذي يرسمه نهر الغانغا، ومن خلفه يمكنني رؤية السهول المنبسطة تمتد حتى تلتقي بالسماء، وأفكر بأن هذه هي أرض الأولين، وهذه هي ألوانها البنية والزرقاء والخضراء، أرى أمامي أرضاً تومض بطهارتها تحت الشمس، وحضارة تعاد من جديد لما كانت عليه من عظمة. أرى قرىً وبلداتٍ ومدناً يحافظ فيها على أداء الطقوس والعبادات، حيث يحترم الأولاد كبارهم، والزوجات أزواجهن، وحيث لا يتم التزاوج بين الطوائف، وحيث يتمسك الناس بالأخلاق والاستقامة والشرف. يتناهى إلى مسامعي من مكان بعيد ما مقاطع تتلى وتغنى من كتاب ريغ فيدا.

يجلس فيشنو على الأرض باكياً، وتلمع الشمس فوق سلاحه وشعره، فأتعذب لما هو عليه من بهاء طلعة، وأتساءل كيف يمكن لإله أن يبدو بهذا الضعف.

«انهض أيها المحارب العظيم»، أقول له دون أن أسمح لنفسي بإبداء أي عاطفة، « انهض، ودعنا نواصل مسيرنا».

الثاني عشر

رنّ جرس الباب، فنظرت السيدة جلال من خلال فتحة الرسائل للتأكد من أنها ليست السيدة آسراني مرة ثانية، وفوجئت لرؤية وجه السفائر وله يحاول استراق النظر إلى الداخل. ربما أمر أحمد بإحضار شيء ما، وربما صعد به البائع لتسليمه للبيت، ففتحت الباب.

كانت في حيرة مما شاهدته، فقد كان البان وله يقف بجانب السفائر وله، وإلى الخلف منهما المزيد من الناس، فتبينت أن أغلبهم من الشارع، وتمكنت من عد ما لا يقل عن دزينة من عصي الخيزران مع المجموعة، ترتفع نهاياتها الغليظة من حيث قطعت هذه العصي في الهواء بشكل واضح.

«لم جئتم هنا؟ » سألتهم محاولة المحافظة على هدوء صوتها.

«هل سليم بابا موجود؟ نريد الحديث معه»، قال السفائر وله.

«سافر لرؤية صديق له، وما الأمر الذي تريده بشأنه؟»

«لدينا بعض الأسئلة التي نريده أن يجيبنا عليها».

«ولم لا تسألني إياها؟ سأجيبك بما أعرف. هل هو مدين لك ببعض المال؟».

تقدم البان وله خطوة للأمام. «لا تتظاهري بالجهل فأنت تعرفين سبب مجيئنا، لا يمكنكم القيام بأعمال العصابات هذه في منزل شخص آخر ثم تتظاهرون بالبراءة.»

« أخبرينا أين خبأت ابنة آسراني.» صاح صوت من الخلف، وردت عليه المجموعة. «نعم أخبرينا».

رفع السفائر وله يده قائلاً، «ليست لدينا مشكلة معك يا جلال ممصاحب، وإن كان ابنك قد ذهب لزيارة صديق له فهل يمكننا الحديث إلى زوجك؟ بالتأكيد فهو لا يزور صديقاً له أيضاً؟»

« في الواقع هو غير موجود هنا أيضاً. ذهب لزيارة الطبيب لأنه يشعر بالمرض مؤخراً».

«كاذبة»، صرخ البان وله في أثناء قرعه للأرض بخيزرانته لتأكيد ما يقوله، لكن السفائر وله رفع يده من جديد.

«إن ذهب كما تقولين، فلن تمانعي في دخولنا المكان للبحث عنه، أليس كذلك؟ ربما عاد دون علمك».

عند هذا الحد سحبت السيدة جلال نفساً عميقاً: «منذ متى أصبحت كبيراً هكذا يا رومو؟» مخاطبة السفائر وله باسمه الأول. «أن تطلب الدخول وتفتيش بيتي؟ مع كل هذا الزمن الذي عاصرتُ فيه نموّك، لو أن أباك مازال حياً لشنق نفسه خجلاً من كلماتك التي تقولها».

جذبت ساريها من حولها بقوة. «قلت لكم فيما سبق إننا لا نعرف أين هي بنت الآسرانيين. وإن كنتم مهتمين بذلك فاذهبوا إليهم واسألوهم. اسألوهم أين خبؤوها. والآن اغربوا عن وجهي ولا تعودوا إلى هنا».

حاولت إغلاق الباب، لكن البان وله وضع عصاه بين الضفتين. «لن نذهب إلى أي مكان يا جلال ممصاحب حتى نتحدث مع زوجك أو مع ابنك. والآن أخرجيهما إلا إذا أردت أن ندخل ونجرهما للخارج بأنفسنا».

«اسحب خيزرانتك، اذهبوا فوراً، أو أتصل بالشرطة».

«تهددينا بالشرطة؟ هل تعتقدين أننا نخافهم؟» قال البان وله رغم سحبه لخيزرانته. ثم وكأنه يعوض عن تراجعه لوّح بها مهدداً.

تكلم السفائر وله مرة أخرى على الرغم من أن نبرته هذه المرة كانت رزينة للغاية. «انظري، لا أحد يريد العراك، وكل ما في الأمر أننا قلقون على كافيتا ممصاحب ونرغب في توجيه بعض الأسئلة إلى جلال صاحب، هذا كل ما في الأمر. ولا ضرورة للاتصال بالشرطة».

«من يرغب في توجيه بعض الأسئلة لا يطرق أبواب جيرانه بالخيزرانات. والآن أرجوكم المغادرة - فسبق وأن قلت بأن السيد جلال غير موجود هنا».

كانت على وشك إغلاق الباب عندما جاءها صوت السيد جلال من غرفة النوم: «من هم يا عريفة، وماذا يريدون؟»

مازالت صورة الحصان ترافق فيشنو. وبدأت تضميناتها الكاملة المتعلقة بكونه **كالكي**؛ التجسد الأخير، تتضحُ في ذهنه. مع كل هذه القوة التي يملكها وكل هؤلاء البشر المسؤول عن مصائرهم، فكيف يقرر من الذي ينهيه منهم ومن يبقي عليه؟ وجالت بخاطره صورة الهيكل الخارجي للمبنى المحترق.

على سبيل المثال، لعدة سنين كانت السيدة باتاك تلف الشاباتي القديم في ورقة صحيفة وتتركه على الأرضية بالقرب من رأسه. هل كانت تتصرف بنبل لتدرأ عنه الجوع؟ أم أن ما تقدمه عبارة عن خبز بائت لم تعد ترغب فيه، وهكذا يعتبر هذا التصرف إهانة وبالأخص للإله؟ ماذا يجب أن يكون مصيرها؟ ليس هذا بسؤال هيِّن حتى بالنسبة إلى كالكي.

ربما عليه تجريب قوته على شيء أصغر وأقل أهمية وبهذه الطريقة لن يتغير نظام العالم كثيراً إن ارتكب خطأ. لاحظ صفاً من النمل يتلوى على حافة الدرجة، هناك الكثير من النمل في البناية ولن يفقد بعضها الكثير إذا تم تحريرها من حياة النمال. بل قد يكون رفعها إلى مستوى حياة أرقى بمثابة نعمة عليها.

يسلطُ فيشنو مشيئته على الصف كي يجمِّده حيث هو، ويتخيلها وهي تلتف على نفسها واحدة تلو الأخرى، ثم يتصور أرواحها المحررة تطير نحو تكليفاتها الجديدة في الحياة التالية، ربما سيخلص البناية بأكملها من النمال.

لكن شيئاً لم يحدث وتستمر النمال في أعمالها غير عابئة بمجهوداته لتحريرها.

اشتعل غضباً، وحاول أن يدوسها كما رأى السيد باتاك يفعل لكنه نسي ألا وزن له.

عند ذلك فقط تسربت الفكرة إلى رأسه. ما الفائدة من كونه كالكي إن لم يكن قادراً على القضاء على مجرد نملة؟

عندما نادى السيد جلال من غرفة النوم، اغتنمت الفرصة وأغلقت الباب، بينما المجموعة مازالوا يقدّرون ردة فعلهم، ثم اتجهت على الفور نحو زوجها. «اطلب الشرطة بسرعة قبل أن يدخلوا».

«هراء. دعيني أتحدث إليهم».

«لا تكن مجنوناً يا أحمد، فهم مسلحون بعصي ويعلم الله بماذا يتسلحون أيضاً. إنهم متعطشون للدماء، وسيمزقونك إرباً».

كأنما يؤكد رأيها، أصدر جرس الباب في البداية عدة نغمات موسيقية قصيرة، ثم خليطاً من الأصوات كان من الجائز أن تكون خلفية تبعث على السرور لوْ أن الموقف كان مختلفاً.

«افتحي الباب يا سيدة جلال»، جاءها صوت السغائر وله مكتوماً عبر الباب، «ما نريده هو الحديث معه وليس أذيته».

«هل رأيتِ؟» قال لزوجته، « لديهم بعض الأسئلة فقط ـ وبإمكاني الذهاب لتسوية الأمر».

«إن لم ترغب في الاتصال بالشرطة سأتصل أنا ـ وسأفعل فوراً».

«سيبدو الأمر غاية في الحماقة إن جاءوا ووجدوني أتبادل الحديث معهم، ولكن افعلي ما بدا لك فأنا ذاهب لأفتح الباب».

«أحمد !» وأمسكت بذراعه «لا تفعل ذلك».

استدار إلى الخلف وأمسك زوجته بكلتا يديه: «أخبريني عما كان سيفعله بوذا في مثل هذا الموقف؟ وما الذي كان سيفعله أكبر؟ هل كانوا سيديرون ظهورهم ويفرون؟ هل سيكونون في حالة خوف شديد من مواجهة ما ينتظرهم؟» ثم هز رأسه، «كلا، كانوا سيمتنون للأمر. نعم سيكونون ممتنين لوجود هذا التجمع، وممتنين لأن عدداً كبيراً من الناس قد أرسلوا في طريقهم».

«أحمد، لا تبدأ هذا الموضوع من جديد فقد طرقناه من قبل. لستَ بوذا، ولست بنبي، وما شاهدته كان حلماً، هل تفهم؟ مجرد حلم».

«سمّه ما شئت يا عريفة، ولكن انظري كيف يبدو أن هناك معنى لكل شيء. كل ما حاولتُ القيام به في السابق، والآن يساق هؤلاء الناس إليّ ليسمعوا مني. بدأت الأمور تفور من الداخل وأخذت الخيوط تتجمع سوية. إنني أحسُّ بالمشاعر نفسها التي خبرها أكبر في الغابة في تلك السنين البعيدة».

«أنصت إلي يا أحمد»، وحاولت ألا تجعل الرعب يسيطر على نبرة صوتها: «اسمعني، وابق في هذه الغرفة، اقرأ أحد كتبك وابق هنا حتى مجيء الشرطة».

«خذي بيدي يا عريفة. كوني بجانبي لأنني أرغب في مقاسمة التجربة معك، وتعالي نواجه هؤلاء الناس، أنت وسليم.» وافتكت منه يدها بسرعة، «ناد على سليم، ودعونا

نشبك أيدينا ببعض، هنا في هذه الغرفة، لنركز ونحاول أن نرى».

«نعم يا أحمد، سأنادي على سليم». وقادت زوجها ممسكة بيده نحو الكرسي ثم أجلسته عليه.

بدا مستغرقاً في التفكير للحظة ثم قرع الجرس من جديد فقفز من كرسيه. «كلا، لا يمكنني تركهم في الانتظار فربما سينفضون عني. دعيني أجيب الباب فهذه فرصة عظيمة، وبإمكاننا أنا وأنت وسليم أن نتحدث لاحقاً».

«أحمد»، صاحت فيه زوجته: «لا تذهب. وإذا لم يكن من أجلك فعلى الأقل من أجلي. إن فتحت هذا الباب سيحدث شيء مريع».

«لا تكوني ساذجة يا عريفة فلن يحدث شيء». وربت على يدها كأنما يطمئنُ طفلاً. «تعرفين وجوب حديثي معهم فقد جاؤوا إلى هذا المكان ليفهم الاضطراب وأنا الوحيد الذي يعرف بأمر فيشنو. بإمكاني أن أخبرهم عنه، وفكري في فائدة ذلك، أن تطلقي سراح عقل شخص ما».

«توقف يا أحمد توقف، إكراماً لله، دع قليلاً من خشيته لديك. لا تفتح هذا الباب ولا تتخلّ عن يدي، وابق إلى جانبي فقط». وانخرطت في البكاء.

«هيا اذهبي ونادي سليم، وبإمكانكما أيضاً الإنصات إلى ما سأقوله».

وقبل أن تتمكن من إبداء المزيد من الاحتجاج، توجه نحو الباب وفتحه.

لم يكن فيشنو مرتاحاً لغياب قواه وظل لغز النمل مسيطراً على فكره. ماذا لو أنه ليس إلهاً أصلاً؟ وكان يذكّر نفسه مرة بعد الأخرى بدلائل ألوهيته فيتحرك في الفراغ فوق الدرج، وينظر خلال الجدران وكأنها زجاج. من المؤكد أنه لا يمكن لغير الآلهة القيام بمثل هذا الأمر.

لكن هل من الجائز أنه أضاع الكثير من قوته على مثل هذه الأفعال؟ وأنه استنزفها قبل أن يتشربها بالكامل؟ هل يجب العودة لتسلق الدرج من جديد كما يفعل بني البشر؟

يجب عليه الصعود فهو على يقين أن الجواب ينتظره في القمّة. إنه لا يعرف تماماً ما سيجده هناك، فربما سيجد الحصان الأبيض الذي سينطلق به إلى مكان ما، أو ربما لاكشمي التي ستمنحه الطاقة التي يحتاجها منها. وربما سيجد كريشنا الذي سينعشه بنغمات قيثارته. لم يعد هناك الكثير ليقطعه ـ وسرعان ما سيحصل على قوة كالكي لقتل النمال.

بإمكانه سماع هياج في الأسفل. إنهم الرعاع الواقفون بباب السيد جلال، ويقدر فيشنو أنه ليس بحاجة لأن يشغل نفسه بالأمر أكثر مما فعل، فيرفع نفسه إلى البسطة بين الطابقين الثاني والثالث.

ينظر إلى المكان. هذه هي بسطة ثانولال، الذي يقولون إنّ بإمكانه الاستمرار في النوم لأيام متواصلة. في الحقيقة فهو الآن ملتف حول نفسه فوق فراشه مطلقاً الشخير، وعندما لا يكون نائماً يقف ثانولال عند شجرة التين الضخمة في فناء الكنيسة يمضغ البان. لم يره أحد يعمل قط ولا يعرف أحد من أين يأتي بالمال، وكل ما يعرفه الناس عنه هي القصة حول تعرّض جبينه ذات يوم للمسة من أصابع الآلهة.

يقول السفائر وله إن الأمر حدث عندما كان مايزال لثانولال زوجة وابنة، ويسكن كوخاً في حي جاتكوبار الفقير. فقد أفاق من نومه ذات يوم ليجد جبينه مغطى بالرماد. «إنها معجزة»، أعلنت زوجته جامونا باي، وهي تحضر له مرآة. «إنها مطابقة لصور ساي بابا».

ما إن غادر الكوخ حتى كانت الأخبار قد انتشرت وتجمع الناس أمام باب كوخه، فجلس ثانولال مصالباً رجليه على سريره الخفيف المصنوع من الحبال، ثم أدار وجهه نحو جمهوره. على جبهته وخديه ورقبته وحتى ذراعيه كان يوجد الرماد ـ بقع طباشيرية

ظاهرة على جلده، تبدو مثل الكويمات الصغيرة التي تتركها الحشرات وراءها عندما تحفر في الخشب. وبينما ينظر الناس، أخذ حجم الرماد فوق حاجبيه يزداد ثم يسقط على الأرض في كتل صغيرة، حيث يظهر شكله الترابي الأبيض على خلفية التربة القاتمة.

ترك أحد المشاهدين المجموعة وتقدم نحو السرير، ثم لمس الرماد على الأرض بأصابعه وفرك به جبينه وتراجع نحو الجمع. همّ آخر بالقيام بالشيء نفسه عندما اندفعت نحوه جامونا باي. «ابق بعيداً، هل تسمعني؟ ولا تقرب هذا الرماد. هل تظن أنه يقوم بهذا الشيء من أجلكم لكي تأتوا هنا وتسرقونا هكذا؟».

ثم أوعزت جامونا باي لابنتها فاسانتي لتمسك بسفرة تحت وجه أبيها، وبكل عناية جمعت الرماد في السفرة. «لا أريده أن يطير بعيداً، أو يقع على الأرض فالصحيفة وله، في طريقه إلينا ـ ويرغب في رؤيته».

على كل، ما إن حضر مراسل صحيفة لوكساتا، حتى كان ثانولال قد توقف عن إنتاج الرماد. ففي معرض حماسها الشديد لحفظ الرماد، قامت جامونا باي بكشط الكثير منه على السفرة، وأمر المراسل الذي كان خائب الأمل مصوّره بالتقاط صورة واحدة فقط.

«تعال في الغد»، قالت جامونا باي، «فسينتج المزيد من الرماد وسيكون طازجاً من أجلك، فهذا الأمر سيحدث كل يوم».

في اليوم التالي تجمع عدد أكبر من الناس لمشاهدة المعجزة. وفي الساعة العاشرة خرج ثانولال من كوخه، وغسلت له زوجته وابنته قدميه في سفرة كبيرة، وأعلنت جامونا باي أن على من أحضروا قرابين الزهور وجوز الهند وضعها في وعاء ثان عند قدم فراشه. ثم أخذوا في انتظار حضور مراسل الصحيفة، وعندما حلت الساعة الحادية عشرة ولم يحضر، طلبت من الجميع التزام الصمت، فإنتاج الرماد سيبدأ في جميع الأحوال.

أغلق ثانولال عينيه وركز تفكيره، لكن شيئاً لم يحدث وظل جلده نظيفاً دون رماد، فسرت همسات بين الجمع وارتفعت حدتها، في حين كانت جبهته تتغضن وتسودُّ أشداقه بسبب ما يبذله من جهد. في النهاية انهمرت دموعه وركض داخل الكوخ.

لعديد من الصباحات بعد ذلك صار ثانولال يجلس على سريره في الخارج محاولاً إنتاج الرماد، وكانت الجموع تأتي لمشاهدته في البداية، ثم أصبحت لا تتعدى مجموعة أطفال يوجدون خارج الكوخ. وفي محاولة منها لجذب الناس أخرجت جامونا باي سفرة الرماد التي احتفظت بها، وسمحت للمشاهدين بتعليم جباههم بقدر طرف إصبع واحد فقط. وذات يوم عندما لم يتمكن من إخراج الرماد من جديد، أخذ ثانولال السفرة من يدها وضربها بها حتى أغمي عليها.

يقول السفائر وله، إن ثانولال قتل زوجته في الحقيقة، وإنه أمضى سنوات طويلة في السجن. لكن وفقاً لرواية البان وله، فبمجرد ضربه لجامونا باي، بدأت هي في إنتاج الرماد وأصبحت غنية جداً بعد أن أقامت معبداً خاصاً بها. ولا يعرف فيشنو أي الروايتين يصدق، إن لم يصدق الاثنتين.

يحس بالرغبة لإيقاظ ثانولال الآن ليطلب منه أن يحدثه عن (الإله ومسألة الرماد)، وعن النظر عبر الجدران، والمقدرة على قتل النمل. انهض يا ثانولال، يقول فيشنو لكن الرجل لا يبدي حراكاً.

انهض، انهض أنا فيشنو ولدي أسئلة لك. ويستمر ثانولال في نومه.

يتوجه إليه لهزّه، لكنه لا يتمكن من ذلك بالطبع لأنه فقد حاسة اللمس. وينقلب ثانولال على جنبه مستمراً في نومه، وهنا يلاحظ فيشنو طابوراً جديداً من النمل على الحائط في الخلف، مما يزيد في عذابه.

راودته الأسئلة من جديد لتمعن في تعذيبه. كيف يمكنه أن يكون إلهاً إن لم تكن لديه القوة؟ هل من الجائز أنه ليس إلا مجرد رجل؛ ذلك الرجل الذي كانه طوال حياته؟ وإن لم يكن ما يراه الآن هي دلائل الألوهية، وإن لم يكن هذا هو الخلود، فما عساها تكون إذاً؟.

يقول فيشنو لنفسه إن هذا ليس وقت التفكير في الأجوبة، فمهمته الآن هي الاستمرار في الصعود وعدم النكوص، حتى يصل إلى القمة.

الثالث عشر

عندما أُبلِغ فينود في البداية بمدى خطورة مرض شيتال كان الأمر مدمراً له، وليس ذلك لما ستعنيه هذه الأخبار لشيتال، ولكن له أيضاً. فالمستقبل الذي رسمه في ذهنه خلال السنوات القليلة الماضية بكل جهد ومثابرة سيُدمر لا محالة، لأن الشخص الذي بناه حوله سيُنتزع منه. جلس في صالة انتظار المستشفى وأحس بالاستياء ينمو تحت ما يشعر به من أسى - لماذا يعامله القدر بهذا الظلم؟ ووجد أفكاره تسرح به بعيداً حول ما يمكن أن تكون عليه حياته لو أن والديه زوّجاه من فتاة غيرها.

ما إن بدأ يرعى شيتال في البيت حتى أخذت مرحلة الصدمة الأولى تخف. ومع مرور الأيام اكتشف أن باستطاعته النظر في أعماق شيتال كما لم يفعل من قبل، وأن يلقي نظرة على روحها ذاتها ويرى الصلابة التي كانت ترفعُ من معنويات الآخرين حتى وهي تذوي بعيداً. كانت تقول: «عندما أتعافى أريد الذهاب إلى كشمير». أو «سنذهب إلى نيبال لنقضي شهر عسل ثانٍ». كان الأمر يتعلق دائماً بمكان في الشمال، ومكان ما بارد؛ مكان يبعد كثيراً عن بومباي حيث تعرف أنها ستقضي أيامها الأخيرة.

في الشهر الذي رحلت فيه أحس فينود بأن حبه لزوجته أصبح من القوة بحيث إن جانباً منه وربما كله سيموت معها، وتساءل إن كان لايزال يرغب في الحياة بعدها. ماذا لو قرر أنه لا يرغب في الاستمرار بالحياة؟ كيف سيقتل نفسه؟ بدأ في الاستيلاء على بعض أقراص النوم التي وصفها الطبيب لها، وصار يأخذ واحداً أو اثنين منها في كل مرة، ويضعها في قنينة صغيرة معتمة يحتفظ بها في درج طاولة الزينة.

قبل موتها بأيام رأته يأخذ واحداً من أقراصها. «أعلمُ ما تنوي فعله»، همست وعيونها نصف مغمضة: «لم يحن دورك بعد، فانتظر حتى يأتي دورك»، ثم سقطت نائمة.

في ذلك المساء رمى الأقراص في دورة المياه، وتوجه إلى الصخور عند شاطئ بريتش، فطوح بالزجاجة البنية الفارغة في البحر. وخلال الأيام التي أعقبت وفاتها عاوده الندم على قراره لكنه لم يحاول الارتداد عنه. كان أمرُ شيتال له آخر ما سمعه منها، وسيطيعه.

حاولت أمه تزويجه عدداً من المرات، لكنه أغلق الباب أمام هذا الاحتمال، وشعر بأنه جرّب ما يمكن أن يُجرَّب بين زوج وزوجته، وأنه قد تقاسم جانباً من نفسه مع شخص ثان بطريقة أعمق بكثير من أن يصبح في الإمكان تكرارها، وأن هناك سبباً جلبه القدر من أجله لهذا الموقف، وستكون مهمة القدر أن يقوده إلى مكان غيره.

لأنه ليس لديه ما يفعله، أغرق نفسه في عمله وترقى خلال الخمس عشرة سنة التالية إلى منصب مدير، ثم إلى مراقب عام. ودفع والده ثمن الشقة؛ وبالاحتياجات البسيطة لحياة العزوبة التي يعيشها لم يكن بحاجة إلى الكثير، ثم توفي والداه واحداً بعد الآخر، وتركا له بيتهما القديم الذي أصبح له قيمة مالية كبيرة هذه الأيام. وفي سن الخامسة والأربعين وجد نفسه يملك ثروة تكفي ليعيش عليها ما تبقى من حياته.

*

في البداية مكث في البيت، وأحس بالراحة لتوقفه عن التظاهر بالاهتمام كثيراً بأداء عمله، وأن وظيفته كانت أكثر من نشاط يملأ به يومه. كان رفاقه في المصرف يتصلون به في البداية، لكن سرعان ما توقف جرس الهاتف عن الرنين. وأخذ يمضي أغلب أيامه في السرير لا يغادره إلا لتناول الطعام أو تشغيل المسجل.

بدأ يفكر فيما سيحدث لو أنه ظل في شقته لا يغادرها؟ ويأكل كميات أقل في كل مرة في انتظار نهايته؟ من سيعثر على جثته وكم سيستغرق ذلك؟ ربما ستكون غاناغ الطويلة ـ فهي مازالت تعرِّج عليه أحياناً وتسأله إن كان في حاجة إلى شيء ما. وتساءل إن كان هذا ما قدّر له ـ أو إذا كان قد تعب من السير في الطريق التي هي حياته، فسيقرر طالعه بكل بساطة أن يغلق تلك الطريق.

فوجئ بإحساسه بالذنب تجاه هذه الأفكار، كما فاجأه الإحساس بالذنب نحو حالة الكسل التي سمح لنفسه بأن يقع تحت سيطرتها. ففي كل ما يحيط به هناك تنبيهات له بما يدور من نشاط ـ طرقُ غاناغ الطويلة على بابه، ورائحة القطران تنفذ إليه من الشارع الذي يعاد رصفه في الخارج، ونداءات بائعي الخضار، ثم غبار المرور وجلبته. فمن أعطاه الحق للتوقف وتسليم وجوده لمثل هذا الانغماس الذاتي في التأملات؟

من ناحية أخرى ماذا تبقى لديه ليسعى في أثره؟ ما الهدف الذي يمكن أن يستحضره في ذهنه ليجعل ما تبقى من حياته مشروعاً؟ ربما يجب عليه البحث عن الإجابة من خارج كيانه ـ مثل الانغماس في قضية ما تكون عظيمة ونبيلة، يمكنه من خلالها اكتشاف معنى الأشياء من جديد. لم يفكر من قبل في نفسه قط كشخص محب لغيره، يعمل لصالح القضايا الاجتماعية، لكن الفكرة بدأت تسيطر على كيانه. من المؤكد أن مدينة مثل بومباي تكثر فيها الاحتياجات التي لم تحقق بعد وتنتظر أن تسبغ السعادة على الشخص الذي سيملأ هذه الاحتياجات. اتصل بالسيد وزير وهو محسنٌ قديم وصديق لوالده، وبناءً على توصية السيد وزير دُعي فينود للاشتراك في لجنة إدارة المؤسسة الاجتماعية لبومباي الكبرى.

شعار هذه المؤسسة كان: «بتكاتف أيدينا سنرفع مستوى حياة الأحياء الفقيرة»، وتبينَ له أن الاجتماع الأول تحول إلى زيارة ميدانية إلى ضاحية دهارافي الفقيرة، حيث يُنفذ منذ عدة سنوات مشروع لتحسين مستوى إمدادات المياه. وقدمت للعديد من السكان صنابير مياه نحاسية لماعة، ووعدهم مدير المؤسسة السيد كايلاش بإلحاقها بالأنابيب لربطها إليها. طاف أطفال الحي بأعضاء اللجنة، وألبسوا كلاً منهم (وفينود أيضاً) طوقاً من الزهور وبعد ذلك تحولت اللجنة إلى الحافلة لتناول المرطبات.

«توجد البيرة داخل علبة البراد في مؤخرة الحافلة»، شرح له السيد كايلاش عندما كان فينود حائراً في الاختيار بين مشروب ليمكا، أو غولد سبوت، «ولا يمكننا تناولها في العلن بسبب مشروع مكافحة الإدمان الذي ندعمه هنا»، ثم قدّم فينود إلى بقية الأعضاء وأغلبهم من الصناعيين، ولم يبدُ على الكثير منهم الدهشة عندما أعلن فينود بأنه مدير مصرف سابق.

«ولكن هذا هو السبب الذي من أجله رشحك لنا السيد وزير»، قال السيد كايلاش وهو يصب لنفسه بيرة كنغ فيشر، «فنحن بحاجة لشخص يمكننا الوثوق به لأن جميع هؤلاء المقاولين الملاعين لصوص يستحقون الضرب المبرح».

بدا طبيعياً أن يتطوع فينود لمهمة التعامل مع المقاولين، فخلال فترة عمله بالمصرف اكتسب خبرة في كشف التجاوزات وأمكنه معرفة ألاعيبهم ووضع حداً لها. لكن عمل المصرف لم يشبعه بما يكفي فقد كان متلهفاً للقيام بالمزيد. ولتجربة ما يتيحه العمل الفعلي من شعور بالرضا، وأن يبعد نفسه قدر الإمكان عن جو الكسل الذي اكتسبه خلال الشهر الذي قضاه بأكمله في البيت. بدأ يمضي أيامه في موقع العمل، شاغلاً نفسه بأعمال الجرد وكتابة الصكوك، يقدم المساعدة حيث هناك حاجة لها، ويساعد حتى بتركيب المواسير في بعض الأحيان. ليلة بعد الأخرى صار يعود إلى بيته منهكاً ويضع قدر الماء على النار ليستحم به. وفي أثناء غسل الأوساخ عن جسمه ومشاهدتها تختفي في دوامة البالوعة يحاول التفكير في اليوم الذي ستنساب فيه المياه لسكان دهارافي بالسهولة نفسها.

إحدى النساء في اللجنة كانت السيدة بهاغواتي التي أخذت مكان زوجها بعد أن توفي فجأة بالسكتة القلبية. وعندما تلطفت حرارة الجو بعض الشيء بدأت تصحب فينود إلى دهارافي مرة في الأسبوع، وأحس هو بالسعادة لوجود شخص يساعده في التعامل مع المقاولين الذين أخذ استياؤهم من وجوده يزداد في الآونة الأخيرة، وكانوا يفتعلون الإبطاء في إنجاز العمل بقصد إحراجه. لكن السيدة بهاغواتي بما تركه لها زوجها من ثروة تزيل العقبات كافة، نجحت في حل الإشكال وتسيير الأعمال من جديد.

بعد شهور من اهتمامها المكثف بأحوال ساكني الأكواخ، دعت السيدة بهاغواتي فينود وبقية أعضاء اللجنة إلى حفل أقامته في بيتها. وفي هذا الوقت أيقن الجميع بأن فينود هو الشخص الذي سيغير طبيعة مشروع دهارافي، حتى إن السيد كايلاش اقترح شرب نخب «السيد مدير المصرف»، وأبدى فينود رقة تجاه بقية الضيوف وتجاه أحاديثهم عن المصانع واتحادات العمال. لكن مائدة الطعام هي التي سيطرت على اهتمامه، فقد مرت سنوات لم يتناول فيها طعاماً بتلك الجودة، وعندما حمل الخدم الوجبة الرئيسية من الأسماك المحشوة سرعان ما استأذنهم وتوجه إلى المائدة.

«إنها محشوة بخلطة أرز الباسمتي مع الكاشو»، قالت بهاغواتي من خلفه، حين كان فينود يضع في طبقه بعضاً من الخليط الذي يتناثر من جوف السمكة، «كان لدي إحساس أنك ربما ستحب هذه الأكلة».

في نهاية الحفل سألت فينود إن كان لا يمانع في البقاء بعد مغادرة الضيوف، لأنها أرادت طرح بعض الأسئلة حول زيارة الأسبوع القادم، وهكذا ظل في غرفة التلفزيون أثناء توديعها لضيوفها، وأدار له أحد الخدم الفيديو ليعرض الفيلم الجديد روميو في بومباي.

لم يشاهد أي فيلم منذ حضوره جيفان لسنين طويلة خلت، ووجد أن هذا الفيلم ممتع لاشتراك كل من رتشما وأميتاب في بطولته، وهما اللذان سمع عنهما ولم تتح له فرصة مشاهدتهما. وبعد مرور نصف ساعة على بدء الفيلم حضرت بهاغواتي إلى غرفة التلفزيون ولاحظ أنها غيرت ملابسها وارتدت قميص سلوار الذي يعد أقل رسمية بكثير من الساري الذي ترتديه دائماً، وفوجئ للدرجة التي يلتصق بها القميص إلى جسدها، مبيناً تقاطيعه، ومبرزا صدرها الذي حاول ألا ينظر إليه.

«هل ترغب في كأس من ويسكي بلاك ليبل؟ لقد اشتريته بنفسي من سوق سنغافورة الحرة»، ورفض فينود عرضها بأدب.

«هل نبدأ الآن في مناقشة موضوع الزيارة؟» واضطر لبذل مجهود لترك الفيلم الذي فوجئ بأنه شد انتباهه، فقد اختطفت رتشما من قبل شاتروجان سينها؛ الشرير الذي لم يره فينود من قبل أيضاً، وكان البطل على وشك اقتحام المكان الذي تُحتجَز فيه.

«لنذهب إلى الغرفة الثانية». قالت، فتبعها على مضض.

تبين له أن الغرفة الثانية هي غرفة النوم، وفجأة خطر له أن الأسئلة التي تود السيدة بهاغواتي طرحها قد لا تتعلق بساكني الحي الفقير وانتابه شعور بعدم الارتياح. ولأنها كانت زوجة رجل صناعة فقد التقطت حالة اضطرابه على الفور.

«سأدخل في الموضوع مباشرة يا فينود ـ وهو الأمر الذي علمني إياه زوجي. من الصعب أن ننظر إلى الخمس وعشرين أو إلى الثلاثين أو مهما يكن عدد السنين التي تبقت لنا لنعيشها، من الصعب النظر إليها ولا نرى إلا العزلة. ومن الجائز أن القدر قد قرر أن ننام على فراش خاو ليلة بعد الأخرى، لكن ليس علينا الانصياع لإملاءات القدر».

تمنى لو أنه تناول قدراً أقل من سمك السيدة بهاغواتي. فبشكل ما وعلى الرغم من كل تلك الزيارات إلى رافقته فيها إلى المشروع لم يتخيل إمكانية حدوث هذا الأمر. وبالمقابل رأى أنها سذاجة منه كي يعتقد أنها تتمتع بالذهاب إلى الأحياء الفقيرة، في حين تملك مثل غرفة النوم الجميلة هذه ويتوافر لها كل الممثلين الجدد لمشاهدتهم بمجرد الضغط على زر التلفزيون.

«هذا هو عرضي لك يا فينود. رأيتك خلال اجتماعات اللجنة وعملت معك جنباً إلى جنب في وسط القذارة والأمراض في منطقة دهارافي، وأعرف أنك إنسان مستقيم وأنك ترغب في تحسين مستوى معيشة الأحياء الفقيرة».

حاول فينود، لكنه لم يستطع تذكر عمله في وسط الأوساخ والمرض مع السيدة بهاغواتي، أما عن باقي حديثها فربما تضمن الحقيقة على الرغم من أنه صار يتساءل في الآونة الأخيرة إن كانت دوافعه هو تخلو من الأنانية تماماً.

«تزوجني يا فينود وسيسعد كل منا الآخر. ستكون كل ثروتي تحت تصرفك لتنفقها على أي أحياء فقيرة ترغب في تحسين مستواها، وهي ليست ثروة بسيطة يا فينود ـ فمعاً بإمكاننا تنظيف كل القذارة بأيدينا الأربع، وأن ننظف مدينة بومباي بأسرها».

تخيل السيدة بهاغواتي مغطاة بالقذارة والعرق، تحفر القنوات والمجاري في أنحاء المدينة، ثم وهي تجلب الماء لحشود القاطنين وتنظف خزانات المجاري في بيوتهم. نظر إليها تقف أمامه في قميصها الضيق وقد حلت شعرها من تسريحته المعتادة، ولم يقطع الصمت سوى غناء رتشما الذي يصل إليهما خافتاً من الغرفة المجاورة. لم تكن السيدة بهاغواتي تخلو من جاذبية، ولم يقترب هو من امرأة لفترة طويلة.

توجه نحوها وطبع قبلة على خدها فصدر عن حنجرتها صوت خفيف وأغلقت عينيها. نظر إلى فمها ولاحظ أن أحمر الشفاه قد جعل شفتيها تبدوان أكثر رطوبة، وكانتا منفرجتين قليلاً ومن خلالهما أمكنه رؤية لمعان قاطعيها الأماميين.

كان على وشك تقبيل فمها عندما لاحظ طاولة زينتها من خلفها. كانت مغطاة بالقناني والقوارير، ولها مرآة كبيرة ملتصقة بها مثل التي كانت لشيتال. تذكر الفتحات التي كانت تضع فيها أحمر الشفاه وأدراج مواد الزينة والمجوهرات، ثم المكان الذي خبأ فيه زجاجة الأقراص المنومة في الجزء السفلي. كم مضى من الوقت منذ أن حمل الزجاجة إلى بريتش كاندي؟ غطست في الماء لبعض الوقت وكادت تتهشم فوق صخرة، لكن مباشرة بعد ذلك حملتها موجة مرتدة إلى البحر. وتساءل إن كان البحر قد قذفها مرة أخرى، ربما عند شاطئ شاوباتي، أو جوهو، حيث يُحتمل أن أحد الصبية الفقراء عثر عليها ووضعها في زكيبته المملوءة بالزجاج ليبيعها إلى أحد تجار الخردة.

تساءل إن كان قد فعل الشيء الصحيح في ذلك اليوم، وهل كانت حياته تستحق أن يعيشها منذ ذلك التاريخ؟ فكر في هذا الأمر وهو في طريق عودته مشيا كل المسافة من كولابا حيث تقطن السيدة بهاغواتي. ودّعها على عجل تاركاً إياها تقف في غرفة نومها الملاصقة لغرفة التلفزيون حيث مازال يعرض فيلم أميتاب باتشان، ورتشما، ثم مرّ عبر البوابة ونظر إلى القوارب التي تبدو له من بعيد وأضواؤها مثل مصابيح كيروسين تطفو فوق المياه الهادئة والقاتمة.

سلك الطريق الأبعد إلى بيته، ماراً بسينما ريغال، وناريمان بوينت، نزولاً إلى طريق البحرية ثم شاطئ شاوباتي مبتعداً عن حد المياه قدر الإمكان. كان يبحث عن النوارس التي ماتزال تطير في هذا الوقت، وتساءل إن كانت الأسماك مازالت تسبح في الماء. ثمّ توقف لبعض الوقت عند زاوية كيمب ونظر إلى لوحة إعلان الخطوط الهندية. كان مهراجا الخطوط الهندية يعلن عن رحلات إلى مدينة نيويورك حيث يقول الإعلان، «العم شيام يريدك!» وكان المهراجا يعتمر قبعة عليها النجوم والأشرطة ويشير إلى المارة بإصبعه. فتساءل لبعض الوقت إن كان يجب أن يجدّ في السير إلى أن يصل إلى المطار

في سانتا كروز، ويستقل طائرة من هناك إلى الولايات المتحدة. يترك اللجنة والسيدة بهاغواتي، ويترك تلك الأحياء البائسة حيث هي، ويذهب مبتعداً عن هذه الحياة. ثم تذكر أنه لا يملك جواز سفر أو تأشيرة أو أي نقود معه لشراء تذكرة. نظر من جديد إلى اللمعان في عيني المهراجا والتعبير الذي تقول من خلاله أنه لن يقبل الجواب بلا، وجال بخاطره ذلك البحر من خلف بنايته، والماء الذي يمتد حتى خط الأفق، والأراضي، والبلدان، والقارات التي تقع خلفها، وفوق كل ذلك السماء بعوالمها التي لم تكتشف بعد، وشمسها وكواكبها وأقمارها، ومجراتها اللامتناهية. واستمر يحث الخطى في طريقه إلى بيته.

*

يقف فيشنو أمام باب تانيغا. لقد فحص الدرج بكامله، ونظر في كل شق وفجوة باحثاً عن النمل. فأحس بالسعادة لأنه لم يعثر على أي منها، ولأنها لم تصعد إلى هذا الارتفاع. إنه سعيد لارتفاعه فوقها جميعاً.

تساءل من كان يقوم على قضاء حاجات السيد تانيغا عندما ألمّ به المرض؛ من كان يشتري معجون الأسنان الذي يفضله ويشتري البسكويت الذي يتناوله مع الشاي؟

وتذكر المرّة الأولى التي قام فيها بمهمة الشراء للسيد تانيغا، وكانت من أجل ابتياع قطعة صابون ومجموعة من أمواس الحلاقة، وقام فيشنو بإضافة نصف روبية على السعر. توقع أن يتم سؤاله لكن الرجل أعطاه الثمن الذي طلبه، وسرعان ما كان يزيد المبلغ إلى روبيتين أو ثلاثاً في كل مرة، ومع ذلك لم يقل السيد تانيغا شيئاً.

ثم حدث ما لم يكن متوقعاً، وأصبح يراوده إحساس بالذنب فحاول إقناع نفسه بأن السيد تانيغا يملك ما يكفي من المال وأن خسارته بضع روبيات لن تضيره في شيء، أو أنه قد تفطن للأمر وسيقوم بدفع الأسعار المضخمة عن علم. لكن هذا الإحساس ظل ملازماً له واضطر إلى تخفيض السعر الإضافي في البداية إلى روبية واحدة، ثم تحوّل إلى نصفها فقط، وهو ما لم يقض على إحساسه بالذنب تماماً لكنه قلل منه إلى مستوى مناسب.

الآن يشعر بالخجل مما فعله. بالأخص أن يقوم إلـه بمثل هذه التصرفات حتى ولو أنها حدثت في أثناء مرحلته الإنسانية التي يمكن الصفح عنها. ربما سيهبط للاعتذار من السيد تانيفا، بالتأكيد فهو شخص سيعمل كالكي على إنقاذه.

لم يبق له إلا الجزء الأخير من السلالم قبل أن يصل إلى السطح، ويخطو فيشنو على الدرجة الأولى.

التزمت المجموعة الصمت في حين كان السيد جلال يقف عند الباب، وتقف زوجته من خلفه تستعد لسحبه إلى الداخل إذا حدثت أي مشاكل. تساءلت إن كانت تستطيع تركه وحده عدة دقائق لتتصل بالشرطة، ولسوء الحظ كان جهاز الهاتف في الصالة على مرأى من الباب الخارجي وتخاف أن يحاول أحد منعها إن هي حاولت الاتصال.

أمعنت النظر في وجوه المتجمعين، فهي الوجوه نفسها التي ظلت تراها لسنين عديدة، ومع ذلك فهي تبدو مختلفة الآن. والعيون بالذات ـ فطوال تلك السنين كانت تنظر فيها، ولا ترى إلا الطيبة، من أين أتت كل هذه القسوة، ومتى امتلأت هكذا بكل هذا الازدراء؟ هل وجود كل هذه القسوة بصورة دائمة متخفية وراء كل تلك التحايا من مثل «نماستي ممصاحب»، وهي تراقب في أثناء ذلك، وتنمو حتى تتاح فرصة مثل هذه؟ كيف يمكنها النظر إلى هؤلاء القوم مرة أخرى، وكيف يمكن أن تمر من أمام محلاتهم دون أن تسري رعشة في أوصالها؟

لبعض الوقت لم يقل أحد شيئاً، إذ لم يتوقع كل من السفائر وله، أو البان وله أن يواجها السيد جلال شخصياً، ولم يكونا مستعدين لاستجوابه. حملقا في بعضهما، ثم في الأرض وهما يحركان أقدامهما ويتمنيان لو كانا في مؤخرة المجموعة. في نهاية المطاف سأل الكهربائي: «أين بنت عائلة آسراني؟».

«لا علم لي»، ثم تغضن حاجباه: «لم أرها منذ زمن طويل».

«ما الذي فعله ابنك بها؟» سأل البان وله بعد استعادته لصوته.

«ماذا فعلتم بها؟» صاح السفائر وله بصوت أكثر علوّاً، كان البان وله قد أطلق سراح صمته.

«ابني الآن في زيارة صديق له، وعندما يعود سأسأله، وقد قلت لتوّي إنني لم أر الآنسة آسراني لفترة طويلة».

«كاذب»، صاح شخص من خلف السفائر وله. «ما الذي كنت تفعله إذاً بوشاحها الذي يغطي وجهك؟».

«نعم كيف ترك الوشاح كتفيها ووجد طريقه نحو رأسك؟» أضاف السفائر وله في محاولة منه لمنع أي شخص من سلب قيادته منه.

«هذا ما أتيتُ لأحدثكم عنه»، قال السيد جلال، وعند ذلك انطلقت همهمة بين الحاضرين سببتها المفاجأة. «أمضيتُ ليلة البارحة نائماً فوق البسطة مع فيشنو». انطلقت المزيد من الهمهمات، ووضعت السيدة جلال ساريها على وجهها في قلق. «كان الوشاح يغطيه عندما وصلتُ إليه ولست أدري كيف جاء إلى هناك».

جال ببصره في الجمع، وكان كل من السفائر وله، والبان وله، والكهربائي يحدقون فيه بتركيز شديد. كم كان القدَر سريعاً في جلب مستمعيه هؤلاء، وبالتأكيد ليست هذه إلا كرامة أخرى تحضه على أداء الدور الذي اختير له. وسيستغل المناسبة كأحسن ما يكون - سيحاول كسب تأييد جميع الحاضرين بأن يقول لهم موعظته الأولى.

« كانت تلك رحلة طويلة وصعبة بالنسبة إلي، وليلة البارحة أوصلني بحثي إلى فيشنو».

أخبرهم بقصته. «كانت ثمرة جوز في هذا الحجم»، قال مندهشاً، ضاماً قبضتيه في وجه كل من السفائر وله، والبان وله. «في جبهتي تماماً» كوّر قبضته وخبطها في رأسه، ولاحظ برضاً الطريقة التي اتسعت بها عيونهم. «وهذا ما مكنني من رؤية الأمور».

أعاد سرد الرؤيا عليهم: «تخيلوا جسماً بعدد هائل من الأذرع، بمقدور كل واحدة منها أن تقتلعك من مكان وقوفك. تخيلوا مخلوقاً بعدد هائل من الأفواه بإمكانها سحقك بين فكوكها». أخذ السفائر وله خطوة للوراء عندما كشر السيد جلال ولوح بذراعيه في الهواء. «كانت خياشيمه تنفث دخاناً، واللهب يخرج مع كل نفس».

سيطر على انتباههم ـ وكانوا متعلقين بكل كلمة تصدر عنه، حتى إن بعضهم وضعوا عصيهم أرضاً وجلسوا القرفصاء على أكفالهم مستغرقين فيما يقول. لماذا لم يتبين هذه الموهبة لديه من قبل؟ هذه القوة في الإقناع والمقدرة على السيطرة على السامعين؟ وبينما كان مستمراً في الحديث، أخذ عدد الحاضرين يتضاعف أمام عينيه حتى صار يزحم أسفل الدرج، وعبر الشوارع حتى مسجد حاجي علي.

«وأنا مقتنع، بل على قناعة تامة إنه لا يوجد إلا تصرف واحد يمكنه إنقاذنا ـ وهو أن نتبع التوجيهات التي طلب مني فيشنو إبلاغكم بها. أفيقوا واعترفوا به قبل فوات الأوان».

أنهى السيد جلال حديثه بتباهٍ، وابتسم للجمع من حوله مثل سياسي ينهي خطاباً له سيؤدي إلى إعادة انتخابه.

ران الصمت على الحشد، وفرك السفائر وله ذقنه متأملاً.

«يا ابن الزنا»، قال الكهربائي في ما يشبه الفحيح.

التفت الناس صوبه، وأخلى الشعور بالنجاح على وجه السيد جلال مكانه للاضطراب.

«يا ابن الزنا الملعون» هسهس الكهربائي من جديد: « كيف تجرؤ؟»

«نعم، كيف تجرؤ؟» قال السفائر وله في هسيس هو الآخر.

«لم يكن هذا حلماً، فقد ورد هذا في الفصل الحادي عشر من تعاليم غيتا المقدسة. هل اعتقدت أن أحداً لن يتعرف إليها؟ لقد ادعيت ما رأيته في حلمك أليس كذلك؟ وكل ذلك من أجل إنقاذ نفسك».

ففر السيد جلال فمه في مواجهة الكهربائي، فلم يكن لديه فكرة عما يتفوه به الرجل.

«كيف تجرؤ على التندر على المسكين فيشنو. وكيف تجرؤ على مواجهتنا بالغيتا التي

تخصنا نحن بهذا الشكل. ما الذي أتيت هنا من أجله أيها المسلم المزيف، أن تُظهر لنا كريشنا؟»

هب على ذهنه شيء من الذاكرة. نعم، فهناك شيء مشابه في تعاليم بهاغافاد غيتا ـ شيء حول تجلي كريشنا ـ وهل كان ذلك لأرون؟ فقد مرّ زمن طويل على قراءته لها. ولكن بالفعل عندما يفكر بالأمر الآن فهناك جانب مماثل للحلم. «ولكني لم أحلم بالأمر، وحتى لو ورد ذلك في الغيتا فلن يعمل إلا على إثبات وجهة نظري ـ لا بد أن فيشنو هو الذي يتحدث وليس أنا».

«كاذب»، «مجدّف»، «غشاش».

بدأت الأصوات في الخلف تزداد علوّاً، وعليه قرر السفائر وله أن يؤكد موقعه. «كيف تجرؤ حتى على مجرد التفكير في الاستشهاد بكتابنا المقدس، أيها الكافر؟» قال له على الرغم من أنه لا يعرف عن الغيتا إلا القليل، ولم يقرأها له أحد قط، «أي نوع من الحمقى تظننا؟ سنأخذك إلى الشرطة الآن.»

«تأخذونه إلى الشرطة؟»، صاح البان وله، «أي هراء هذا ـ سنصفي حسابنا معه بأنفسنا، في هذا المكان وفي هذه الساعة. من أنت، هل أنت خائف إلى هذه الدرجة من معاقبة هذا النذل بنفسك؟ إن كنت لا تستطيع استخدام هذه الخيزرانة فأعطها لمن هو أقل جبناً منك». وبهذه الكلمات افتكّ عصا السفائر وله من يديه وأعطاها لشخص خلفه لا يحمل واحدة.

غضب السفائر وله من هذا الاغتصاب المفاجئ لسلطته، فاندفع ليأخذ عصا البان وله، وتمكن من الإمساك بطرفها. هنا اغتنمت السيدة جلال الفرصة، في حين كانا يتصارعان للفوز بالخيزرانة، فسحبت زوجها للداخل وطالبته بالاتصال بالشرطة.

كان السيد جلال مازال يحاول فهم ردة الفعل العدائية وغير المتوقعة هذه تجاه روايته، فقد تخيل أن تحث كلماته الجمع كي يلقوا بعصيهم ويركضوا أسفل الدرج ليلقوا بأنفسهم عند قدمي فيشنو. أما استعداد هذا التجمع للاعتداء عليه فكان محيراً له.

الآن، وبينما تصحبه زوجته داخل البيت وتدفعه نحو جهاز الهاتف حاول استعادة توازنه ليجد معنىً لما يحدث.

من الواضح أن الجمع رفض التسليم برسالته. ولكن لم ذلك؟ فهو لم يتمكن من رؤية وجه الاعتراض عليها. ولماذا يعمل الحلم حول البهاغفاد غيتا على إلغاء ما كان بصدد توصيله من تعليمات؟ إذا كان هناك شيء يثبته هذا الأمر فهو تجذُّرُ رؤياه وعلاقتها بالقديم من الوحي. وأنها حقيقية وأكثر من أن تكون مجرد حلم. أي إثباتات أخرى يحتاجونها؟

عند ذلك نظر من خلال نافذة غرفة النوم نحو الكنيسة عبر الشارع حيث كان صليب إسمنتي أبيض كبير يشكل واجهة المبنى، وأيقن أن الإجابة تكمن فيه هو، فهو لم يخبر المعاناة. لقد دفع الأنبياء الثمن من أجل أن يصدقهم الناس. تعرضوا للتعذيب، وسلخ الجلود، والصلب، وعند ذلك فقط تقبل الناس رسالاتهم، فالدم هو العلامة الوحيدة لإظهار الوحي، والعذاب هو ثمنه الوحيد.

وقف عند الهاتف. كان قريباً بما يكفي لأن يطلب رقم واحد، وصفر، وصفر. ويتطلب ذلك منه خمس ثوان، أو عشراً على الأكثر. رأى زوجته تومئ له وتتسع عيناها في محاولة منها لحثه على الإسراع، ثم رأى السفائر وله والبان وله يتوقفان عن العراك وينظران نحوه فتتسع خياشيم البان وله عند رؤيته لجهاز الهاتف بالقرب من السيد جلال.

التقط سرداس السكين.
رأى جلال الكلمات تتجمع على فم زوجته ولم يسمع شيئاً.
كان سكيناً صغيراً مزخرفاً، وله حد قاطع ومقوس.
دخل البان وله عبر الباب وكانت عريفة تصرخ في وجهه.
له مقبض من الخشب، ورسمت عليه ثلاث علامات مائلة.

بدأ البان وله يمرجح عصاه فوق رأسه، وبينما كان السيد جلال ينظر أخذت الخيزرانة تبطئ أكثر فأكثر إلى أن بدت له أنها لا تتحرك على الإطلاق.
جال بخاطره أن الجمع سيكون شاهداً الآن على مدى استعداده لدفع الثمن ومدى

رغبته في تلقي العذاب من أجلهم. بالتأكيد سيكون هناك ألم، لكن تعريضه لهذا الألم لن يكون بإرادته. وأخيراً سيشعر بروعة الألم وروعة تجربته. ليس عليه الاهتمام لموعد بدئه، أو كيفية توقيعه، أو موعد انتهائه.

كان البان وله يقترب من مسافة تنفيذ الضربة، وتوقفت الخيزرانة عن الدوران الآن لترتفع في الهواء ببطء شديد. كانت عيون البان وله تلمع وهو يقدر الموقف - سرعة العصا، ومسافتها من جسمه، ويزن مقدار القوة التي يريد أن يهوي بها.

اتجه سرداس إلى الباب وفتحه مديراً وجهه صوب المرتعبين المتجمعين هناك.

وصلت الخيزرانة إلى أعلى مدى لها، وبدأت في النزول، وماتزال تبدو بطيئة الحركة.

قال يخاطبهم : الآن أصبحت حراً.

أمكنه سماع العصا تصفر في الهواء، وأعدّ صدره لتلقي الضربة.

الآن أصبحت حراً. فكر وهو يرى الخشب يلامس جسمه، وانتظر كي يصل الألم إلى ذهنه.

الرابع عشر

عندما بث أعصابه إشارة إلى ذهنه عن وقوع الضربة انتقل بكيانه من جديد إلى مكان مألوف لديه. كان المكان نفسه الذي خبره عندما حاول قراءة القرآن ويده فوق اللهب، والمكان نفسه الذي وجد نفسه فيه عندما التحق بمسيرة عاشوراء. لقد فوجئ السيد جلال، وصُدم، وتعجب من مدى حدة هذا الألم.

لكنه اعتقد أن الأمر سيكون مختلفاً، ففي هذه المرة لا سيطرة له عليه، ويتوجب على كل من يؤدي كفارة أن يمرّ بهذا. سيكون مفيدا له، وسيتحمله فليس له من خيار أو مهرب.

نزلت فوقه الضربة الثانية، وبدّدت بكل سرعة جميع الأفكار حول الكفارة والاستشهاد، ومع نزول الثالثة تلاشت تلك الأفكار بالكامل. كل ما يفكر فيه السيد جلال الآن، وكل ما تصرخ به كل خلية في عقله هو الهرب. كان يدور في أرجاء غرفة المعيشة بحثاً عن جهاز الهاتف، مطيحاً بالطاولة الأنيقة التي يوجد فوقها.

جاءت عريفة لنجدته عند الضربة الرابعة، وتشبثت بالبان وله، ممسكة بذراعه التي ترفع الخيزرانة في محاولة منها لعضها.

لم يكن إدراكه واضحاً تماماً وهو يشاهد لعنة تنطلق من البان وله، وزوجته تصيح به من بين أسنان ملطخة بالدم، «اهرب يا أحمد، اهرب إلى غرفة النوم». شاهد الكهربائي يرفع عصاه خلف عريفة فحاول تحذيرها، لكن بدا وكأن فمه مليء بالصوف. وبينما التف حول نفسه كي يهرب، حانت منه التفاتة ليرى عريفة تسقط إلى الأرض، ويظهر عند صدغها خط رفيع أحمر اللون.

كان على وشك دخول غرفتهما عندما تذكر عدم وجود مزلاج ببابها، فغير وجهته إلى غرفة سليم. وسحب لسان القفل الحديدي الثقيل على الباب ـ الذي أصر سليم على تركيبه للتمتع بخصوصيته. ومباشرة تقريباً سمع خبطاً على الباب، وصوت البان وله يقول له بنبرة غاية في الرزانة: «دعنا ندخل».

بدا له الباب ينتأ في أثناء تعرضه للضغط، فابتعد عنه ولكن الرتاج كان محكم الإغلاق، ونظر حوله فوجد كرسياً وضعه تحت أكرة الباب. ليس للغرفة باب آخر بل نافذتان وشرفة فقط. وخلافاً لشرفة الغرفة الأخرى، لم تكن هذه تطل على الشارع وإنما على الفناء من خلف البناية. وتساءل إن كان أحد سيسمع صراخه ويأتيه إذا ما طلب النجدة، ثم تذكر بأن كل الذين من تحته موجودون الآن في غرفة معيشته، وهم في الحقيقة من يحاولون اقتحام بابه.

ارتجّ الباب من جديد. تُرى كم تبقى له من الوقت قبل أن ينهار؟ ولم يعد أمامه إلا شيء واحد فقط، فتوجه إلى الشرفة ثم نظر إلى الأسفل.

لم يكن للدور الأول شرفات، وكي يهرب عليه القفز كل المسافة إلى الطابق الأرضي. وأمعن النظر في الفناء الموجود تحته بطابقين، فرأى أن الأرضية تبدو له غاية في الصلابة وتساءل إن كان سطحها سيتشقق عندما يرتطم جسمه بالأرض.

ربما عليه أن يصعد بدلاً من النزول، فشرفة السيد تانيغا تعلو شرفته وربما سيتمكن من سحبه إليها. من المؤكد أن بإمكان السيد تانيغا تقديم الحماية له وسيمكنهما استدعاء الشرطة عندئذ. بدا له هذا الرأي أكثر عقلانية من المخاطرة بالتعرض للإصابة في أثناء القفز إلى الأرض، ثم احتمال هبوط هؤلاء الرعاع والإجهاز عليه وهو مرمي هناك.

رفع نفسه فوق حاجز شرفته، وباحتفاظه بيد على حائط البناية وازناً جسمه باستخدام قدميه فوق الحاجز، ونادى على السيد تانيغا طالباً المساعدة، ولم يسمع ردّاً. ثم تقدم فوق الحاجز دون النظر تحت إلى أن وصل إلى البروز في الشرفة الأعلى وأمسكه بيده الطليقة، وقد ذهل لمقدرته على القيام بذلك.

*

دعني يا صغيري فيشنو، أخبرك بحكاية ما؛ حكاية الروح يوغي المسمى جييف الذي يولد مرة ثم أخرى ثم أخرى، وكيف يمكن أن يصعد الشخص ليصبح براهمانيا ثم يهبط إلى مستوى القرد من جديد.

جاءته كلمات أمه عبر ما تبقى من التواء الدرج. وقد شعر فيشنو على الدوام بالأسف لمصير جييف في هذه القصة، وتساءل إن كان عليه أن يحذر هو نفسه كي لا يهبط بعد أن صعد إلى هذا المستوى العالي.

في الواقع كان سوء الحظ هو ما أرسل جييف يتدحرج من عليائه، على الرغم من أن المشكلة تكمن أيضاً في القرية التي ولد فيها؛ قرية كانت الطوائف فيها مازالت منفصلة عن بعضها - وليس مثلما يحدث الآن في بومباي - وكان يُتوقع من البراهميين بالذات أن ينفذوا كل تلك القوانين القديمة. فليس مسموحاً لأفراد الطوائف الأدنى ترك ظلالهم تسقط على الطريق الذي يسير فيه البراهميون، وكان عليهم حمل مقشة طوال الوقت لتنظيف الأرض بعد أن لوثتها أقدامهم، كما كانوا يتعرضون إلى العقوبة لأقل خطأ يرتكبونه.

كان من الجائز ألا يجد جييف نفسه يوافق على كل تلك القوانين لو أنه توقف عندها ليقدر مدى عدالتها من عدمها. لكنه اتبعها مثل أي شخص في القرية، وفي نهاية المطاف فقد كان معمولاً بها لعدة قرون - ومن يكون على أي حال وهو حديث العهد بالبراهميين كي يناقش مثل هذه الحكمة؟ كان متوقعاً منه معاملة الطوائف الدنيا بصرامة للمساعدة في إحساسهم بقسوة أيامهم. أليس ذلك في الحقيقة هو ما يساعدهم على التطور، ويحث أرواحهم عند مرورها خلال طور مؤلم لكنه ضروري؛ طور لا بد وأنه تحمّله بنفسه ليصل إلى هذه المحطة، وأين هو الظلم إذاً، وأين الضرر في ذلك؟

ذات يوم كانت الجمدارني تفرد طولها بعد انحنائها على البالوعة التي كانت تنظفها، في اللحظة ذاتها التي مرّ جييف فيها. ودون تفكير منها نظرت في وجهه مباشرة، حتى إنها بدأت في تمني صباح سعيد له قبل أن تتفطن إلى ما كانت تفعله. لكن كان الوقت متأخراً على ذلك - لقد شاهد عدد من القرويين ما ارتكبته من خطأ عقوبته واضحة - وكان يجب أن تجلد. كان باستطاعة جييف العفو عنها، لكن الجلد لم يكن عقوبة شديدة، ونظراً لأن المخالفة كانت بهذا الوضوح، فلم يخطر حتى بباله أن يتدخل في القوانين المرسومة.

تحملت الجمدارني الجلدات الأولى جيداً، لكن بعد ذلك كانت العصا تنهال على عمودها الفقري بشكل جعلها تصرخ بصوت عالٍ. وعند هذا الحد تدخل الحظ ـ فمن كان ينظر إلى الأسفل في هذه اللحظة بالذات ويسمع صراخ الجمدارني لم يكن غير ملك السماوات **أندرا** بنفسه.

بالطبع لم يتدخل أندرا ـ فلا يكاد يُتوقع من ملك السماوات أن يشغل نفسه بتوافه الأمور هذه. في الحقيقة كل ما فعله هو أن يلاحظ (معبراً) بصوت عال قبل أن ينتقل انتباهه إلى أمور أخرى: «هل استخدام العصا ضروري حقاً؟ ألم تكن الكلمات كافية؟» لكن إلها آخر أقل شأنا سمع هذه الكلمات وقرر أن يُسعد أندرا، أملاً منه في نيل حظوة لديه. فقرر أن يولد جييف من جديد في هيئة قرد، وأن يُبعث إلى الأرض متمتعاً بذاكرة البراهميين التامة.

هكذا وجد جييف نفسه في غابة، يتمرجح بين الأشجار ويعيش على ما يمكن أن يعثر عليه من الجوز والفواكه، قاطعاً الوقت وهو يتأمل في هذا الهبوط الدرامي لمستواه. لم يكن بإمكانه استنشاق أي نفس دون أن يذكره ذلك بالمكانة التي انتزعت منه بغير وجه حق.

ذات صباح فتح جييف عينيه ليرى شركاً يدنو منه، وقبل أن يفعل شيئاً وجد نفسه محاطاً بالشبكة. أحس بجسده يطير في الهواء، والتفت حوله ليرى جذع الشجرة قبل ارتطام رأسه بها مباشرة.

بعد أن أفاق، وجد طوقاً جلدياً يحيط بعنقه، وكان مشدوداً بعناية، مما جعله لا يكاد يتنفس، كما رأى حبلاً يمتد من الطوق إلى وتد في الأرض، في حين تحيط به أكواخ ومبان صغيرة ـ ولم يكن هناك أثر لأشجار الغابة. حاول بكل ما يملك من جهد أن يفك الطوق الذي يضغط على عنقه، لكنه لم يفلح.

«كلا أيها الباندر الصغير، فهذا الطوق وُضع ليظل في مكانه». كان ذلك صوت ميتال، مالك جييف الجديد، وكان يحمل طبلاً صغيراً من النوع الذي ينقره (الطبل وله). «همّك الوحيد الآن هو تعلم الرقص، فتعال ودعني أعلمك إياه».

رفع ميتال الطبل في الهواء وصدر منه صوت: ترّ ـ رّاب، ترّ ـ رّاب، في حين طارت الحجارة المربوطة على محيط الطبل في الهواء وحطت على رقعة الطبل في نهاية الخيوط التي تربطها. «ارقص يا باندر»، أمره ميتال وجذب الحبل بقوة، فوقع جييف على الأرض برأسه أولاً.

أحس جييف نفسه يُجذب واقفاً بشكل متكرر وبعنف كاد يقصم رقبته، ثم يُسحبُ إلى الأرض من جديد. وعندما أحس بطعم الطين في فمه بدأت المقاومة تقدح في داخله، فهو براهمي وليس قرداً، لن يسمح بإهانته ولن يرقص. ولم يكن ثمة خيار ثان في الحقيقة، وأن يخضع الآن فإنما يعني موافقته على قسمته الجديدة في الحياة، وأن يتخلى إلى الأبد عن مطالبته المشروعة في البراهمية.

لم يكن ميتال قاسي القلب، ولكن إن لم يتمكن من تدريب جييف على الرقص، وأن يدور متسولاً النقود ممن يقفون عليهما للمشاهدة، فلن يجدا ما يأكلانه. وهكذا بدأ طعام جييف يقل شيئاً فشيئاً، وصار يستخدم العصا في تدريبه. كان يضربه بخفة في البداية، لكن شدة الضربات أخذت تزداد مع رفض جييف التخلي عن عناده.

مرّ أسبوع، وتلاه ثان، وازدادت آثار الضرب على جسم جييف، وظل صوت الطبل يدوي في ذهنه بشكل دائم حتى في عدم وجود ميتال. كان يصحو مذعوراً في أثناء الليل حين يشعر ببرودة العرق فوق جسمه الجائع، ويعرف أن سماعه لذلك الصوت سيكون في مثل يقينه من وجود الطوق الضاغط بقوّة على عنقه.

«لا تقاوم أيها الباندر الصغير، وعليك تقبل الأمر الواقع»، قال له ميتال ذات يوم، وتسللت إليه الكلمات وكأنها تأتيه عبر ضباب. كان يرتعش وهو يلتهم الموزة التي قدمها له، ثمّ سقط في بحر من النوم المضني.

أفاق على صوت نقر الطبل داخل ذهنه كما هي العادة، لكن النغمات بدت له أقل حدّة. كان صريرها المعتاد قد لُطِّف الآن بتناغم في اللحن لم يعهده من قبل، وتساءل إن كان أسلوب اللحن المبطن الذي يسمعه الآن قد ظل هناك على الدوام، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف لم يتفطن له من قبل؟

توقف الصوت ورفع جييف بصره ليرى ميتال يحدق فيه والطبل مرفوع في الهواء، والأحجار مازالت تدور حول الطبل الثابت في يده. ببطء بدأ ميتال يدوّر الطبل دون رفع نظره عن جييف، وبدأ اللحن: ترّ ـ رّاب، ترّ ـ رّاب، فوجد جييف أن أطرافه قد أخذت تنفرد، وأحس بكتفيه يبدآن الحركة، ويديه تلوحان في الهواء، ورجليه تزحفان على الأرض. كان اللحن يمسك بجسمه كما تمسك الخيوط بالدمى المتحركة.

لم يكن هناك مثيل لتلك التلقائية عندما بدأ الرقص، وأيقظت نغمة الترّ ـ رّاب، ترّ ـ رّاب نوعاً من الاستجابة البدائية في جسده وبعض الوعي القديم في ذهنه. وطالما كان هذا الطبل يقرع فلا مجال لأي أفكار بل للحركة فقط، وتحت هذا التأثير نسي ما كان عليه، وما كان يطمح إلى أن يكونه.

مرت الأيام، وأخذت القروح في جسده تتعافى وتختفي واحداً تلو الآخر. أخذ يسافر مع ميتال عبر المدن والقرى، يرقص ثم يتسول النقود من أي مشاهدين لهما.

وفي أثناء ترحالهما، كانا يتوقفان أحياناً خارج أحد المعابد. وعندها يلاحظ جييف ثلة من الكهنة بين الحاضرين، يحدق في العلامات المقدسة على جباههم، في الوقت الذي تومض الخيوط البراهمية من ثيابهم بوهن تحت أشعة شمس العشية.

فقط حينذاك يجد جييف نفسه يتوقف، لكن شدة خفيفة على طوقه ستذكر بالرقصة التي عليه أن يؤديها.

يحدق مرة أخرى نحو السماء من خلف المعبد ثم تبدأ الأنغام من جديد، وعندها ينفرد ذيله، وتبدأ أقدامه في الحركة. يرفع ذراعيه ويشعر بتدفق الهواء خلال أصابعه فينطلق الحضور في التصفيق والصفير إعجاباً بما يقوم به. ثم يلتحق الكهنة بالوجوه المختلفة المحيطة به فيرقص جييف غير عابئ بأي شيء غير نشوة الطبل.

*

بعد مرور يومين على الحفل أرسل فينود استقالته إلى لجنة إدارة المؤسسة. كان محبطاً

بسبب مشاكل المقاولين المستمرة، الذين توصلوا الآن إلى استراتيجية موحدة لإبطاء العمل كلما أرادوا المزيد من المال من السيدة بهاغواتي. كان المشروع يسير ببطء لسنوات عديدة قبل أن يلتحق به، ولم يكن هناك شك أو اهتمام من لجنة الإدارة أنه سيستمرّ لعقد إضافي من الزمان. كما أزعجته أيضاً مسألة علاقته بهذا الأمر: لماذا يقوم بهذا العمل؟ ومن هم سكان الأحياء الفقيرة بالنسبة إليه؟ هل يشعر تجاههم بالشفقة فعلاً أم أنّ هذا النشاط لمجرد ملء الفراغ؟ وعملَ عرض السيدة بهاغواتي الذي خاطبها حوله برسالة رفض مؤدبة (منفصلة) على التعجيل في قراره بالانسحاب.

بعد عودته للمكوث في المنزل بدأ يحس بطيف الخمول يلوح في الأفق. ففي تلك الزاوية هناك، يوجد السرير الذي عليه يستلقي، وفوقه السقف الذي يحدق فيه، وعلى الطاولة توجد الإسطوانة التي سيسمعها كل يوم. هل قام بالشيء الصحيح عندما استقال؟ أما وجب عليه التفكير في عرض السيدة بهاغواتي بجدية أكثر؟ وماذا يريد لما تبقى من حياته أن تكون؟

ثم حاول أن ينظر داخل نفسه من خلال ممارسة التأمل العميق، الذي تعلمه في الجامعة لكن لم يمارسه منذ ذلك الحين. كان يجلس فوق الأرض مصالباً رجليه ومركزاً على قصبة أنفه كما بين له المعلم منذ سنين طويلة. تصوّر في ذهنه لفظة (أوم) وانتظر أن تسري اهتزازاتها بصمت خلال جسمه، لكن حرف الميم أثبت أنه مراوغ يدورُ في ذهنه بغير ثبات، مكتشفاً أي فروع أو نتوءات للفكر يمكنه أن يحط عليها. أفكار حول دهارافي، وأخرى حول السيدة بهاغواتي، ولكن أغلبها أفكار حول شيتال التي ظنّ أنها قد غادرت حياته منذ زمن.

قرر أنه لم يعد بإمكانه قضاء أيامه في شقته، وبدأ يسير على قدميه إلى بريتش كاندى، كل صباح ليجلس على أحد المقاعد الخشبية هناك. وفي هذا الوقت من الصباح لا وجود لباعة أعواد القصب المتجولين، أو أطفال يمتطون أفراسهم في المكان. كان يجلس هناك دون أن يزعجه أحد. وإذا كان الوقت مناسباً من الشهر، فإنه يتمكن عندها من مراقبة المد وهو ينحسر صوب البحر من خلفه، عندما تظهر الصخور كافة، ويبتعد الماء مكتسباً لوناً أخضر، فينهض من مكانه متجهاً إلى بيته. في بعض الأيام كان يتجه إلى شاطئ

شاوباتي، لكن المقاعد هناك ليست بالقدر نفسه من الراحة، ورأى أن مساحات الرمال أقل إثارة من الحجارة في بريتش كاندي.

أخبره البان وله عن معبد يديره رجل مقدس في ضاحية كانديفيلي البعيدة، وركب فينود القطار إلى المكان ذات يوم عندما كانت حرارة الشمس في أوجها، ولا يمكن الجلوس في الخارج. وعند وصوله رأى مجموعة من النساء حافيات الأقدام يترجلن من سيارة أجرة ويرتدين سواري بيضاء مثل التي ترتديها الأرامل. سار في أعقابهن خلال البوابة، ماراً ببعض الحدائق حتى وصلوا إلى بيت مستقل محاط بأشجار المانغو، فدنا إلى سمعه عبر الباب المفتوح صوت إنشاد ترنيمة دينية.

جلست النسوة على الأرضية في طرف المتجمعين بالداخل. وكان على وشك الجلوس خلفهن عندما اقترب منه شخص وأخذه للجلوس في الجانب المخصص للرجال من الغرفة. ولبعض الوقت أحس بالامتنان لتمكنه من الانغماس في ما تتيحه جلبة الغناء من طمأنينة نفس، وكان ممتناً لأن من حوله كانوا غاية في الاندماج ليعيروا وجوده أي اهتمام. لم يشارك في الغناء شخصياً ويعود ذلك من جانب لأنه لا يعرف الكلمات، ومن جانب آخر لرؤيته أنّ من غير المناسب المشاركة في مثل هذه العبادات العلنية. وبينما كان إيقاع الترنيمة يشعره بالهدوء، تذكر الزيارات التي كان يقوم بها إلى ماهالاكشمي في طفولته، وتذكر أرضية المعبد الرخامية حيث يجلس ويغني مع أمه. وأخيراً وصلت مجموعة المنشدين إلى أغنيتهم الأخيرة، وفجأة اكتشف فينود أنه يعرف الكلمات: أوم جاي جاجدش هير. بدأ الغناء عندما لم يتمكن من إبقاء الكلمات محبوسة في داخله.

بدأ فينود يستقل القطار إلى ذلك المكان في وقت متأخر من صباح كل يوم بعد أن تخفّ زحمة مرور الموظفين، وهناك يجلس خلف المجموعة يراقب المصلين ويصحبهم في إنشاد الترنيمات، لكنه لا يتحدث مع أحد قط. وأحياناً يمضي العشية جالساً في شرفته يراقب الببغاوات على شجرة المانغو تطعن بمناقيرها الحمراء المعقوفة الثمار التي لم تنضج بعد. في عشيات أخرى يظل في المعبد بعد الصلوات منصتاً إلى البرامج والعظات التي تليها. أحياناً يمضي اليوم بأكمله هناك لا يستقل قطار العودة إلا بعد المشاركة في العشاء البسيط من الأرز والعدس الذي يقدم لكل الحاضرين.

في المرة الأولى التي زار فيها المعبد، كان فينود منشغل البال حول فضائح المعلمين والكهنة التي تظهر في الصحف، فقد قرأ عمّا يفرض على المصلين من طلبات التبرعات المفرطة، والمواعظ الفلسفية الدينية الشاذة، والاحتفالات المثيرة، وحتى جلسات اللهو والعربدة. ولسروره، لم تكن هذه الصور تنطبق على سواميجي، كما ينادون الرجل المقدس. كان صغير الحجم ينتصب على ساقين رفيعتين كأنهما لعبة، له لحية بيضاء طويلة، وقطعة قماش صفراء تلتف حول جذعه وجسمه العلوي. لم يكن الانطباع العام الذي يعطيه وهو يقف فوق المنصة الكبيرة البيضاء مثل شمعة تزين كعكة كبيرة، لشخصية قوية أو سلطة، وإنما للهزل والطرافة.

لكن عندما يتحدث السواميجي فإن صوته يحمل سلطة إقناع هادئة تنتشر من المنصة عبر الغرفة، وكان يبدأ كل موعظة له بالحديث عن المراحل التي يمر فيها الإنسان.

«كم المدة التي يمكن للإنسان أن يعيشها لنفسه؟»، كان يسأل مستمعيه، «وإلى متى يسمح لقانون الغابة أن يحكمه؟ ينهب كل ما يواتيه من متع، وينقاد نحو كل رغائبه مهما كانت ضئيلة، عبدٌ للوعود بالرفاهية، ودمية في يد نداءات الجسد؟

«ومع ذلك إن لم يشبع شهواته بالكامل في هذه المرحلة، فلن يتمكن من الترقي إلى المرحلة التالية. لا بد أن يشرب من منهل الإشباع الأناني، إلى أن يتأكد أنه لن يعطش بعد ذلك أبداً، وإلى أن يكتشف أنّ جسده وكل رغباته عبارة عن مايا - وأنها ليست حقيقية أكثر من الانعكاس المرتد إليه من نفس ذلك المنهل الذي يشرب منه، فقد يستغرق هذا الأمر حيوات عديدة، ولكني رأيته يحدث في حياة مفردة، بل في نصف حياة».

كان فينود يراقب باقي المتعبدين المستغرقين في معاني رسالة السواميجي. أما هو فمرتاح لمجرد وجوده هناك، ولأن يكون مجهول الهوية في وسط هذا الجمع، ومحاطاً بما يوفره الآشرم من طمأنينة. كانت كلمات سواميجي تشد انتباهه ثم تذهب عنه، فقد سمع هذه الموعظة عديد المرات من قبل - عن المايا، والوهم الذي هو الوسط لكل كينونة، مثل فيلم سينمائي ليس له نهاية يشتمل على كل حيواتهم؛ مثل الرحلة التي يجب أن تبدأها الروح لكي تنطلق من عقال المايا، تصعد من خلال إشباع النزوات ومن خلال الأنانية نحو الهدف النهائي، الذي من أجله تحيا وتموت المخلوقات كافة مرة بعد الأخرى.

«وسيأتي يوم بعينه عندما يتم التخلي عن الارتباطات كافة، وعندما تتمحي كل ذكرى للرغبة والجوع والألم، وحينذاك فقط سيعرف المعنى الحقيقي للحرية».

تساءل فينود إن كان الناس مازالوا يذهبون للغابة ابتعاداً عن العالم، وتساءل إن كان هذا ما يقترحه عليه السواميجي. لم تأته قط الجرأة المناسبة ليتوجه نحو المنصة، وبينما كان الأتباع المخلصون يصطفون من حوله للمس أقدام السواميجي الصغيرة بديعة التكوين، كان فينود يجلس حيث هو محاولاً ألا يجعل نفسه موضع اهتمام للآخرين قدر الإمكان.

ذات يوم اقترب سواميجي من فينود وسأله عن اسمه: «كنت ألحظ جلوسك في الخلف يوماً بعد يوم، فما الذي أتيت هنا من أجله؟»

يبدو سواميجي عن قرب أصغر مما توحي به لحيته البيضاء، وارتبك فينود لاكتشافه ما تتميز به عيناه من قوة وعمق يتناقض مع الهدوء الذي يتحدث به، وبدتا له أنهما تنفذان إلى أكثر الجيوب سرية داخل عقله.

«ما أنا إلا مراقب فقط»، قال فينود، «فالمكان أكثر طمأنينة هنا من الجلوس في البيت»، ثم عندما رأى أن تحديق السواميجي لايزال ينساب متسائلاً بداخله أضاف: «لا داعي لأن تشغل نفسك بي، فليس بي من سقم، حقاً، لا شيء يحتاج للعلاج».

لم يستمر سواميجي في سؤاله. «أحبّ ما يمثله اسمك من معنى؛ أي السعادة. فتعال واجلس قريباً مني في الغد».

في صباح الغد وجد له مكاناً ملاصقاً للمنصة وبعد الموعظة توجه إليه سواميجي. «البارحة صليت من أجل الشخص الذي فقدته»، قال وهو يسلم فينود القرص المقدس ليتناوله.

دهش فينود وسأله: «هل تملك القدرة على إدراك الغيبيات»؟

ضحك سواميجي: «لا توجد آلهة في هذا المعبد وأنا إنسان مثلك ومثل أي إنسان آخر،

ومع ذلك ألاحظ عندما يأتي شخص في مثل سنك لوحده وبشكل متكرر. وفي كل مرة تبدو غاية في الحزن، وخلواً من فينود، على الرغم من أنني أظن أن ما يأتي بك هنا ليس الحزن، وإنما الغضب».

«رحلت زوجتي منذ سبع عشرة سنة مضت يا سواميجي، ولا أظن أنني مازلت حزيناً بسببها، ومن المؤكد أنني لست غاضباً».

«إن لم تكن حزيناً، ولست غاضباً فلا بد أن تشعر بالطمأنينة. فهل أنت كذلك؟ هل هذا سبب مجيئك هنا، لأنك تشعر بسلام مع نفسك».

لم يجد فينود جواباً، وهز السواميجي رأسه.

«كلا إنه الغضب ـ الغضب الدفين المختبئ في أعماقك بحيث لا تتمكن حتى من معرفته. الغضب بسبب انتزاع زوجتك منك. غضب لأنك أجبرت على سلوك طريق لم تسأل عنه رغم أنك تعرف في قرارة نفسك أنك لو سئلت، يا بني، لاخترت الطريق الأسهل وليس هذا المسار. إنه مليء بالآلام، ومع ذلك فهو سيصل بك إلى مستويات عليا لم ترها بعد. سعداء هم الذين لا خيار لهم سوى السير على هذه الطريق، ولكن لا تقل لي بأنك لست غاضباً».

رأى فينود أن السواميجي مفرق في الافتراضات، فما كان منه إلا أن نهض وغادر المكان.

فكّر في كلمات السواميجي لأيام عديدة تلت. أمعن النظر في قلبه، وفي عقله، لكنه لم يجد الغضب الذي توقع السواميجي بأنه مخبأ هناك. ليس هناك شك في أن الرجل مباركٌ ولكن كيف يمكن لشخص واحد أن يتدبر أمر الجميع، أن يكون دائماً على حق.

*

ذات صباح وهو ينصت للأغنية، أحس بأنه لا يستطيع الإنصات للكلمات أكثر من ذلك. رفع إبرة الغرامافون ووضع مكبرات الصوت في مكانها المخصص، ثم رفع الإسطوانة عن القرص الدوار وأمسكها بسبابة اليد والإبهام. لم تكن المسكة ثابتة، فأي حركة خاطئة من أصابعه ستكسر الإسطوانة لا محالة على الأرضية المبلّطة. وتمنى أن

تأتي هبة ريح عاصفة لتقوم بهذا العمل، أو ربما عليه أن يهشم الإسطوانة عنوة بقذفها عبر الغرفة ـ فقد يكون هذا هو الحل الذي سيطلق سراحه ويمنحه الحرية؛ يمنحه الحرية من شيتال.

فوجئ من هذا التفكير المفاجئ ـ هذه الفكرة بأنه لايزال بحاجة إلى أن يتحرر من شيتال. مر أمدٌ بعيد منذ فقده لها، ومن المؤكد أنه تطوّر بما يكفي منذ سنوات البليّة التي ألمت به.

برم الإسطوانة عن طريق ليّ السبابة والإبهام وأحس بالنشوة وهي تدور أمامه، ثم وهو يتساءل إن كانت ستسقط منه. لم تسقط فبرمها مرة أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، وأخيراً سقطت. لكنها لم تنكسر، وأخذت تتمايل فوق الأرضية مثل قطعة نقود ضخمة تدور حول نفسها قبل الاستقرار. عند توقفها كانت العلامة على الجهة الفوقية، ونظر فينود تحته فرأى العلامة الحمراء المألوفة لديه، حيث لايزال الكلب يحدق في فضول نحو بوق الغرامافون.

التقط الإسطوانة التي لا يبدو أنها تضررت، مسحها بكم قميصه ونفخ عليها، ثم وضعها فوق القرص الدوار. لم يتغير الصوت وأتته الكلمات بوضوحها السابق نفسه، ولكن مع كل مقطع يسمعه الآن أحس بشيء يتحرك داخله؛ نوع من القوة الغريبة التي لم يألفها من قبل، مثل ريح تغيّر من وجهتها أو مثل تبديل عتلة آلة ما. أحس بفراغ في الموضع الذي رُصّت فيه المشاعر والبدن من قبل. أحس بغضب وعنف هادئ، يتأجج أحياناً، موجه نحو شيء يفوق إدراكه. أحس برغبة في الصراخ وهو ما فعله عدة مرات، لكنه توقف خوفاً من إزعاج آل جلال من تحته.

ثم هدأ العنف داخله، وانهار على الكرسي بجانب الغرامافون... في ليلة اتحادنا الأول هذه، تناهى إليه المقطع النهائي من الأغنية.

في وقت متأخر من ذلك اليوم توجه فينود إلى طريق واردن، الواقعة خلف الأبنية الشاهقة الخرساء قبالة البحر. مرت شهور منذ آخر مرة ذهب فيها إلى بريتش كاندي، وظن أن مراقبة انحسار المد ستهدئ من روعه. لكن عند وصوله هناك وجد أنّ المقاعد

قد اقتلعت من مكانها، ونصبت لافتة على الرصيف تعلن عن تشييد حديقة جديدة. لايزال بالإمكان رؤية الماء من بعيد، ولكن فقط من خلال سور سلك معدني يفصله عنه.

كان على وشك العودة عندما لاحظ بوابة في السور، وأنها كانت مفتوحة. لم ير أحداً من حوله، فمرّ خلال البوابة ونزل على الحجارة المؤدية للبحر. تحوّلت الحجارة إلى صخور وشق طريقه عبر الأسطح الزلقة ومستنقعات الطحالب الخضراء إلى أن وصل إلى حافة البحر، وكان المد يتدفق في تيارات متقطعة ضاجة تحت قدميه.

افترش الأرض، وأمال رأسه للأمام صوب البحر منتظراً موجة ترشه برذاذها. كم مرة، تساءل وهو يلعق الملح عن شفتيه، كم مرة قام بذلك مع شيتال؟.

تذكر الوقت الذي تجشما فيه تسلق الصخور إلى أقصى نقطة وصلا إليها على الأرض، هناك وضعت شيتال رأسها على كتفه، وتقاسما كوزاً من الحمص المحمَّص اشترياه من بائع متجول على الشاطئ. فردت له الورقة وأرته كيف يمكن طيها وتحويلها إلى قارب، ثم وضعه فوق الماء وشاهداه يتمايل مبتعداً فوق الأمواج.

تساءل إن كان لايزال يذكر ما علمته إياه شيتال، إن كان باستطاعته صناعة القارب. فبحث خلال جيوبه عن ورقة، وعثر على مظروف قديم يحوي قائمة حساب كتب عليها من الخلف مجموعة من المشتريات. حاول طي المظروف ليصنع منه قارباً، لكن ورقه كان سميكاً لهذا الغرض، بالإضافة إلى أنه لم يعد متأكداً من كيفية القيام بذلك. وسقط نظره على طوابع البريد المدموغة فوق الورقة ـ كانت تعج بالحياة ـ طائر، وفراشة، وسمكة.

أمعن النظر في الماء الممتد بعيداً، وفي السحب التي تتجمع بشكل مثير عند الأفق. وجال بخاطره ديليب كومار يقف على ضفاف الغانغا، ومحمد رافي يشدو بأغنيته الحزينة، فانتابته موجة من الشجن. كان بحاجة إلى شيء يمكن أن يطفو، وشيء لا يغرق عندما يُسلمه للماء. وإن لم يكن قارباً، فربما المظروف نفسه.

فرد المظروف على سطح صخرة محاولاً تسوية أكثر ما أمكنه من تجاعيده، وأعاد الكرة مرات إلى أن رأى أنه استوى بقدر ملائم، ثم مال به ووضعه فوق سطح الماء، فزحف البلل صاعداً إلى الورقة وصار الأبيض بلون قاتم، وارتعش فينود كأن جلده هو الذي يزحف عليه الماء.

راقب المظروف يدور حول المكان في كسل حيث وضعه، ثم وهو يُسحبُ بعيداً من موجة متراجعة ليتوقف عند صخرة تبرز من الماء وتمسك أطرافها بأشعة شمس العشية فتلمس الحواشي البارزة برفق، ثم تجاوز العائق واستدار نحو البحر المفتوح.

تتبع بياضه المتأرجح فوق الأمواج، أحياناً كان يطفو فوق قمة إحداها ويقترب من الشاطئ، ولكن في الغالب كان يطفو مبتعداً مع المد المنحسر.

راقبه إلى أن صار مجرد علامة في البعد لا يمكن التعرف عليه بين العدد اللامتناهي من العلامات التي تلمع وتتراقص فوق سطح بحر العرب. في أثناء عودته إلى البيت، وفي أثناء صعوده الدرج إلى شقته، وبينما هو مستلق فوق سريره تخيل المظروف وهو يواصل رحلته نحو الأفق، والماء عندما يذيب غراء الطوابع، وأنّ ما عليها من رسومات تغادرها عند موضع التقاء البحر بالسماء، فيبدأ المظروف رحلته عبر المحيطات، وتسبح السمكة والطائر والفراشة بحرية.

مع مرور الوقت وجد أن غضبه بدأ يختفي، وأحس بطمأنينة لا يذكرُ أنه خبرها من قبل. فكر في العودة إلى سواميجي، لكنه كان خجلاً من القيام بذلك بسبب الطريقة المفاجئة التي غادره بها منذ ثلاث سنوات. ومع ذلك خامره شعور بأنه ربما قد حصل على ما تحدّاه السواميجي بشأنه، وهكذا لم يعتقد أن العودة إليه أمر بالغ الأهمية.

الآن وجد أن بإمكانه أن يصفي ذهنه عندما يحاول ذلك. يركز على حرف أوم ويشعر بالقوة التي تشتمل عليه، سيشعر بالطاقة التي تنساب من ثالوث الحرف وتملأ كيانه، وسيرى بأن الكون يُخلقُ بزفرة واحدة من أنفاس براهما. سيعقلُ الدقة التي يوازن بها فيشنو كل أمرٍ بين الخلق والموت، وسيضمحل كل ما يتعلق بالبدن عندما تحين نهاية دورة

فيشنو، ثم يرن بداخله الصوت الرنان الدائم لحرف أوم عندما تبدأ مرحلة هيمنة شيفا في الصعود.

خلال النهار كان يجلس على الشرفة المواجهة للشارع، وكان يرى أحياناً عربة البطيخ اليدوية تمر أمامه. تذكر كيف كانت شيتال تصفر من الشرفة للبطيخ وله، وتفاصله مستخدمة لغة الإشارة، وتذكر كيف كان يسرع إلي تحت إذا كانت الصفقة ناجحة. تنعطف العربة الآن حول زاوية الشارع ومعها تبهت الذكريات في ذهنه.

عند حلول الظلام كان يتناول الخضار وقطع الشاباتي الثلاث، التي تحضرها له الغاناغ لوجبته المسائية. وأحياناً يحس بالجوع بعد تناول وجبته، وعندما يحدث ذلك يأخذ قطعة بسكويت من العلبة التي يحتفظ بها بالقرب من معدات الشاي. كان يمضغها في الشرفة ببطء ويستمعُ في أثناء ذلك إلى أصوات المرور بالقرب من الإشارة تحت.

في أيام الآحاد يراقب المصلين عند تجمعهم لأداء القداس في الكنيسة الواقعة عبر الشارع، ويلاحظ أحياناً وجود السيد آسراني بينهم. وفي بعض الأيام كانت تجري مراسم زفاف، وينظر هو إلى الزوجين الشابين، والصور تؤخذ لهما فيما بعد على درج الكنيسة الخارجي، وهما في أتم نضرة وتألق وبراءة.

ورغم ذلك، فغالباً ما جلس هناك وحاول الإنصات إلى البحر. ومع أنه لم يصبح عجوزاً بعد وهو في الخمسين من عمره فإنه لم ير البحر لشهور الآن، ليس منذ المرة الأخيرة التي قرر فيها النزول والمشي إلى بريتش كاندي. بدلاً من ذلك يجلس الآن على الشرفة محاولاً تذكر الصخور التي تقبع هناك، ويتذكر الموج عند أقصى مدّ وهو يتكسر على الشاطئ والنوارس التي تحوم فوق الرغوة. يحاول تخيل أن قطرة المطر العابرة فوق وجهه قد انطلقت من رذاذ البحر، وأن الصوت الذي ينادي على اسمه اليوم منطلقاً من مكان ما هي الريح التي تعصف خلال الخليج؛ ثم يغمض عينيه ويدع الماء يتسرب من ذهنه وفي مكانه ينتظر أن يخفت هدوء الصوت، وسرعان ما تبدأ خلايا عقله في

الاشتعال أو الانطفاء لتكوّن الشكل المعتاد. سيعبُرُ حدود المتناهي للجسد ولكل ما هو فانٍ عندما يستسلم للاهتزازات، وعندما يسلم نفسه للتناغم وللرنين الأبدي لصوت لفظ أوم الرائع.

كان الإمساك بقاعدة شرفة فينود تانيفا شيء، لكن أن تقبض عليها بالقدر المناسب لترفع جسمك فوقها فهو أمر مختلف كما اكتشف السيد جلال لاحقاً. حاول حث نفسه بتخيل تكسّر باب غرفة النوم، ثم تخيل الجمع الهائج يتدفقون إلى الداخل بعصيهم. سيكون هدفاً مناسباً بوضعيته تلك، المعلقة بين الشرفة والحاجز ووجود كل جزء من جسمه متاحاً لهم. لم تكن أمامه إلا فرصة وحيدة وهي أن يدفع نفسه على امتداد الحاجز إلى المقدمة، ومن هناك قد يتمكن من الوصول وراء القاعدة إلى شباك شرفة السيد تانيفا.

بدأ يتقدم ببطء على العمود المعدني وهو يلوي قدميه هنا وهناك كأنما يرقص (التويست). وركاه يلتويان وإليتاه تدوران لتعطيا جسمه الزخم الذي يحتاجه للحركة. تحرك راقصاً فوق الحاجز مثل ضيف مخمور في أثناء حفل، يستجيب لرهان تحدٍ أحمق ما، وعند وصوله إلى مقدمة الشرفة وقف يلهث تحت رحمة الرياح. كانت الأقدام تستقر على الحاجز، والأصابع تقبض على الشرفة العليا، والجسد مقوس نحو الخارج كأنه غواص يهيئ نفسه لالتقاط صورة له قبل القفز.

وصل الآن إلى لحظة الحقيقة. ليس بإمكانه رؤية الشباك المعدني للشرفة العليا، ولكن يجب أن يكون هناك بالطبع، وكل ما عليه فعله هو أن يشبّ على رؤوس أصابع قدميه كي يمسك به. وحكت الحجارة جلده بقوة عندما مطّ جسده إلى الأعلى وشرع يبحث للإمساك بالأسياخ. أحس بنهايات أصابعه تلمس المعدن وتمكن من لف إبهامه حول أحدها، وذلك كل ما هناك، فمهما حاول جاهداً بعد ذلك لم يتمكن من الحصول على مسكة مناسبة.

ثم خطر له أنه مادام بإمكانه أن يلوي سبابته، فمن المؤكد أنه يستطيع الشيء نفسه مع إصبعه الوسطى، وهي الأطول ثم البنصر أيضاً وهو بالطول نفسه. فحاول من جديد بعد أن حثه هذا المنطق، ولم يتمكن من الإمساك بالإصبعين الإضافيتين فحسب، وإنما بالإبهام والخنصر أيضاً.

الآن، وبعد أن تمكن من الإمساك بيد واحدة، فليس أمامه إلا طريقة واحدة لمد يده الأخرى. أغلق عينيه وحرك نفسه مبتعداً عن دعامته، ثم حاول الوصول وإمساك اللوح المعدني بيده الأخرى فحقق نجاحاً ـ ونظر إلى الأسفل ليرى قدميه تتدليان فوق الفناء. وقال في نفسه بكآبة إنه مثل سجين قد شنق لتوه ويتمرجح من على شجرة.

لم تبق أمامه إلا الخطوة النهائية أي سحب جسمه للأعلى، وهو الذي لم يقم بمثل هذا التمرين مذ كان في الصف الثامن. لم يتمكن تماماً في السابق من إظهار أي مهارة في تمارين الضغط إلى الأعلى وكان جسمه المراهق يتخبط دائماً بجدران صالة الرياضة في أثناء مجاهدته لجرّه عالياً. واعتاد معلم حصة الرياضة السيد كولا، المرور عليهم بقضيب في يده يضرب به مؤخرة سيقان الطلبة الذين لا يمكنهم أداء التمرين. فكانت سمانتا ساقيه تحمرّان وتظهر عليهما آثار الضرب عند نهاية كل حصة رياضة.

تذكر كل تلك الرسائل التي كان والده يبعثها من أجله كي يُعفى من حصة الرياضة. وكان السيد كولا يقبل بتلك الرسائل أحياناً، ولكن في أيام أخرى يجبر أحمد على الركض لدورة إضافية حول المضمار كعقوبة له لمحاولته التملص من الرياضة. تمنى في هذه اللحظة أنه لم يفوّت تلك الحصص، وتمنى لو أن السيد كولا موجود هناك بقضيبه لحثه على الانتقال للطابق الأعلى.

حاول جاهداً رفع عينيه إلى مستوى يديه لكنه أخفق حتى في القيام بذلك. وحاول المناداة على السيد تانيفا مرة أخرى، لكن جاره الفوقي لم يأت بعد، وهو يعرف أن جاره يحب الجلوس في الشرفة الأخرى المواجهة للشارع، فطالما رآه هناك من تحت مائلاً برأسه للخلف على كرسيه، العينان مغلقتان، وقد أسلم نفسه للنوم أو للتفكير. تخيل وصول صراخه إلى الأعلى مما سيلفت انتباه جاره، وتخيل يدي السيد تانيفا تظهران من فوقه مثل معجزة، وهما تمسكان بيديه بكل قوة، وتسحبانه إلى الأمان دون عناء. ربما

سيصرّ تانيفا على احتساء الشاي أولاً في شرفته أثناء انتظارهما للشرطة. سيجلسان ويتجاذبان أطراف الحديث عن هذا الشيء أو ذاك، في حين يقضم هو من قطعة بسكويت منتظراً أن تسنح الفرصة المناسبة كي يمرّر بعض التفاصيل عن الرسالة التي كان يحاول نشرها. من المؤكد أنه سيكون من السهل إقناع شخصٍ بمثل خلفيته وتعليمه فهو أيسر في الإقناع من هؤلاء القوم من تحته المطالبين بإسالة دمه بطريقة غاية في التهور.

لكن لم تظهر أي أيد سحرية أمام السيد جلال. ربما في حال عدم تمكنه من الصعود يجب عليه أن ينتقل للخيار التالي وهو القفز أرضاً. لكن لكي يقوم بذلك يجب أن يكون متعلقاً بحاجر شرفته هو، وليس بشرفة السيد تانيفا، لأن الموضع الحالي أضاف طابقاً لمسافة سقوطه. والآن بعد أن بدأ تحركه للأعلى، كيف يمكنه أن يعكس التحركات التي جعلته معلقاً هكذا؟ وحاول أن يطوّح قدميه ليحقق اتصالاً مع الحاجز، لكن كل ما لمسته هو الهواء.

لقد علق. وليست إلا مسألة وقت فقط قبل أن يقتحموا الباب ويجدوه هناك، مثل حشرة ما علقت في شبكة عنكبوت. ربما سيستعطفهم، وربما سيوجه نداءه إلى السفائر وله الذي بدا له أكثر عقلانية من الباقين.

ماذا حدث لعريفة؟ كان يأمل إلا تكون إصابتها سيئة، وألا يكونوا قد وجهوا غضبهم نحوها بعد فشلهم في الوصول إليه. كم استمعت إليه بانتباه شديد عندما استلقيا في الفراش سوية. اعتقد أنه يهديها وهو غير دارٍ بأن اهتمامها كان مبعثه الحذق والشك، حاولت أن تتبين الخلل في قصته وأن تعثر على اختلافات تثبت خطأه، وفوجي بذلك، لكنه حزن لهذا التبديل في الأدوار، فأخيراً تتعلم زوجته عريفة استخدام أسلحته ضده.
لقد عانت الكثير على يديه. وفجأة طغى عليه شعور بالذنب ـ فلم يكن زوجاً صالحاً، أو ربما فقط لم يكن الزوج المناسب. أن يكون مناسباً لها بجدارة، وأن يتمكن من تقدير براءتها، وأن يستحقها.

وماذا عن سليم؟ هل خذله أيضاً وهل كان غير ملائم كزوج وأب أيضاً؟ كان معلقاً على الشرفة، وهو يتصفح أعوام أبوّته. ثمة هوّة بينهما أحس بها منذ البداية، وجفوة تظهر يومياً في أثناء تنشئة ابنه. لماذا لم يقترب منه أكثر؟ وأن يحفظ أسماء أصدقاء سليم، ويذهب إلى مباريات الكريكت وكرة القدم معه، يجلس معه في أثناء أدائه لواجبه المدرسي، ولا يجعل كل تلك السنين تذهب هباءً؟ لم سمح للتحفظ أن يكون العلامة الفارقة لعلاقتهما؟ اعتقد أن بإمكانه دوماً إلقاء اللوم على علاقته بأبيه. سيكون ذلك استجابة للنظرية الفرويدية التقليدية، أليس كذلك؟ إنه منطق لا يخلو من فجاجة في هذا الزمن وهذه السن لكنه ما يزال قائماً. لا بد وأن كثيراً من النظريات الكثيرة الأخرى قد اقتُرحت عبر السنين ـ ولكن هل خرجت أي نظريات جديدة بالكامل، أي نظريات لا تكون مجرد تعديل للفكرة الأصلية؟ ثم استقر رأيه على أن يحاول مواكبة الأمور بشكل أفضل.

عودة إلى سليم، فماذا عن غموض مسألة الشال، ولماذا يصر هؤلاء القوم في الخارج على ربط ابنه ببنت الآسرانيين؟ والأكثر حيرة هو كيف يمكنهم تخيل أن له علاقة بالأمر، وما الشيء الذي يفترض أنه فعله أصلاً؟
حاول عصفور دوري أن يحط على شعر رأسه، فهزّ رأسه بشكل غريزي لمنعه من ذلك.

أمر محزن حقاً. فهو واثق من أنه لو كانت الظروف أقل إثارة لأمكنهم الجلوس سوية، واستعادة الأحداث خطوة بخطوة للوصول إلى الإجابات التي ستفسر كل شيء. كان انفعال الكهربائي حول موضوع الفيتا أمراً محزناً بالذات، وحاول تذكر ما أمكنه من ذلك الكتاب. ألم يردْ فيه بأنه لا يمكن قتل شخص ما؟ وأن المرء ينتسخ إلى حياة أخرى يقع اختيارها وفق ما يقوم به المرء في أثناء حياته السابقة؟ وتساءل كيف يمكن تطبيق ذلك على وضعه، وكان من الواضح أن تلك الجماعة تريد موته. ومن ناحية قد يكون ذلك شيئاً مستحباً، لأن الاستشهاد يبدو هو الطريق المضمون لكسب الأتباع. بإمكانه أن يقع ميتاً الآن ويعود من جديد، ومن المؤكد أن تضحيته الآن ستضمن له الولادة من جديد في ظروف مشابهة على الأقل، وقد يمكنه أيضاً أن يستمر في أداء رسالته من حيث

تركها. رغم أنه سيواجهُ مشكلة السن، فمن يستطيع الحفاظ على أتباعه أحياء في أثناء فترة نموّه؟.

عاد الدوري من جديد، وهز جلال رأسه من جديد ولكن بأسلوب أكثر توكيداً هذه المرة لإخافته.

ربما هذا ما يجب عليه القيام به. أن يسمح لنفسه بأن يُقتل بواسطة هؤلاء الغوغاء ليتمكن من إثبات مصداقيته. ولكن على كل حال لا يبدو أن له خيارات كثيرة في هذا الأمر الآن. تخيل تحطم الباب في نهاية الأمر لتظهر من خلاله الوجوه المجنونة التي على الجانب الآخر. «إنه هناك»، سيصيح البان وله ويتدفق الجمع لملء الشرفة. يتمكن بالفعل من تفادي الضربة الأولى لكن الثانية تطيح بكلتا ذراعيه، فيتعلق للحظة في الهواء مشرئباً للمرة الأخيرة في بحث عن السيد تانيفا. ثم تبدأ الطوابق في المرور أمام عينيه، وتلوح له السيدتان باتاك وآسراني عند مروره من أمامهما، ويسمع صوت ارتطام ظهره بالأرض. حتى عندما تبدأ الوجوه في الطابقين العلويين في فقدان ملامحها، يتبين والرضا يملؤه ذلك الشعور بالذنب الذي يبدأ في الظهور عليها.

نعم، يجب أن يتبع هذه الاستراتيجية، كل ما عليه هو أن يتمسك حتى يقتلعوا الباب في النهاية. وعندما يروا ما صنعته أيديهم ويروا الإسمنت يحمرّ من أجلهم، سيصدمهم الإدراك. لن يكون بينهم لكن رسالته سترنّ في آذانهم متهمة إياهم، وسيضطرون إلى اتباعها ولو من قبيل الإحساس بالذنب، وربما يشيدون له معبداً أيضاً، لتحديد الموضع الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة.

رفع هذا التفكير من معنوياته وتساءل عن سبب تأخرهم كل هذا الوقت. بإمكانه سماع الصرخات والخبط العنيف لكن الباب مايزال يقاوم. أي نوع من الغوغاء هؤلاء، الذين لا يمكنهم التفوق على مزلاج بسيط.

فجأة شعر بقرصة حادة بين إبهامه وسبابته كادت تدفعه لأن يرخي قبضته. ونظر إلى الأعلى فرأى رفرفة ريش بني. كان الدوري نفسه وذيله يرتفع فوق ذراعه المنتصبة للأعلى. هل هذه مؤامرة ـ في البداية الناس، والآن الطيور ـ هل سيهاجمُ من قبل الجراد

في المرة القادمة؟ أليس لهذا الدوري شيء يفعله أفضل من مضايقته؟

ارتفع الريش للأعلى وأعد نفسه لنقرة أخرى. ولكن هذه المرة أحس بالألم يتسلل حتى وصل إلى العظم، فندت عنه صرخة زادت من حدتها رغبة مملوءة بالغضب في طرد الطائر بعيداً عنه. لكن الدوري لم يتزحزح واستمر في عملية استكشافه بالنقر على المفاصل، ووخز أصابعه مهاجماً الجلد واللحم وكأن ظاهر يده موضع كنزٍ يريد أن يعزقه بمنقاره.

في سورة غضب حاول الإمساك بالطائر، وتمكن بالفعل من نتف بعض ريش وهو يبتعد عنه. ولكن عندما كانت أصابعه في طريقها إلى مكانها تحت حاولت التشبث بالقضيب ولم تتمكن من إحكام قبضتها عليه، وفجأة ظهرت له الأرض حيث كانت السماء، وسبحت أمام ناظريه حفنة من الريش. وبينما كان يتدلى فوق الفناء بذراع واحدة انقض الطائر في تحدٍ أمام جبهته ثم طار مبتعداً.

حاول تثبيت نفسه قدر الإمكان محاولاً عدم التفكير في المعدن الذي يحفر في أصابعه أو في حاشية الشرفة التي تحتّ جلد رسغه. من حسن حظه أنه كان يصوم منذ مدة طويلة، ولهذا تمكن من تحمل وزنه، وليس عليه الانتظار طويلاً على كل حال فهم سيعبرون الباب في أي لحظة. من المؤكد أن قدره هو التمسك أطول ما يمكن لنيل الشهادة على يد هذا الجمع. أليس ذلك هو السبب الذي انتهى به إلى الشرفة وحيداً تحت رحمتهم؟ بدلاً من اختيار شرفة غرفة النوم الأخرى حيث يوجد الناس من تحته والسيد تانيغا ينتظر من فوق لإنقاذه؟ بإمكان الإيمان أن يحرك الجبال كما يقولون، والآن فلديه نصيبه منه. ستحافظ أصابعه على قبضتها وسيبقى جسمه معلقاً طالما تمسك بإيمانه.

كانت المفارقة شديدة هنا. فالسبب الذي يطارده كل هؤلاء الناس من أجله هو حصول تجربة له مع رؤيا من الغيتا من كتابهم المقدس. ما هذا المنطق الشاذ الذي يساوي بين تلك الرؤيا والكفر في عقولهم؟ وتأرجح من القضيب الممسك به في تأمل مهيب. كم مضى عليه من الوقت منذ أن قرأ الغيتا؟ عشر سنوات؟ ربما أكثر؟ أليس من المدهش

أن يظل شيء كان قد قرأه منذ سنين طوال مدفوناً في عقله الباطن، وأن يظهر له فجأة من خلال حلم؟

توقف عن التأرجح. ما هذا الذي يفكر به؟ لم يكن ما رآه حلماً بل رؤيا ووحياً من فيشنو نفسه، وليس للأمر علاقة باطلاعه على الكتاب من قبل.

أم ترى هل ثمة علاقة بينهما هنا؟ ألم يكن حقيقة أنه إذا ولج العقل شيء ما، فيظل هناك على الدوام؟ قد يكون في طور سبات ولكن ليس من دون إمكانية إنعاشه من جديد؟ أليست معرفة عامة أن للناس ذكريات تنبعث لهم من مكان ما، وأنهم تحدثوا بلغات سمعوها فقط ولم يتعلموها، وأن كوابيس تزورهم حول حوادث جرت عندما كانوا أطفالاً ونسوها منذ أمد بعيد؟ هل نسي بالكامل كتاب تفسير الأحلام؟ فما الذي ليس طبيعياً تماماً حول مثل ذلك المشهد الحيوي، يدس نفسه في أحد أخاديد ذهنه المنعزلة ممضياً وقته في حذر إلى أن تحين الفرصة المناسبة ليثب خارجاً ويقدم نفسه؟

كلا، فها هو يخطئ مرة أخرى، لأن الصور النابعة من العقل الباطن لا تكون أبداً بالدقة نفسها والوضوح مثل رؤياه، ولا بد أن يكون يقظاً الآن ولا يعود إلى حالته السابقة، بإمكان المرء أن يفسد أي تجربة مهما كانت درجة قوتها وتأثيرها الملهم، بإطلاق سراح كلاب التشاؤم الضارية عليها. كلا فلن يسمح لها بالخروج، ليس في هذه المرة. لقد وصل إلى هذا الحد بناءً على تجربته، وبناءً على الإيمان الذي أحس به يزدهر في أعماقه. إنه الإيمان نفسه الذي يحمي قبضته المسكة بقضيب المعدن والذي يمنعه في هذه اللحظة بالذات من السقوط على الأرضية من تحته. هذا هو قدره في هذه الحياة، أن يكون قائداً، وأن يكون رسولاً، ولن يسمح لشكوكه الآن بإفساد قدره.

لكن هل يبدو قدره هذا منطقياً؟ أن يضحي بحياته على أمل انبعاث حياة أخرى؟ أي نوع من المقامرة الجنونية هذه؟ أن تؤمن وأن يكون لك عقل متفتح فهذا شيء مختلف، ولكن هل جُنّ بالكامل؟ ولمَ هذا الحماس الشديد للتخلي عن كل ما تشرّبه في السابق، ومن إنكار لسني تعليمه، وكل ما تعلمه من فحص وتدقيق؟ ما فائدة إيمانه على كل حال

إذا كان سيسنده لمدة تكفي فقط ليشهد على سقوطه كي يلقى حتفه؟ ألن يخدمه التشبث بحياته أكثر من التشبث بمثل هذا الإيمان؟.

بدأ يشعر بقبضته ترتخي. من المؤكد أن الشك هو الذي يزيّت أصابعه بشكل ماكر، ولهذا بدأت تنزلق الآن. لا يبدو أن هناك طريقاً آخر - فالفناء ينتظر تحته بفارغ الصبر في كلا الحالتين، سواء اختار دعم إيمانه أو تجاهله. وإذا ما اختار الاتجاه الأول فسيكون شهيداً على الأقل عوضاً عن مجرد شكل يرتمي على الإسمنت من تحته. أم ربما لم يعد اختياره يعني شيئاً. ربما تجاوز الحدود وبدأت الجاذبية تشعر بالتعب الشديد من محاولات إغوائها بجسده المعلق في الهواء. وأحس بأن أصابعه قد بدأت تنحلّ وتفقد اتصالها بالقضيب واحداً تلو الآخر، ووجد نفسه يحاول الإمساك بالمعدن، ثم بالحجارة، ثم بالهواء.

كان هناك اصطدام عندما انهارت أخيراً مقاومة باب غرفة النوم. ثم أحس السيد جلال بجسمه يسقط بالبهجة نفسها التي تسقط فيها ثمرة الكاكايا الضخمة من شجرتها، وجاءته الأرض محيية بسرعة مدهشة.

* * *

يرتقي فيشنو الدرج كما فعل طوال حياته على الرغم من أنه لا يحس بالأرضية من تحته. يرفع ساقاً ثم الأخرى في أثناء صعوده الدرجات وكأن الجاذبية ماتزال تشده إليها. يفكر في نفسه بأن هذه هي آخر سلالم يصعدها قبل أن يصبح إلهاً، ولهذا سيقوم بهذا العمل كما يقوم به أي إنسان، سيكون بمثابة تعويذة لقابليته للفناء وتوديع لكينونته الجسمانية.

بإمكانه الإحساس بتوقعاته تزداد في أثناء اقترابه من القمة. ما الذي سيجده أمامه؟ هل سيكونون جميعاً هناك يتابعون كل درجة يصعدها، وينتظرون للاحتفال بوصوله بينهم؟ يسمع صيحات التأييد وهو يصعد الدرجة الأخيرة. هل هذا هو شيفا الذي يأخذ تاجه ويلمعه بكم قميصه؟ وبراهما يضعه على رأس فيشنو ويربت على ظهره؟

يشعر بخرطوم فيل يلتف من حوله ويرفع جسده عالياً فوق مستوى الآلهة المحيية ـ إنه **غانيش** يقذفه في الهواء، وهناك يرى قردة تلتف حول الهوائيات معلقة من أذيالها، وزعيمها المقدس **هانومان** يتأرجح في وسطها بين عمود وآخر. وهذا اللحن الذي يسمعه بين صوت التصفيق والرقص ـ هل يحتمل أن يكون **كريشنا** ينفخ في قيثاره الفريد في مكان ما؟

إله واحد فقط لا يشارك في هذه الاحتفال ـ يراه فيشنو مرتدياً ملابسه باللونين الأحمر والأخضر، ويقف بعيداً عن الباقين. يومئ الإله بوقار ويرفع صولجانه محيياً، لكن فيشنو لا يتعرف عليه.

غير أنه يقول في نفسه كفى، كفى، من هذه الآلهة. بالتأكيد ستكون لاكشمي بينهم أيضاً، وتمشط عيناه المجموعة بإثارة ولهفة. يتساءل أين آلهته رادها و أمبيكا و روكميني؟ حبه الدائم ونصفه السرمدي الثاني، التي تعطيه العون الذي لا يكتمل دونه.

واحداً بعد الآخر تبتعد تلك الأجسام الإلهية عن بعضها، فيرى هيأتها تبرز من بينهم، مثلما يظهر القمر من خلف الغمام ومثلما تظهر النجوم بعد المطر. تتوجه نحوه وجسدها مبلل من نهر الغانغا، تكلل صدرها الزهور، وتنطلق العطور من جلدها. تمد أيديها الأربعة نحوه ويكتشف لعجبه أنّ باستطاعته الإمساك بكل واحدة منها بيد من عنده.

يشعر بأصابعها تربت على أصابعه، ليس بالحسّ الآدمي لفعل اللمس الذي لم يعد يملكه، ولكن باتصال أكثر دلالة وعمقاً ـ هو ما تجده الأرواح عندما تتعانق كما لو أنها من شحم ولحم. تجذبُ أذرعها جسمه إليها ويتسرب الإحساس إلى صدره، ومعدته، وحجره، وإلى حيث باستطاعته أن يصل. تتفتح البراعم وتتحول إلى فاكهة بينهما، وتسيل جداول الحليب حول جلديهما. ينظر فيرى حقولاً من الخردل تبرعم حولهما، وترتفع رؤوس النبات الصفراء نحو الشمس. تلمس بشفتيها شفتيه فيتذوق خصب الغابة وحلاوة الينابيع. ينظر إلى وجهها الذي رافقه خلال حيوات عديدة ـ فهو جزء منها وهي جزء منه.
يدخل جسده إليها، وهي كما الأرض تنفتح لتمكنه من الدخول. ويجد نفسه يُحمل بعيداً

فوق منحدرات هيمالاوية، وخلال وديان من أشجار الساج والصنوبر ووديان من الماء الرقراق البارد تنحدر لتصب في نهر الغانغا. يغوص أعمق ثم أعمق، وتغلب الأحاسيس على فكره ثم تلتحم مشاعره وعاطفته حتى لا تبقى إلا عقدة وحيدة من الطاقة التي تحتبس بين جسديهما، طاقة تتراقص وتفرقع مثل قوس كهربي يمر عبر سلك رفيع، ومثل أشعة الشمس الحبيسة داخل بلورة. يشعر بنفسه وهو يُسحبُ أبعد من ذلك، ويشعر بالطاقة تنغلق عليه وبجسمه يتحد معها. اتحاد هو من الشدة إلى حد الإيلام. وللحظة تتاح له الفرصة لرؤية وجهها بوضوح: تجتمع الشفتان في نصف ابتسامة، ويزين الندى زوايا عينيها المغمضتين. ثم يأتي الانفجار ويتطاير جسداهما ليكونا نجوماً تمرق عبر السماوات، وتعمّر أقاصي الكون.

«في كل حياة يعيشانها»، يستمع إلى صوت أمه، «وفي كل تجسد يتقمصانه، سيجد كل منهما الآخر ويتحدان مرة بعد الأخرى».

لكنه مايزال فوق الدرج، ولاكشميه توجد فوق في مكان ما، منتظرة أن تشتعل معه، لكن شريطة أن يكون إلهاً وليس إنساناً.

إله أم إنسان، إله أم إنسان. يشغل هذا السؤال باله مع كل خطوة يتقدمها، فقد مر بهذا الأمر من قبل مرات ومرات. فكل هذا السحر المتعلق بصعوده ـ ما الذي يمكن أن يفسر ما يتمتع به من قوى إذا اتضح أنه مجرد إنسان؟.

فجأة تأتيه إجابة توقفه في منتصف الخطوة. ماذا لو كان في مرحلة الموت؟ ماذا لو أن هذه القدرات الجديدة لم تكن قوى وإنما مجرد أعراض ـ أعراض الموت؟ ماذا لو أنه يصعد الآن نحو الفناء وليس نحو الخلود؟ تمتد الدرجات اللولبية أمامه وهي قليلة جداً حتى ليمكنه عدّها ـ ماذا لو أن هذا كل ما تبقى بينه وبين النهاية؟ يتخيل وصوله إلى القمة وفتحه الباب ليجد أن الآلهة كافة قد اختفت. كلها عدا الهيئة الملتفة في الأخضر والأحمر، والواقف عند الحاجز. يلتفت الشكل نحوه ويشير إليه بصولجانه كي يقترب منه، وتنقلب المعرفة إلى صدمة له، فلم يكن سوى (ياما) إله الموت.

يحدق فيشنو إلى الأعلى نحو باب السطح. الذي كان منفرجاً ـ هل ثمة شخص خلف الباب ينظر إليه من الأعلى؟ ويتساءل إن كان يجب عليه العودة إلى الخلف وهبوط الدرج، لمحاولة استرداد جسمه وإعادة شريط حياته إلى الخلف. أم أن عليه الاستمرار في الصعود وأن يفتح الباب بقوة، ويتعامل بجرأة مع من يوجد خلفه؟ ينظر إلى السلالم التي صعدها لتوّه ـ بدت له مربكة بشكل غريب وكانت تميد أمام عينيه وتتأرجح في الظلام. فقد تسلق مسافة بعيدة وعمل بكل قوة ـ ولا يمكن أن يعود أدراجه.

ربما الإجابة هي ألا يمكِّن عقله من التردد، وأن يجعله يركز على الخلود الذي وُعد به. حتى لو أن من خلف الباب ليس إلا ياما، فما الذي فقده بالفعل؟ هل تعجبه حياته الحالية كثيراً إلى الحد الذي لا يمكنه التخلي عنها؟ هل يعد شكل هذه الحياة جبريّاً بحيث لا يمكنه تبديله بشكل غيره؟

يستمر في الصعود متجاهلاً صوت «إله أم إنسان، إله أم إنسان»، الذي يتردد مع كل خطوة، وعوضاً عنه يترك كلمات أمه تملأ ذهنه.

« ذات يوم سيجد فيشنوي لاكشمه، وسيظهر النسر غارودا ليطير بهم إلى فايكوناثا».

يتخيل نفسه يفتح باب السطح في الوقت ذاته، الذي يحط فيه النسر من السماء وتتناثر أشعة الشمس مثل ذرات الذهب منعكسة فوق رأس غارودا، تبرق فوق عنقه وتنسكب خلال ريشه، ومربوطة بخيوط بنفسجية على ظهره إلى العربة التي سيُحملان فيها بعيداً.

يحك غارودا رأسه في ترفق برأس لاكشمي، ثم ينحني لها كي تصعد إلى العربة ومن هناك تلوح إلى فيشنو فيركض عبر السطح لمرافقتها، ولكن قبل أن يصل إليها يسد عليه **ياما** طريقه بصولجانه.

«لا تسرع يا صديقي»، يقول **ياما** ويدفع صولجانه نحو فيشنو. فيخادعه فيشنو محاولاً التملص منه، ولكن يبدو أن **ياما** موجود في كل مكان.

«حان وقت الراحة»، ويلوح بالصولجان في وجه فيشنو، وعلى الفور يحسّ فيشنو بأن حيويته بدأت تتلاشى.

«نم يا صديقي»، يقول له ياما، ويأتيه صوته من مكان بعيد.

يعرف فيشنو ضرورة أن يظل يقظاً وألا يسقط في حبائل ياما، ينظر حوله باحثاً عن العربة، لكن لاكشمي وغارودا طارا مبتعدين. ماذا قالت أمه، وكيف يمكنه إعادتهما، وكيف يصل إلى فردوس فايكونثا؟ يركز على صوتها من جديد ولكن الكلمات التي تقولها ليست هي نفسها.

«عندما يقارب عصر كاليووغا على النهاية سيخلد صغيري فيشنو إلى الراحة».

ليست هذه بالرسالة التي يرغب في سماعها، يحاول تغيير صوت أمه من جديد، لكن الرسالة التي يتلقاها لا تتبدل.

«سنطلق أنانتا الثعبان من البحر، وعلى التواءات جسمه اللامتناهية سيريح فيشنوي رأسه».

يتقدم فيشنو خطوة أخرى ويتخيل الجدران مغطاة بحراشف السمك من حوله، وبالأرضية تتحول ليّنة مثل اللحم تحت قدميه وكأنها جسم لكائن حي. ينظر إلى بيت السلّم فيراه يرتفع ويهوى أمامه مثل لوالب مخلوق خرافي.

«ستهوي الشمس، وستموت البحار بينما يغلق فيشنو عينيه»، يحاول الصعود على القطع الدائرية التي تنتصب عمودية أمامه لكنه يفقد توازنه ويسقط، وسرعان ما تسيطر عليه حالة من النعاس.

«سيتغشى النعاس فيشنوي، عندما يصل الزمان إلى نهايته»، تتوقف السلالم عن التلوي وتبدأ في فك نفسها من تحته، ويهتز جسمه في رفق بفعل التموجات التي تحته فيلتفت ويلقي نظرة بعينين نصف مغمضتين على الباب الذي يلوح أمامه، ويحاول أن يجر جسمه نحوه، فوق ثلاث، أو أربع الدرجات التي تفصله عنه.

«طوال دهورٍ سينام فوق الثعبان أنانتا، مستجمعاً كل قواه، ولا يفتح عينيه إلا حين يأتي زمن دورة حياته من جديد».

يدرك فيشنو أن وقت النومة الكبرى قد حان، فهو يكاد يصل إلى الباب ولا تفصله عنه إلا درجتان. يعتقد أنه مايزال بإمكانه إن يزحف إلى الأعلى وأن ينظر من خلال الباب، فكل ما عليه هو اجتياز العتبة كي ينال ما ينتظره من قوى، لكنه الآن في منتهى الإعياء وآخر ما يلاحظه هو خروج نملة من شق مقابل لوجهه، تبدأ في تسلق الدرج المؤدي إلى السطح، ثم تخمد الأصوات كافة وتخبو الأضواء، وبينما هو يغلق عينيه، يعتقد بأن فيلماً سينمائياً على وشك البدء.

الخامس عشر

« أخيراً يُعرض الفيلم، فهيّا لمشاهدته»، ينادي الرجل، «مضت عقود في إعداد فيلم موت فيشنو»، كان الرجل يجلس فوق كرسي أمام شباك تذاكر سينما مترو بالقرب من كتابة بحروف كبيرة تقول: «جميع التذاكر مباعة». وكان رواد السينما يتحركون في أرجاء المكان، وصفوف من البشر تمتد من أمام الشباك وتصل نهايتها حتى محطة القطارات عند الخطوط البحرية.

«فيلمٌ أفضل من بوبي، وأضخم من شولاي، شاهدوا موت فيشنو الآن!» يعمل الإسراف في الإطراء على زيادة أسعار تذاكر الشرفة في السوق السوداء، وارتفع السعر حتى الآن إلى خمس وعشرين روبية. لدى أحدهم تذاكر إضافية وينشب عراك عندما يندفع أحدهم لأخذها عنوة.

«يقوم أميتاب باتشان بدور فيشنو، ورتشما بدور بادميني، فتعالوا وشاهدوا الآن موت فيشنو».

يخرج فيشنو التذاكر من جيبه، أين بادميني؟ أخبرها بأن تكون هنا الساعة 06:30 مساءً، ويبدو أنهما سيفوتان الإعلانات التجارية التي يحبها كثيراً.

«استمعوا إلى الموسيقى من ألحان لاكسميكانت بياريلار، والرقص البديع من هيلين. هيا طرقعوا أصابعكم على أنغام أغنية الترتيب الأول (أنا فيشنو ملك الكون)، شاهدوا موت فيشنو الآن، أو انتظروا للحصول على التذاكر».

تخترق بادميني صفوف الناس وقد انقطعت أنفاسها، ويلاحظ فيشنو القلادة التي فوق صدرها وهي تعلو وتهبط مع كل تنفس تقوم به.

«أعتذرُ عن التأخير»، تأخذ في تنفيض ملابسها وكأنها مغطاة بالغبار»، يا له من جمع ضخم، ولكن كيف حصلت على التذاكر»؟

بينما كانا يجتازان مدخل دار العرض تضع يدها فوق يده: «وأخيرا نرتاد سينما محترمة».

يبتاع لها مشروباً بارداً، وسامبوسا، فتأكل الجزء المقرمش أولاً، ثم تأتي على البطاطس. «أووو، إنها لطيفة ومفلفلة»، قالت وهي تسحب قرن فلفل بأكمله من المحتويات وتضعه في فمها.

يبدأ العرض وتظهر أمّ فيشنو على الشاشة. كانا داخل الكوخ سوية وهي تغني له أغنية حول الألعاب التي سيمارسها عندما يقابل الطفل كريشنا. فجأة تنطلق عاصفة ويبدأ الرعد والبرق والمطر في قصف الكوخ، ثمّ ينفتح بابه وينطلق برقٌ عندما يدخل والد فيشنو. إنه الشرير بران، وعيناه بحمرة الدم وعضلات فمه تتقلص، وشفتاه مزمومتان في خط قاسٍ رفيع.

«أوه، يا أمي»، تقول بادميني وهي تلتصق به من فوق مقعدها.

بإمكانه أن يحس بيديها تمسكان بذراعه عندما يظهر مشهد الاحتفال بعيد الربيع. يرى نفسه يغني ويرقص في أثناء تقمصه لدور عيد الربيع؛ هولي، مع أمه، وتمتلئ الشاشة بالألوان، ثم ينتقل المشهد إلى أبيه الذي يكرع البهانج. وتلتصق ساقا بادميني بساقيه وبإمكانه أن يحس بارتعاشة تسري خلالهما.

يضع ذراعه برفق حول كرسيها، ثم يرفعها بحيث تلمس مؤخرة عنقها بخفة، أما هي فمندمجة بقوة في أحداث الفيلم لتلاحظ ذلك، ثمّ يترك ذراعه تحط فوق عنقها، في حين يمسح خدها برفق فوق كتفه. وكانت تقضم ما تبقى من السامبوسا، وتمسك بورقة اللف بين أصابعها فوق حجرها.

تلعب دور كافيتا ممثلة جديدة تدعى أوشا باهادوري، وفيشنو معجب بها كثيراً. خلال أغنية الديفالي فوق السلالم عندما تصعد أوشا وتهبط ممسكة بالمشاعل في يديها، يبدأ فيشنو في التصفيق مصاحباً للموسيقى، وكذلك يفعل بعض المشاهدين، فتنظر إليه بادميني في استهجان.

ثم تظهر رتشما التي تؤدي دور بادميني على الشاشة، فتنتصب بادميني جالسة في كرسيّها «كان عليها أن تفقد بعض الوزن قبل أداء الدور»، تحدثه بازدراء، «على الرغم من أن تمثيلها قد تحسن، شكراً لله»، تغني رتشما عدة أغان وهو ما يجعل بادميني سعيدة.

«هل تظن أنها أنصفتني؟» تسأله في قلق أثناء الاستراحة، ويطمئنها فيشنوا بأنها قد فعلت، «ستحصل على جائزة مهرجان السينما، ما عليك سوى الانتظار وسترين».

تطلب منه أن يشتري لها بوظة، فيتجهان نحو الصالة. يتركها واقفة بالقرب من ملصق لرتشما وأميتاب، لكن عندما يعود بقالب من البرتقال لا يجدها هناك، ثم تعود بعد دقائق

وقد تورّد وجهها قليلاً: «ذهبت لأرى دورة مياه السيدات. هل تعرف بأن مقاعد الحمامات هناك على الطراز الإنجليزي»؟

تنزع بادميني المغلف عن قالب البرتقال قائلة: «دعنا نذهب ونرى مقاعد الشرفة»، يقتفي أثرها فوق الدرج نحو الشرفة الدائرية، وتنظر بادميني تحت نحو الشاشة، ثم تلتفت وتنظر إلى الأعلى نحو صفوف المقاعد الممتدة حتى القمة، «المكان لطيف هنا، ولا بد أن هذه المقاعد تكلف أكثر»، ثم تلعق قالبها في كآبة.

يبدأ العرض من جديد، ويجد فيشنو نفسه مستغرقاً بالكامل في مثلث الحب الذي تجد كافيتا نفسها فيه. وتمتلئ عيناه بالدموع عندما تنحني كافيتا على البسطة بالقرب منه وتودعه، فيحاول ألا يجعل بادميني ترى بأنه يبكي.

هناك أغنية أخرى في أثناء لقطات استرجاعية له مع بادميني في سيارة السيد جلال عند قيادتها في طريق البحرية. يذهبان إلى الحدائق المعلقة، ويلي ذلك مشهد ممارسة الحب في السيارة. «يا سلام!» تقول بادميني محوّلة رأسها إلى الجهة الأخرى عندما يظهر فيشنو ملتصقاً بها على الشاشة.

تستمر القصة ويرى نفسه يصعد الدرج، ويتمنى لو يكون الفيلم أكثر وضوحاً حول الشيء الذي يصعد من أجله. وإن كان هو الإله فيشنو أم هو مجرد رجل عادي. يكاد في المشهد أن يصل إلى باب السطح عندما تنهض بادميني فجأة وتعتذر منه لذهابها إلى دورة المياه، ويشعر برغبة في تحذيرها للبقاء، فهم يقتربون من الذروة، والفيلم على وشك الانتهاء.

يُفتح باب السطح وينحني فيشنو في مقعده إلى الأمام، فهو لم ير هذا المشهد من قبل، ولا يعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك. يتمنى لو أن بادميني تشاهده معه الآن، لكن مقعدها خالٍ. ينظر إلى المقعد الذي في الجانب الثاني فيجده خالياً أيضاً. ينظر من حوله ليجد صفاً بعد الآخر من المقاعد الخالية تحدق نحو الشاشة في فراغ.

ينهض، فيكتشف أنه الشخص الوحيد الذي تبقى في الصالة. يصطدم الضوء من آلة العرض بأعلى رأسه محدثاً فراغاً يمتد ليصل إلى الشاشة، ويمشي نحو الشاشة فيصير ظله أصغر وأقل ارتفاعاً، إلى أن يصبح مجرد بصمة إصبع في قاع الشاشة. يصعد الدرج المؤدي إلى المنصّة ويستمر عرض الفيلم في الصالة الخالية، فتومض عدة صور لم تُر من قبل خلال الظلام.

يتوجه نحو منتصف المنصة ثم يدور ليواجه آلة العرض، الشاشة عبارة عن حقل ضخم مضيء من حوله، فيحاول أن يرى مقاعد الصالة لكن الضوء المنبعث من الآلة كان شديد القوة. على حد علمه فقد يعودون للصالة من جديد حيث تستعد بادميني وبقية المشاهدين للتصفيق عندما يقوم بانحنائه الأخير.

ينظر نحو الضوء بتمعن شديد، ويتخيل الشاشة وهي تتمدد عبر السماء من فوق سطح البناية، ثم تتبخر تلك الصورة في وهج آلة العرض. يتساءل عن الذي يجعل الضوء بتلك القوة، ولماذا لا يرى إلا الأبيض عندما ينظر إليه؟ أين الألوان الخضراء والحمراء التي تتراقص فوق ملابسه؟ ينظر إلى جسمه فيرى أنه مشبع بالأضواء. ذراعاه ويداه وساقاه تضيء بقوة، ويشعر بجلده يتشرب تألق اللون فيتشبع جسده به ويسري خلال دمه حتى يصل إلى رؤوس أصابعه. يبدأ هو نفسه في بث إشعاع التألق حيث يتمكن من إضاءة كل صف من تلك المقاعد الخاوية، ويطلي كل جدار بنور أبيض وهاج يزغلل العيون، إنه تألق يحول الستائر إلى صفائح من النور. وبينما ينظر فيشنو، يرى الصالة بأكملها تصبح متوهجة، ويلقي نظرة على نفسه، لكنه لم يعد يستطيع حتى أن يحدد أين يبدأ جسمه وأين ينتهي الضوء.

* * *

أول ما لفت انتباهه حول الجنة هو البياض الذي يغلب على كل شيء. فالسقف أبيض، والجدران كذلك، وهناك ستائر بيضاء يداعبها الهواء. بدا له ذلك منطقياً بالطبع - فالأبيض هو لون الضوء الذي لا يغيب - وهو يرمز للطهارة والكمال والنقاء. أليس ذلك ما يجب أن تكون عليه الجنة؟ حتى ضوء الشمس الذي يتسرب للداخل بدا له أكثر بياضاً الآن - هل يمكن ذلك لأن الجنة تقع في مكان ما قريب من الشمس؟.

اعتقد السيد جلال بأنه فعلها أخيراً. لقد نال الشهادة، وتساءل عما يمكن أنهم يفعلونه الآن من تحته على الأرض. هل اجتمعوا حول رسالته بعد، وحول فيشنو؟ أم أنهم مازالوا يحيطون بالجثة التي تركها خلفه، يلعنون عمى بصيرتهم، ويصلون من أجل الغفران، يجاهدون كي يلمسوا وجهه وقدميه وأي جزء من جسده المقدس؟ ربما سيتسلم السغائر وله أو البان وله مهامه، ويصبح القائد الجديد، لينشر الرسالة. أحس بأنه يجب أن يغفر لكل من عذبوه، وألا يحمل أي ضغينة في قلبه. هذا هو التصرف المناسب الذي يجب أن يتحلى به بعد أن صار في الجنة.

كان يشعر بالراحة لأنه اتخذ القرار المناسب، فرغم عدم تمكنه من التشبث بالشرفة، وعلى الرغم من أنه لم يتم إسقاطه منها كما خطط للأمر، فإنه قام بالمحاولة، وما سيحسب له أن الفكر الصحيح هو الذي كان مسيطراً على ذهنه لحظة سقوطه على الأرض.

أم أنه ليس كذلك؟ ألم يتردد، ألم تظلل عقله سحابة الشك في النهاية؟ من الصعب كثيراً تذكر ذلك. وعلى الرغم من أنه محاط بهذا البياض وهذه السكينة، فهل يمكن أن الأمور لم تجر كما يجب؟

تساءل إن كان يجب عليه النهوض واستكشاف الجنّة. عندما كان على الأرض لم يسمح لنفسه بالإيمان بها، لكنه سمع من الناس كل أنواع الادعاءات بشأنها، وسيكون من المثير اكتشاف إن كان أي منها صحيحاً - بوابات النور، وأبراج الذهب، وأنهار اللبن - ربما لا يوجد شيء من هذه، ولكن سيكون من الجميل وجود غرفة للتلفزيون يستطيع ساكنو الجنة من خلالها متابعة سير الأمور على الأرض.

جلس وسحب نفساً عميقاً من هواء الجنة العليل. لكن لماذا يبدو له برائحة المطهّر؟ وهل كان ما سمعه عبر النافذة هو صوت أبواق السيارات؟ وماذا بشأن هذه الجبيرة على ساقيه؟ وفجأة بدأ يلاحظ عدداً من الأمور المتنافرة - الخزانة المملوءة بالزجاجات والبرطمانات، وجهاز قياس ضغط الدم على الطاولة، ووعاء التبول عند الباب، والأشباح البيضاء التي تمر عبر الممر في الخارج - هذه التي ظنها أشباحاً، ألم يكن ما يرتدونه هي بدل التمريض؟

«كيف تشعر الآن؟» دخل أحد الأشباح وبدأ يقيس نبضه. «أنت محظوظ للغاية، لكي تقفز

بهذا الشكل، ولا تتكسر كثيراً».

وتمكن من السؤال: « أين أنا؟».

«أنت في مستشفى بهاتيا، وزوجتك ترقد في الغرفة المجاورة.»

«زوجتي؟».

«يحاولون القيام بما يستطيعون من أجلها»، وضاقت عينا الشبح وهما تحدقان فيه بقسوة أربكته، «ضربها أحدهم بقوة كما تعلم».

«ماذا تقصد؟».

«ربما لديها نزيف داخلي».

وضع الشبح حبة دواء في فمه وسلمه كوب ماء في يده، «الشرطة في انتظار أخذ أقوالك حالما يكشف عليك الطبيب»، قال الشبح وهو يمرق بخفة خارج الباب.

جلس السيد جلال ممسكاً كأس الشاي، وصوت بوق شاحنة ينطلق بلا انقطاع من الطريق تحته. لاحظ حواشي الستارة البالية والغبار على حافة النافذة والمباني المصطفة ببلاهة على خلفية السماء الخالية من الغيوم. لم يمت إذاً، وليس هو بشهيد، وليست هذه بجنة. حاول استيعاب ما قالته الممرضة وسبب حدوث كل ذلك؟ هل هو نتيجة لما قام به تجاه قضيته؟ هل يمكن أن كل هذا جزء من اختبار له، وجزء من الكفّارة المتوقعة منه؟ أهذا هو الثمن المرتبط بالإيمان؟

ولكن عريفة؟ ما الذي فعلتْه ـ ولمَ هي التي تُجبر على دفع الثمن؟ تساءل عما سيحدث لها وماذا سيقول للشرطة وما الذي سيفعلونه له. هل سيخبرهم عن فيشنو؟ هل سيخبرهم عن رؤياه؟ هل إيمانه بالقوة الكافية لإقناعهم وإقناع نفسه؟.

أخذت حبة الدواء تذوب في فمه وتذوّق طعم المرارة يتسرب إلى لسانه. أليس الدواء في النهاية مسألة إيمان؟ إيمانٌ بأن الأطباء يعرفون ما شخصوه، وإيمانٌ بأن وصفتهم الدوائية ستؤدي إلى الشفاء، وإيمان بأن الحبة التي تذوب في فمك ستشفيك لا ستقتلك. ألم تقم مستشفيات بأكملها اعتماداً على الإيمان؟ الأرضيات التي تسند الأسرة، والجدران التي تمسك بالأرضيات، وأحجار البناء والإسمنت والملاط. والمرضى الجالسون في أسرتهم

يمسكون بملاءاتهم وأغطيتهم ويرتجفون في أثناء تسرب الدواء إلى أجسامهم، متسائلين عما يفترض أن تعالجه تلك الحبوب.

شعر بنفسه يهوى من علو للمرة الثانية في ذلك اليوم. ولكن هذه المرة ليس هناك فناء يتلقى سقطته ولا أرض تفصله عن السواد الذي انفتح من تحته.

* * *

هذا البيت الذي ترعرعت فيه، وإلى هذا البيت تعودين الآن.

من يمسح دموعها، بينما قدماها تحملانها عبر المدخل؟

حاولت كافيتا تذكر كلمات الأغنية. هل هي نوتان أم مينا كوماري التي تغنيها؟ بإمكانها رؤية الفيلم الآن أمام عينيها عندما أخرجت الأرملة الشابة من بيت زوجها، وأجبرت على العودة وحيدة للقرية التي ولدت فيها.

بالطبع لم يمت سليم بل فقط هو غير مناسب لها. اتضح لها ذلك منذ الليلة الأولى التي أمضتها معه. يا له من مكان غريب هذا الذي يأخذها إليه... غرفة الانتظار في محطة قطارات فيكتوريا، الساعة الثالثة صباحاً، في حين أن أول قطار إلى جهانسي لن يتحرك قبل السادسة. سألته وهي تحاول أن تجد مكاناً مريحاً بين هذا الحشد من الناس، وبالأخص بين هؤلاء الأطفال الباكين، ألم يكن من الأفضل لو أنهما انطلقا في وقت متأخر. نظرت كافيتا إلى أمهم وأصابتها ارتجافة، فهي فتاة مسلمة ترتدي البرقع، ولم تكن بعيدة عنها في العمر.

وجهانسي هذه؟ أي نوع من الأماكن التي يهرب إليها المرء؟ جهانسي؟ كل ما تشتهر به هي الأميرة راني جهانسي، ولكن ذلك كان في القرن المنصرم - أم أنه في القرن الذي سبقه؟ كانت تراودها رؤيا كل من كولو، أو شيملا، أو دار جيلنج، وهي الأماكن التي حلمت بالذهاب إليها، وقامت بحملة من أجل ذلك طوال الأسابيع الماضية طارحة حولها بعض التلميحات. لكن سليم رأى أن تلك الخيارات كافة غير عملية، قائلاً إنّ له صديقاً حميماً في جهانسي، سيبدأ معه في أعمال إصلاح السيارات.

أحست برغبتها في أن تقول له، ألا يستخدم الناس السيارات في أجزاء مختلفة من البلاد أيضاً؟ ثم وظيفة إصلاح السيارات بالذات، مع كل تلك الزيوت والشحوم، أهذا كل ما كانت تصبو لأن تستنشقه كل مساء؟

«ولكني أحب السيارات»، يقول سليم، فتحاول مواساة نفسها بأن السيارات أكبر وأهم من مضخات فولتاس.

كانت الفتاة في البرقع تواجه مشاكل في إرضاع طفلها مع وجود الثاني نائماً في حجرها، والثالث يصرخ بصوت عال بالقرب منها. صوّبت نحو كافيتا نظرة عاجزة، لكن الأخيرة أشاحت وجهها بعيداً محدقة بدلاً من ذلك في لوحة الإعلانات وعليها أسماء القطارات. لكن الفتاة مالت إلى الأمام وربتت على ركبة كافيتا، طالبة منها أن تأخذ الطفل النائم لديها ريثما ترضع الأصغر، ولم يكن أمامها من خيار إلا الموافقة. تلقفت منها الرضيع بابتسامة مغتصبة وأمسكته في حجرها بطريقة شاذة، متسائلة إن كان ما يرتديه من ملابس سيكون عازلاً كافياً ضد البلل. تخيّل أن تسافر في مقصورة الدرجة الثانية إلى جهانسي، بملابس ملوثة.

في الوقت نفسه لايزال الطفل الأكبر يبكي، فطلبت منه الأم الوقوف بجانب عمته. وأحست كافيتا بوجهها يحمرّ، فلم يسبق وأن أطلق عليها هذا اللقب من قبل. أحست برغبة في الاحتجاج ـ لست متقدمة في السن، شكراً لك، لأكون عمة لأحد. وتقدم نحوها الصبي راشفاً أنفه، وواضعاً أصابع إحدى يديه في فمه. التصق بها تماماً، وأحست بنفسها محاطة برائحة الأطفال الحادة، مختلطة بشيء من البول والقيء، وفجأة أخرج الصبي الأصابع من فمه، وألقي بتلك الذراع حول رقبة كافيتا، التي حاولت ألا تتخيل اللعاب يسقط على شالها.

«إنه يحبك»، قالت الأم، «انظري لقد توقف عن البكاء، قل أهلاً لعمتك يا إعجاز». وأطلق الطفل الذي يرضع من صدرها خرخرة، «أنتما حديثا الزواج أليس كذلك؟ سرعان ما تتعلمين كيف تمسكين بالأطفال بطريقة صحيحة، فلا تشغلي بالك».

ابتسمت الفتاة، ولاحظت كافيتا السنين المكسورتين في الصف الأمامي من فمها.

« إلى أين تذهبان؟».

«جهانسي»، أجابت كافيتا.

«جهانسي؟ ولكن نحن ذاهبون هناك أيضاً، وهي مدينة رائعة، إنها ليست كبيرة ومزعجة مثل بومباي، فليس فيها مبان كبيرة وصناعة سينما، وهي أكثر هدوءاً. ولدتُ هنا ولكني رُزقت بثلاثتهم بمجرد انتقالي إلى جهانسي، واحداً تلو الآخر، فوت. فوت. سترين بنفسك»، وضحكت الفتاة.

«ربما نجلسُ سوية في القطار فزوجي لا يحب سفري بمفردي».

في تلك اللحظة عاد سليم من مكتب بيع التذاكر، «تبدو عليك مظاهر الأمومة برفقتهما»، قال بعد مشاهدة كافيتا بطفل في حجرها، وآخر يلتصق بطرفها.

في البداية العمومة، والآن الأمومة. لا فهذا أكثر مما تتحمله في ليلة واحدة. «إليك، أمسك بهما»، قالت دافعة بالطفلين نحو سليم، «أحتاج إلى دورة المياه».

وصلوا حتى ناسيك، وقد وجدت الفتاة المصاحبة للأطفال مقاعد بجانبهم، وأبدت كافيتا غضبها طوال المسافة لاضطرارها إلى تحمل معاناة مقصورة الدرجة الثانية التي لا يتم حجز المقاعد فيها. وعند وصولهم إلى ناسيك وجهت له إنذاراً. إما السفر بالدرجة الأولى أو نزولها لتستقل قطاراً يعود بها إلى بومباي.

«وبالطبع فكل ما تريده طفلة أبيها المدللة، ستحصل عليه»، قال لها.

«وأنت مجنون إن اعتقدت أنني سأعيش ما تبقى من حياتي مع ميكانيكي سيارات».

«لا تتحدثي مع زوجك بهذه الطريقة»، وبختها الفتاة بعينين واسعتين.

«ليس زوجي»، أجابتها وكان ذلك كافياً لإسكاتها.

ترجلت كافيتا من القطار وأملت أن يلين سليم ويلحق بها، وبينما انطلقت صافرة القطار وبدأ المحرك في الدوران اعتقدت أنه سيأتي إلى الباب في اللحظة الأخيرة ويرمي نفسه على الرصيف من أجل حبها. وعند ذلك ستنظر في أمر استعادته - ولكن ليس دون بعض الشروط - إلغاء السفر إلى جهانسي، وإلغاء عمل ميكانيكي السيارات. لكن سرعة المحرك زادت وبدأت المقصورات تمرق أمامها، ولم يكن باستطاعتها حتى التعرف على المقصورة التي كانت فيها. لوهلة أصيبت بالرعب لأنها تركت حقائبها في القطار قبل أن تتذكر أنها لم تأخذ معها أي حقائب. ثم بدأ دخان أسود كثيف يخرج من المحرك، واختفت عربات القطار في النفق واحدة تلو الأخرى، والعلامة الوحيدة التي تبقت من القطار هي الرائحة النفاذة التي تركها في جو المحطة.

ها قد عادت الآن إلى بنايتها من جديد، وهي لا تصدق أن أربع عشرة ساعة فقط مضت منذ رحيلها. القضية الآن هي كيف ستشرح غيابها لأبويها؟ والأهم هو كيف ستشرح لهما قرارها؟ قرارها بعدم الزواج من سليم أو بران.

كلا ستصبح نجمة سينما. ستصبح بطلة، وملكة الأضواء ولن يأمل رجل واحد في امتلاكها، بل سيتطلعون إليها بتوق على الشاشة. ستكون حياتها خرافية مثل التي تقرأ عنها في مجلات ستاردست، ومعرض الأفلام.

*

حدق مفتش الشرطة في السيدة آسراني.

«تريدين القول إنك كنت هنا طوال اليوم ولم تسمعي شيئاً؟».

«كلا»، قالت السيدة آسراني، وجفلت قليلاً، لأن نفيها خرج أكثر حدة مما أرادت، فالبراعة هي أن تقولها دون أي علامة للتوتر العصبي، وقالت مجدداً لكن بهدوء أكثر هذه المرة «كلا.. كنت أشاهد مباراة الكريكت في التلفزيون منذ الصباح».

«إذاً فأنت لا تعرفين مثلاً أن السيدة جلال نقلت إلى المستشفى مغمىً عليها، وأن السيد جلال كسرت ساقاه إثر سقوطه في فنائكم؟» وشدد المفتش على كلمة «فنائكم».

«هل هما بخير؟» والآن حمل صوت السيدة آسراني نبرة قلق جيرانية، ولكن بالقدر الضروري الذي يتوجب إظهاره تجاه شخص يعيش في الجوار.

«أما السيد جلال فسيعيش، ولكننا لا نعرف مدى فداحة إصابة زوجته».

«هذا فظيع»، وأحست السيدة آسراني بالذنب لكل ما تمنته من سوء للسيدة جلال، آملة ألا يرتد أي منه نحوها. وأسرّت في نفسها مذكّرة من قد ينصت إليها في هذه اللحظة - بأنها لم تطلب هذا، وبالنسبة إليها كانت كدمة هنا أو هناك ستكفيها.

«أين ابنتك يا سيدة آسراني؟».

«إنها نائمة، لماذا؟»

«أرى أنها ليست من مشجعي الكريكت».

«عندما يكون في المباراة لاعبون معينون فقط».

«هل بإمكانك إيقاظها، من فضلك ؟»

«أهذا ضروري ؟ فهي ليست إلا طفلة».

«علمتُ أنها» وراجع المفتش مفكرته، «علمت أن عمرها ثمانية عشر عاماً ونصف. هل تعتبرينها طفلة؟».

حاولت التلصص على مفكرة المفتش لمعرفة ماذا كتب فيها أيضاً، لكنه غطى كتابه ونظر إليها بصرامة.

«سأذهب لأحضر ابنتي».

عندما فتحت السيدة آسراني قفل الباب ودخلت كانت كافيتا تجلس في غرفتها بوجه شاحب.

«لا يمكنك أن تبقيني سجينة هنا، فأنا راشدة الآن. سأخبر المفتش ولن أجبر على الزواج من بران، سبق وأن أخبرتك برغبتي في أن أصبح نجمة سينما فلماذا لا تنصتين إلي؟ لماذا لا تتركوني أفعل ما أريده؟»

«انظري إلي أيتها الفتاة المارقة. أنت واقعة في مشكلة كبيرة حتى الآن، فقد حاول السيد جلال قتل زوجته لأنك هربت مع ابنه، ثم حاول الانتحار وكاد ينجح، وكل ذلك بسببك. فمن ستقتلين بعد ذلك بعصيانك هذا، أمك أم أباك؟».

أخذت كافيتا تنتحب.

« أصغ إلي الآن. إن لم ترغبي في أن ينتهي بك الأمر في السجن، وإذا مازلت تريدين أن تظهري وجهك في الخارج من جديد فعليك إبلاغ المفتش بأنك كنت هنا ليلة البارحة. الليلة بكاملها. وهو ما قاله السفائر وله والبان وله، فهما يفعلان ما أمكنهما لمنع الفضيحة من الانتشار وذلك من أجلنا ومن أجلك. وتذكري أنك لا تعرفين شيئاً عن آل جلال، مفهوم؟»

«ولكن لم أكن هنا، وكنت مع سليم وسيخبرهم بالأمر عند يسألونه بعد عودته. سنقع في المشاكل، وستأتي الشرطة للقبض علينا».

«ماذا سيفعلون؟ يقبضون على كل سكان البناية؟ ما قيمة كلام سليم. أفلام هذا، بالمقارنة معنا جميعاً؟ ومن تظنين أنهم سيصدقون؟».

«لكن الحقيقة ستظهر».

«أي حقيقة؟ لقد أخبرتك الآن الحقيقة وهي أنكِ كنت هنا طوال الوقت، وأنك لا تعرفين شيئاً آخر، وعليك أن تدخلي هذا إلى رأسك إذا رغبت في إظهار وجهك أمام الناس مجدداً.

تتسللين إلى مكان لا يعلمه إلا الله في منتصف الليل!» توقفت السيدة آسراني، ثم سحبت نفساً عميقاً.

«أخبرتُ المفتش أنك نائمة»، ثم حاولت تجفيف عيون كافيتا. «حاولي أن تظهري وكأنك قمت من النوم لتوك، وليس من البكاء».

عندما عادت إلى باب الشقة مع ابنتها، وجدت المفتش عند مدخل شقة آل باتاك يستجوب صاحبتها التي كانت للمفارقة أيضا تشاهد المباراة منذ الصباح.

*

«وماذا عن زوجك ؟» سألها المفتش.

«أووه، فهو مشجع متعصب»، وكانت يدها تعبث بالقلادة التي ارتدتها مسرعة فوق ملابسها المنزلية عندما رأت المفتش من خلال فتحة القفل، «لم ينزل زوجي حتى إلى الشارع منذ أن بدأت المباراة - صدق أو لا تصدق أنه لم يذهب حتى إلى السفائر وله - وهو السبب في أننا لا نملك أي فكرة عما حدث. من المستحيل إبعاده عن التلفزيون رغم أنه يذهب في العادة إلى المعبد في صباح الآحاد. ولكن الكريكت يلهي عن الله كما أظن». ورفعت السيدة باتاك كتفيها تعبيراً عن العجز، لكن المفتش لم يبتسم.

«هل تريدني أن أحضره لك ؟»

«كلا، لن يكون ذلك ضرورياً».

استدار المفتش نحو كافيتا. «وأنت يا آنسة. هل كنت تشاهدين الكريكت أيضا؟»

حانت اللحظة، وها هي فرصتها كي تتصرف. ستثبت لأمها بأنها وُلدت ممثلة، وأنها لا يجب أن تُمنع من أداء دورها.

تثاءبت كافيتا ومطت رقبتها، ثم ربتت بأطراف أصابعها في كسل على رموشها. «كنتُ نائمة»، قالت ممررة أصابعها خلال شعرها وهي تتثاءب من جديد في أداء مثالي لشخص نهض من النوم لتوّه.

«ولماذا أنت نعسانة هكذا يا آنسة؟ هل خرجت للقيام بشيء ما ليلة البارحة؟»

«لا كنتُ هنا في البيت، وأين سأذهب؟».

«يقول السيد جلال بأن شالك تُرك على البسطة ليلة البارحة».

والآن حان دور الشخص الذي صُدم لتوّه. اتسعت عينا كافيتا من الدهشة، حتى أصبحتا في حجم قطعة نقود الأربع أنّات، وانفتح فمها بالقدر المناسب ليبيّن المفاجأة مقرونة بالفزع، ورفرفت يداها إلى جانبها بغضب ولكن بلا حيلة أيضاً.

«لماذا يقول هذا الكلام بحق السماء؟».

«ليس هذا كل شيء»، قال المفتش ممعناً النظر في كافيتا، ثم في السيدة آسراني، ثم السيدة باتاك، وكان حتى هذه اللحظة يحتفظ برواية السيد جلال للقصة، «يقول السيد جلال أيضاً بأن جمْعاً من الغوغاء اقتحم بيته وكان من بينهم السفائر وله، والبان وله، والكهربائي، لسؤاله عن مكان وجودك. ثم ضربوا زوجته بخيزرانة ورموه من الشرفة».

كانت كافيتا في معرض اتخاذ قرار حول الجملة التالية في أدائها عندما انطلقت أمها، «هل رأيت ذلك؟ هل رأيت كيف يكذبون؟ على الدوام كان ابنهم يعاكس ابنتي والآن يختلقون هذه القصص. وأنا أسألك أيها المفتش: هل هذا عدل؟ هل من العدل أن تشوّه سمعة هذه الفتاة المسكينة وأن تمرّغ في هذا الوحل؟».

وعندما رأت صمته تشجعت على الاستمرار.

«يوماً بعد آخر كانت حالة الرجل تزداد سوءاً، ولم يقم أحد بشيء حيالها. قلت للسيدة جلال: خذيه إلى المستشفى، ولكن هل كانت تنصت قط؟ والآن بعد أن تعفنت ثمرة الفاكهة يحاولون وضعها في أطباق الآخرين. انظر كيف يحاولون جرنا جميعاً إلى هذه المشكلة. وهذان المسكينان، السفائر وله، والبان وله، لو أنهما لم يستجيبا لصراخ السيدة جلال، ولم يقتحما الباب لأجهز عليها».

بدأت كافيتا تقول شيئاً لكن أمها لم تنه حديثها بعد: «شيء وحيد أريده الآن، وهو ألا تتورط ابنتي في هذه القضية، فقد جاءنا الآن عرض بالزواج منها ـ والآن يحدث هذا الأمر. هل لديك بنات أيها المفتش صاحب بحيث تعرف السهولة التي يمكن بها تشويه سمعتهن؟»

رد المفتش بأنه غير متزوج وأنه دوّن كل ما قالته السيدة آسراني. «وأنت يا سيدة باتاك، هل تعتقدين أن السيد جلال كان يتصرف بجنون؟»

«أيقظتنا الغاناغ هذا الصباح وطلبت منا النزول. هناك كان السيد جلال ينام إلى جانب فيشنو، هل تصدق ذلك؟ لا بد وأنه قضى الليلة بأكملها هناك بدلاً من قضائها في بيته. وعندما استيقظ ادّعى بأن علينا أن نعبد فيشنو، لأنه هو الإله فيشنو الحقيقي الذي هبط إلى الأرض. ثم قبض على ذراعي وكان سيعتدي عليّ على الرغم من أن زوجي كان يرانا. وإن لم يكن هذا هو الجنون فما هو إذاً؟»

«هذا الشخص فيشنو ـ هل هو الذي يرقد ميتاً على درج بنايتكم؟».

«ميت؟»

«أرسلنا في طلب سيارة نقل الجثث لتحمله بعيداً. كم مضى من الوقت على موته حسب رأيكم؟»

«كان حياً بالأمس»، تطوعت السيدة آسراني بالإجابة.

«واليوم بعد أن نزلنا إلى الأسفل وكان السيد جلال ينام هناك... ظننت أنه لايزال حياً في ذلك الوقت، على الرغم من أنني لم أجسّ نبضه».

«عند عودتنا البارحة ـ لا بد وأنه كان حياً حينذاك، أليس كذلك يا طفلتي»، سألت السيدة آسراني ابنتها.

لم تجبها كافيتا. فقد حدث الأمر إذاً ومات كما كانت تخشى. أرادت أن تحزن، أرادت أن تبكي، ولكن لماذا أصبحت عيناها جافتين فجأة؟

«هل تعرفونه بشكل جيد؟» سأل المفتش.

«بشكل جيد للغاية»، أجابت السيدة آسراني برثاء، «تعودت أن أحضر له الشاي كل صباح، وكانت عائلتي تعتمد عليه، لقد اعتمدنا عليه بالفعل ـ في الواقع شبّت كافيتا وهي تمارس الألعاب معه. سنفتقده ـ كثيراً، وفي الحقيقة... »

«في الواقع يا حضرة المفتش، نحن نعرفه أفضل»، تدخلت السيدة باتاك، «اعتدتُ إطعامه خبز الشاباتي كل يوم، وكان بالنسبة إلينا مثل فرد من العائلة، وكذلك اعتدت أن أقدم له الطعام نفسه الذي أطبخه لعائلتنا، أيضاً... »

«نعم، نعم، ولكن بعد ثلاثة أيام من طهوه عندما يكون خبزها الشاباتي صلباً كالصخور... في الحقيقة لو طلبت من طبيب أن يقوم بتشريح جثته، فسيقول بأن ما أدى إلى مرضه هو عثوره على قطعة شاباتي كبيرة غير مهضومة، عالقة في أمعائه... »

«المعذرة، ولكنا أحضرنا طبيباً، ولعلمك فنحن الذين دفعنا أتعابه أيضاً وليس أي شخص آخر يدّعي الآن أن فيشنو قريب منه للغاية وأثير لديه، لمجرد التأثير على المفتش... »

«أيتها الكاذبة، ألم ندفع نصف أجرة عربة الإسعاف عديمة الجدوى تلك التي أصر زوجك على الاتصال بها؟ دفعنا أكثر من مائة روبية، ومن أجل ماذا؟!»

رفع المفتش يده: «هل يعرف أي منكما من يكون أقرب شخص له؟»

«ربما تعرف الغاناغ ذلك، وستكون هنا في صباح الغد».

«أخبروها إذاً أنّ عليها الحضور إلى مركز الشرطة. هل لديكم أي معلومات إضافية يمكن أن تفيدني؟»

لم يقل أحد شيئاً، وهكذا تفحص الملاحظات في كتابه ونظر إليهما في تدبر، «يوجد الكثير من التناقضات هنا مع أقوال السيد جلال، وهو ما قد يثبت أهميته»، ثم توقف محدقاً في كل منهن على التوالي، «في حال موت زوجته».

أغلق دفتر ملاحظاته بقوة وكأنه قد قبض على حشرة بين دفتيه. «حسنٌ، دونتُ أقوالكن جميعاً ـ وسأعمل على طباعتها، وتجهيزها للتوقيع في الغد.» ثم وضع رباطاً مطاطياً حول الكتاب. «بالطبع سنعثر على الابن ونرى إن كانت لديه أي معلومات ذات صلة»، ثم دسّ دفتر الملاحظات في جيب قميصه. «والآن إن لم يكن هناك المزيد... »

«انتظر»، قالت كافيتا، «لديّ ما أضيفه حول فيشنو»، آن الأوان للخروج بمشهد الحزن وهي فرصتها لإثبات نفسها، لا بد أن تذرف دمعة هنا وهو أقل ما تفعله للمسكين فيشنو، « في طفولتي»، قالت في محاولة للتفكير في الألعاب التي اعتادا ممارستها.

ذهبت عن أمها نظرة الجزع وحملقت بعينيها في تحذير لها، لكن كافيتا تجاهلتها.

«في طفولتي»، حاولت من جديد، فوضع المفتش قلمه بين شفتيه ونظر إليها بجدية. لماذا تجد صعوبة في استعادة تلك الصور حول المشاعل والألعاب النارية؟

«في طفولتي»، بدأت للمرة الثالثة، لكنها شعرت بها هذه المرة، شعرت بالدموع تتجمع في زاوية عينها، تنمو، وتتجمع، وترتج - ثم تنساب عندما عجزت رموشها عن الاحتفاظ بها، تنساب من دائرة جفنيها فوق بروز وجنتها، تنساب فوق مساحة وجهها اليانع، مثل تجمع الندى الذي يسيل فوق قشرة تفاحة، ومثل مجرى صغير من طل الصباح. كل قطرة منها تشع بوهج شبابها، وكل دمعة هي جوهرة تحيط بأساها الدفين.

رفعت كافيتا وجهها نحو أمها، ورفعته نحو السيدة باتاك، ونحو المفتش؛ وألقت الشمس بضيائها فوق البسطة، فشعرت بالطاقة تتلألأ فوق خديها، ودفئها يربت على وجهها.

السادس عشر

بعد الضوء يأتي الظلام، فهناك من ينفخ قيثارته، واللحن من العذوبة حتى ليدفع فيشنو إلى البكاء. يقتفي أثر جدائل الصوت التي تقوده كما حبلٌ عبر الظلمة.

يشعر بوجود الأشجار قبل أن يراها، تمسح غصيناتها على وجهه، وتحدث أوراقها الساقطة حفيفاً تحت قدميه، وتمسح الفروع من فوق رأسه في أثناء مروره وكأنها يد عملاق تنزل فوقه لتباركه.

ثم يتلاشى الظلام ويرى ضباب الغابة الذي ينقشع بالتدريج أيضاً، فتظهر له بوضوح الأشجار والخضرة والبهاء.

تقع عيناه على الصبي من خلال الأشجار التي يرى من خلفها مرجاً أخضر في مقدمته كوخ وأبقار ترعى العشب من ورائه. كان الصبي يختبئ خلف شجرة مراقباً امرأة تمخض اللبن، ويلتفت عندما يأتي فيشنو من خلفه.

«اسسسس!» يهمس نحوه بإصبع فوق شفتيه، ويكتشف فيشنو أن لون جلده مشوب بالزرقة، فيتسلل خلفه ويراقبان المرأة سوية. كانت تغني وهي تسحب الحبل المربوط إلى المخّاضة، بيدها اليمنى أولاً ثم بيدها اليسرى في إيقاع يطابق اللحن.

ينظر الصبي إلى فيشنو ويسأله: «أنت مستعد؟» وقبل أن يتمكن من إجابته ينطلق راكضاً نحو المرأة. يصل إليها ويقلب المخّاضة فيتبدد الحليب فوق العشب لتتكون طبقة بيضاء تنتشر فوق اللون الأخضر. تصرخ المرأة في حين يتجمع الحليب عند قدميها ويغطس الصبي يده في المخاضة، ثم يعود راكضاً نحو الشجرة بالسرعة نفسها التي انطلق بها.

«انتظر حتى أخبر ياشودا بالأمر!» تصيح المرأة من خلفه.

يشاهد فيشنو شيئاً أبيض وقشدياً في راحة الفتى. يظهره الفتى له، فينظر إليه فيشنو لكنه لا يتحرك من مكانه.

«ألا تريد شيئاً منه؟» يسأله الصبي الذي يغطس إصبعاً في راحته ثم يلعقه حتى يصبح نظيفاً. يفعل فيشنو مثله ويكتشف أنه زبد، لكنه زبد في منتهى النعومة واللذة من النوع الذي لم يتذوقه في حياته قط. يشرعان في تناول الزبد إصبعاً بعد إصبعٍ، وفي النهاية يلعق الصبي راحته.

«هل تودّ اللعب معي في الغابة؟» يسأله، وينطلق بمرح نحو الأشجار، فينظر فيشنو خلفه للحظة، ثم يركض خلفه.

كان فيشنو ينام في الغابة، وقد أنهكه اللعب مع الصبي. يوقظه لحنٌ، إنها القيثارة من جديد، شجيّة كما في السابق، ثمّ يستيقظ ويقتفي أثر اللحن، الذي يقوده أعمق فأعمق نحو الغابة.

يصل إلى مكان مكشوف، وهناك يقف الصبي بجلده الأزرق وعيناه مغلقتان. كان يثني إحدى ساقيه عند الركبة بحيث تلامس قدمه كعب القدم الأخرى. وكان الصبي ينفخ في القيثارة وعلى قسماته جذلٌ من الشدة حتى ظنه فيشنو ألماً.

يقف إلى جانبه منصتاً وتستمر الأنغام لبعض الوقت، ثم تتوقف. ثم يفتح الصبي عينيه.

«من تكون؟» يسأله فيشنو لكن الصبي لا يجيب.

«هل أنت كريشنا؟».

يبتسم قائلاً: « أنت تعرف من أكون».

يرفع الصبي القيثارة: «لا بد وأنك قد تعبت، سأسمعك القيثارة. وبإمكانك أن تستريح هذه الليلة»، ويضع القيثارة على شفتيه.

«وماذا عن الغد؟ يسألُ فيشنو.

«غداً... ستعود»، يقول الصبي، ويسمع فيشنو الألحان من جديد.

معجم مختصر

أمبيكا: Ambica إلهة المانغو وأحد أشكال تجسّد لاكشمي.

أمافاس: Amavas يوم يعتبره بعضهم منحوساً لا يظهر القمر في ليله.

أنانتا: Ananta «دون نهاية»؛ الثعبان الذي يستريح وينام فيشنو على ثنياته حين يغدو الكون مقدماً على نهايته.

أرجون: Arjun أحد إخوة باندافا، وهو شخصية رئيسية في كتابي الهندوس المقدسين؛ المهابهارتا والبهغفاد غيتا.

البانيان: Banyan شجرة هائلة تنمو وتنتشر مثل الفطر.

البارفي: Barfi حلويات على شكل مُعيّن مثل البقلاوة.

باندر: Bander القـرد.

بهاجيا: Bhajia خضار مقلية.

البهانج: Bhang مشروب كحولي قوي.

براهما: Brahma جزء من الثالوث الهندوسي المقدس، وهو الخالق الذي نفث أنفاسه فخرج الكون إلى الوجود.

براهمين: Brahmin روح كونية منزهة عن الصفات

براهمي: Brahmen أحد رجال الدين الهندوس وأعلى الطبقات شأناً.

الشاباتي: Chpati رقائق من دقيق القمح تدهن بالزيت وتشبه الخبز.

الدهارما: Dharma الشرعة المنظمة للسلوك والأخلاق، وتتجلى في العدل ونقاء السريرة والاستقامة والثبات والاستقرار، والغيرية، وأداء الواجبات. وبراهما يعد مصدر الدهارما.

ديفالي: Divali عيد الأنوار الهندوسي، وتطلق خلاله الألعاب النارية. وهو بداية التقويم وتهبط خلال ليله الإلهة لاكشمي إلى الأرض.

الدوباتا: dupatta شال نسائي طويل.

غانيش: ganesh إله في هيئة فيل.

الغاناغ: ganag امرأة تقوم بأعمال الخدم لعدة بيوت.

غارودا: garuda نسر أسطوري له جسد ورأس إنسان، ذهبي اللون ينقل فيشنو ولاكشمي إلى جنتهما السماوية فايكونثا.

غولاب غامون: gulab jamun حلوى لقمة القاضي وغولاب تعني الورد.

هانومان: hanuman إله على هيئة قرد.

هولي: holi عيد الربيع الهندوسي، وفيه يلون الناس أنفسهم بألوان زاهية.

إندرا: indra إله الجنة، وهو مماثل لزيوس.

المقهى الإيراني: irani hotel من المقاهي العتيقة التي تقدم الشاي، أقامها المهاجرون الإيرانيون في بومباي.

كاليووغا: kaliyuga العصر الذي نعيشه ويعدّ المرحلة الرابعة والأخيرة من عمر الكون عندما يختفي الخير من العالم، فيستنشق براهما العالم من خلال منخريه.

كالكي: kalki التجسد الأخير لفيشنو، وكذلك اسم الحصان الأبيض الذي سيمتطيه عند هبوطه إلى الأرض ليمحق الشر، وينهي دورة الحياة الحالية.

كريشنا: Krishna أحد أكثر الآلهة الهندوسية تبجيلاً، ويحتفى به لعشقه للحياة ولما يتمتع به أيضاً من قوة وحكمة، وهو أحد تجسدات فيشنو عندما يعلن عن ألوهيته كما جاء في البهاغفادفيتا.

لادوو: ladoo حلويات دائرية صغيرة بلون أصفر تقدم في الاحتفالات.

لاكشمي: lakshmi إلهة السعد ورفيقة فيشنو تصحبه من تجسد لآخر في أشكالها المتعددة.

اللوبان: Loban نوع من صمغ الأشجار يستخدم كعلكة أو لبان.

مهراجا: maharaja ملك لمقاطعة ما، وعنوان شعار الخطوط الجوية الهندية.

ماسالا: Masala مجموعة بهارات.

ماتسيا: matsya تجسّد فيشنو الأول على هيئة سمكة أبلغت مانو أن يبني سفينة لإنقاذ البشرية وقامت بقطر السفينة إلى بر الأمان عند قدوم الطوفان.

مايا: maya الوهم الذي يشكل الوجود الفاني في الفلسفة الهندوسية، حيث تأخذ فيه روح واحدة فقط صفة الخلود.

ممصاحب: memsahib أسلوب ظهر إبان الاستعمار البريطاني تخاطب به النساء من طبقة أعلى، ويستخدم أيضاً للإشارة إليهن.

أ- و – م: om اختصار مقدس عند الهندوس في أثناء الصلاة، ولها تفسيرات عديدة، أحدها يجمع الطاقة الروحية للآلهة براهما، وفيشنو، وشيفا. كما تعني حالات الحلم والنوم العميق والوعي، والسكون العميق بعد النيرفانا (الكشف الروحي واستنارة العقل)، ويُعزى إلى هذا اللفظ عدد من القوى السحرية.

بـان: paan خليط للمضغ مكون من عدة بهارات ملفوفة بورق نبات التنبول.

بان وله: paanwallah هو معدّ وبائع البان. وله: wallah تعبير يعني الشخص المرتبط بشيء ما، فالبان وله هو من يبيع البان وكذلك الخضار وله، والسفائر وله ، والراديو وله وهو الشخص صاحب الراديو، وهكذا.

باراثا: paratha خبز مفلطح.

بيدا: peda حلويات من الحليب والسكر على هيئة قرص.

بهوليجادي: phulijadi لعبة نارية.

رادها: radha أحد تجسدات لاكشمي كحبيبة كريشنا التي تحلب الأبقار.

راما: rama أحد تجسدات فيشنو، وهو الشخصية الرئيسية في كتاب رامايانا.

روكيميني: rukhmini تجسد لاكشمي كزوجة كريشنا.

صاحب: sahib أسلوب يخاطب به الرجال من طبقة أعلى وكذلك للإشارة إليهم.

ساموسا: samosa مثلثات مقليّة محشوة بالخضار المتبلة.

شيفا: shiva واحد من الثالوث الهندوسي المقدس، براهما الخالق، وفيشنو الحافظ، وشيفا المدمّر، وعلى العكس من فيشنو فهو يفضل الابتعاد عن العالم نظراً لزهده.

فارونا: varuna إله المحيطات.

فيشنو: Vishnu الحافظ، واحد من الثالوث المقدس، وله أكثر من ألف اسم أشهرها أنانتيسيانا، أي (النائم على الأفعى اللامتناهية)، الذي يحرس الكون ويحافظ عليه، ويحافظ على توازن كل ما هو مخلوق، ويسعى لأن يستمر كل شيء في العمل، وتتم عبادته في في أشكال متعددة، وبالأخص بصفته راما أو كريشنا. ويصور عادة على أنه شاب له أربع أذرع، يحمل محارة وقرصاً، وقوساً، وزهرة لوتس، وهراوة، وفي بعض الأحيان يصور وبجانبه زوجته لاكشمي (إلهة الحظ).

يوغي: yogi الشخص الذي يمارس اليوجا باستمرار لتحقيق حالة من السمو ليتمكن من السيطرة على العقل والجسم، وفي الرواية اسم للروح المسماة جييف.

نبذة عن المؤلف:

روائي أميركي من أصل هندي، ولد في الهند عام 1959، وتخرج في جامعة مومباي، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الدكتوراه في الرياضيات. كتب القصة القصيرة في الثمانينيات، لكنه لم ينشر منها سوى القليل. وفي 1995، بدأ في كتابة موت فيشنو، التي لاقت رواجاً كبيراً عند نشرها في 2001. ولقد أكمل سوري ثلاثيته بإصدار روايته الثانية: عصر شيفا 2008 والثالثة: مدينة ديفي 2013، ويغلب على أعماله توظيف الأساطير الهندوسية في تداخلاتها مع الحياة في الهند المعاصرة.

نبذة عن المترجم:

وُلد في ليبيا عام 1948، وتخرج في الأكاديمية البحرية البريطانية عام 1971. شغل مناصب عديدة في القوات البحرية حتى 1999، وشارك في دورات دراسات عليا في أميركا وروسيا وبريطانيا وسوريا. نُشرت له العديد من الترجمات المختلفة في دوريات محلية وعربية، وصدر له من الترجمات:

- «كثبان النمل في السافانا»، رواية (2002)، تشنوا أتشيبي، إبداعات عالمية / الكويت.
- «الحرب في زمن السلم»، تاريخ سياسي (2003)، ديفيد هالبرستام، الهيئة القومية للبحث العلمي.
- «فتيات في حرب»، قصص قصيرة، أتشيبي وآخرون (2004)، مجلس تنمية الإبداع، ليبيا.
- «إعدام المجند سلوفك»، رواية (2005)، مجلس الثقافة العام.
- «الأخبار من باراغواي»، رواية (2009)، للي تك، مشروع «كلمة».
- «فتاة الوشاح الأحمر»، رواية (2009)، جي جيانغ، مشروع «كلمة».
- «التحفة الفنية»، رواية (2013)، آنا إنكوست، مشروع «كلمة».

موت فيشنو

ترصد هذه الرواية، الصادرة عام 2001، قصةَ احتضار خادم المنازل العجوز المدمن فيشنو. ولا يفوت الراوي أن يلقي الضوء على الامتزاج بين الديانات المختلفة في الهند؛ بلد الطوائف المتعددة. وتمزج الرواية بين الواقعي والأسطوري في حياة فيشنو وموته.

دخلت هذه الرواية، سنة صدورها، القائمة الطويلة لجائزة «البوكر»، والقائمة القصيرة لجائزة «بن/ فوكنر» سنة 2002، وفازت في ذلك العام بجائزة «بارنز ونوبل للاكتشاف».

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 014515